القرآن الكريم

والتوراة والإنجيل وَالعِلم

دِراسَة الكتب المقَدَّسَة فى ضَوءِ المعَارف الحَديثَة

تأليف

دكتور موريس بوكاى

الناشر

مكتبة مدبولى

2004



القرآن الكريم

والتوراة والإنجيل والعلم

دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة

الكتاب : القرآن الكريم
والتوراة والإنجيل والعلم
دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة
الكاتب : دكتور موريس بوكاى
الطبعة : الأولى عام ١٩٩٦م
الثانية عام ٢٠٠٤م
الناشر : مكتبة مدبولى ٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة
تليفون : ٥٧٥٦٤٢١ فاكس : ٥٧٥٢٨٥٤
الإخراج والتنفيذ : مكتب النصر للجمع التصويرى
القاهرة - تليفون : ٧٨٦٣١٩٩
رقم الإيداع : ٢٠٠٤/٨٠٧٠
الترقيم الدولى : 977-208-974-0

المحتويات

الموضـــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

المقدمة

لكل دين من أديان التوحيد الثلاثة كتابه الذى يختص به . وتشكّل هذه الوثائق أساس الإيمان لدى كل مؤمن . يهوديًا أو مسيحيًا أو مسلمًا . وكل مؤمن يعد كتابه تسجيلاً ماديًا لوحى إلهى . وقد يكون هذا الكتاب منزلاً بشكل مباشر ، كما هو الأمر فيما يتعلق بإبراهيم أو بموسى فقد تلقيا الوصايا من الله نفسه . وقد يكون منزلاً بشكل غير مباشر كما هو الحال فيما يختص بالمسيح أو محمد ﷺ ، فقد أعلن المسيح أنه يتحدث باسم الأب ، وأما محمد ﷺ فقد بلغ الرسالة التى نقلها إليه جبريل .

وإن اعتبارات على المعطيات الموضوعية لتاريخ الأديان توجب وضع العهد القديم والأناجيل والقرآن على مستوى واحد من حيث إنها مجموعات للوحى المكتوب . غير أن هذا الموقف الذى يقول به المسلمون مبدئيًا ليس هو نفس الموقف الذى يقبله مؤمنو بلادنا الغربية التى تنتشر بها المؤثرات اليهودية المسيحية : والتى ترفض إعطاء القرآن صفة الكتاب المنزل .

وتعرف هذه الأوضاع من الرجوع إلى المواقف التى تتخذها كل جماعة دينية إزاء الجماعتين الأخريين فيما يتعلق بالكتب المقدسة .

فكتاب اليهودية المقدس هو التوراة . وتختلف التوراة عن « العهد القديم المسيحى » لأن هذا الأخير قد أضاف عدة أسفار لم تكن موجودة بالعبرية . غير أن هذا الاختلاف لا يمس شيئًا من العقيدة . لكن اليهودية لا تعترف بأى وحى جاء بعدها .

وهكذا فإن المسيحية قد اعتمدت التوراة العبرية ، ولكنها زادت عليها بعض الإضافات . غير أن المسيحية لم تقبل كل ما انتشر من كتابات تستهدف تعريف الناس برسالة عيسى . ولذلك قامت الكنيسة بإجراءات حذف هامة جدًا لعدد كبير من الأسفار التى كتبت لتعريف الناس بحياة المسيح وبتعاليمه . وهكذا فإن الكنيسة لم تحتفظ من العهد الجديد إلا بعدد محدود من الكتابات ، وكان من أهمها الأناجيل

الأربعة المعترف بها كنسيًا . غير أن المسيحية (بدورها) لا تعترف بأى وحى جاء بعد المسيح وحوارييه ، ولذلك فهى تستبعد القرآن .

أما القرآن ، وقد أتى بعد المسيح بقرون ستة ، فإنه يتناول معطيات عديدة جاءت فى التوراة العبرية والأناجيل ، ولذلك فهو يذكر التوراة والإنجيل كثيرًا . والقرآن يوصى كل مسلم بالإيمان بالكتب المقدسة السابقة عليه ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ (النساء: ١٣٦) ، وهكذا فإن القرآن يؤكد المكانة البارزة التى يحتلها رسل الله فى تاريخ التنزيل مثل نوح وإبراهيم وموسى والأنبياء خاصة المسيح الذى يحتل مكانة بارزة بينهم . والقرآن مثل الأناجيل ، يقدم ميلاد المسيح كفعل خارق (يفوق الطبيعة) ، ويخص بالذكر أيضًا مريم ، ويطلق على السورة ١٩ اسمها (سورة مريم) .

والواقع أننا ملزمون بملاحظة أن المعطيات الخاصة بالإسلام التى ذكرناها مجهولة عمومًا فى بلادنا الغربية ، ولا يدهشنا ذلك إذا تذكرنا الطريقة التى اتبعت فى تثقيف الأجيال الكثيرة فيما يتعلق بالقضايا الدينية لدى الإنسان ، وكيف فرض عليهم الجهل فى كل ما يمس الإسلام ، وهكذا فإن الاستعمال السائد حتى اليوم فى التسميات مثل : « الدين المحمدى » و « المحمديون » ليدل على الرغبة فى أن تظل النفوس مقتنعة بذلك الرأى الخاطئ القائل بأن تلك معتقدات انتشرت بفضل جهاد رجل ، وأنه ليس لله (بالمعنى الذى يدركه المسيحيون » مكان فى تلك المعتقدات .. ؟ ولنضف أن كثيرًا من معاصرينا المثقفين يهتمون بالجوانب الفلسفية والاجتماعية والسياسية فى الإسلام دون أن يتساءلوا عن التنزيل الإسلامى بصورة خاصة ، كما كان يجب عليهم أن يفعلوه . ويرون من البديهيات أن محمدًا ﷺ قد اعتمد على ما سبقه ، وذلك بقصد استبعاد قضية الوحى منذ البدء .

وزيادة على ذلك فهناك بعض أوساط مسيحية تحتقر المسلمين ، ولقد خبرت هذا حين حاولت إقامة حوار من أجل دراسة مقارنة حول عدد من الأخبار المذكورة فى

القـرآن والتـوراة معًـا فى مـوضـوع واحـد . ولاحظت أن هناك رفضًـا باتًا للنظر بعين الاعتبار ، ولو لمجرد التأمل ، فيما يحتويه القرآن مما يتعلق بموضوع الدراسـة المزمعة ، كأن الرجوع فى ذلك إلى القرآن يعنى الاعتماد على الشيطان .

ومع ذلك يبد لنا أن هناك تغيرًا جذريًا يتحقق اليوم على أعلى مستوى فى العالم المسيحى . فالوثيقة التى طبعتها سكرتارية الفاتيكان لشئون غير المسيحيين إثر مجمع الفاتيكان الثانى ، بعنوان « توجيهات لإقامة حوار بين المسيحيين والمسلمين Orientations un dialogue entre Chretiens et Musulmans والتى طبعت للمرة الثالثة فى عام ١٩٧٠م ، تشهد بعمق التحول فى المواقف الرسمية . فقد دعت وثيقة الفاتيكان إلى استبعاد الصورة التى يصور المسيحيون المسلمين عليها ، « تلك الصورة البالية التى ورثنا الماضى إياها أو شوهتها الافتراءات والأحكام المسبقة » . ثم اهتمت الوثيقة « بالاعتراف بمظالم الماضى التى ارتكبها الغرب فى ذو التربية المسيحية فى حق المسلمين » . والوثيقة تنتقد أيضًا مفاهيم المسيحيين الخاطئة عن الحتمية الإسلامية وحرفية الإسلام وتعصبه ، وغير ذلك . إن الوثيقة تؤكد على وحدة الإيمان بالله عند الجماعتين وتذكر كيف أثار الكاردينال كونيج Koenig إعجاب مستمعيه بالجامع الأكبر حين أعلن ذلك فى محاضرته الرسمية التى ألقاها بجامعة الأزهر الإسلامية فى القاهرة عام ١٩٦٩ . والوثيقة تذكر أيضًا بأن سكرتارية الفاتيكان قد دعت المسيحيين منذ عام ١٩٦٧ إلى تقديم تهانيهم إلى المسلمين بمناسبة عيد الفطر (انتهاء شهر الصوم) فهو يمثل «قيمة دينية أصيلة».

وقد لحقت تلك البوادر المواتية للتقارب بين الهيئة البابوية والإسلامية لقاءات واجتماعات جعلت تلك البوادر للتقارب أمرًا واقعًا . ومع ذلك فقلة قليلة هى التى عرفت هذه الأحداث الهامة التى حدثت بالعالم الغربى ، على الرغم من كثرة وسائل النشر والإعلام من صحافة وإذاعة وتلفزيون .

وكذلك فإن الصحف لم تكرس مكانة كبيرة للزيارة الرسمية التى قام بها الكردينال بنيودولى Pignedoli رئيس سكرتارية الفاتيكان لشئون غير المسيحيين إلى جلالة الملك فيصل عاهل العربية السعودية فى الرابع والعشرين من أبريل عام ١٩٧٤ ، ولم تعلق

جريدة الموند Le Monde على تلك الزيارة إلا فى سطور قلائل فى عددها الصادر فى ٢٥ أبريل عام ١٩٧٤ برغم أهمية الخبر ، وخاصة عندما نعلم أن الكاردينال قد سلم للعاهل السعودى رسالة من البابا بولس السادس مدفوعًا إلى ذلك بإيمانه العميق بوحدة العالمين الإسلامى والمسيحى اللذين يعبدان إلهًا واحدًا ، ومعبرًا فيها قداسته عن تقديره لجلالة الملك فيصل باعتباره الشخصية العليا فى العالم الإسلامى .

وبعد ذلك بستة أشهر ، أى فى أكتوبر ١٩٧٤ ، استقبل البابا رسميًا بالفاتيكان كبار علماء المملكة العربية السعودية ، وكانت مناسبة لندوة بين مسيحيين ومسلمين حول حقوق الإنسان الثقافية فى الإسلام ، وذكرت « أوسرفاتورى رومانو Osservatore Romano » ، جريدة الفاتيكان ، فى عددها الصادر فى ٢٦ من أكتوبر سنة ١٩٧٤ هذا الحدث التاريخى ، وكرست له فى صحيفتها الأولى مكانًا أكبر من ذلك الذى أعطته للتعليق على اليوم الختامى لمجمع الأساقفة المنعقد بروما .

ثم استقبل المجلس المسكونى الأعلى للكنائس بجنيف وغبطة الأسقف الشنجر El-chinger أسقف ستراسبورج كبار علماء المملكة العربية السعودية . ودعا الأسقف العلماء لأداء فريضة الظهر أمامه بكاتدرائيته . وإذا كانت الصحف قد ذكرت الخبر ، فذلك يرجع على ما يبدو ، للجانب الاستعراضى أكثر منه للدلالة الدينية الهامة التى مثلها . واتضح لى ممن سألتهم عن أخبار هذه المحافل أن الذين علموا بها هم قلة قليلة جدًا .

ولاشك أن تاريخ العلاقات بين الدينين سيسجل روح الانفتاح نحو الإسلام التى عبر عنها البابا بولس السادس فى تصريحه « بإيمانه العميق بوحدة العالمين الإسلامى والمسيحى اللذين يعبدان إلهًا واحدًا » . ولقد رأيت أنه من الأهمية أن أذكّر بمشاعر رئيس الكنيسة الكاثوليكية إزاء المسلمين . فكثير من المسيحيين الذين تربوا فى ظل روح عدائية صريحة – الأمر الذى رثت له الوثيقة المذكورة أعلاه – هم مبدئيًا أعداء لكل تأمل فى الإسلام ، ولذلك فإنهم يظلون فى جهالة لحقيقة الإسلام ، وبالتالى فإن مفاهيمهم عن الإسلام هى مفاهيم مغلوطة لاشك فيها .

وأيًا كان الأمر يبدو لنا أنه من الحق علينا ، عند دراسة جانب من جوانب التنزيل فى دين توحيدى ، أن نعالجه بالمقارنة مع ما يقدمه الدينان الآخران من وجهة النظر فى الموضوع نفسه . وإن دراسة شاملة لمشكلة ما هى بالتأكيد أكثر أهمية من دراسة جانب واحد منفصل . إن المواجهة بين حقائق العلم فى القرن العشرين وبين بعض الموضوعات التى تعالجها الكتب المقدسة تهم بالتالى الأديان الثلاثة معًا ، وليس دينًا واحدًا على حدة . هذا ، ونظرًا لما يتهدد الأديان الثلاثة من طغيان المَاديَّة فى هذه الأيام ، أفلا تكون هذه الأديان بحكم ذلك جبهة واحدة ؟ بل أليس من الواجب أن تتقارب تجاه هذا الطغيان ، وأن تؤلف كتلة واحدة متماسكة ؟ ففى البلاد الإسلامية كما فى البلاد ذات المؤثرات اليهودية المسيحية يقال - وخاصة فى الأوساط العلمية - إن الدين والعلم لا يتفقان . والواقع أن المشكلة ، لكى تعالج فى شمولها ، تتطلب تطويرات هامة . ولكنى لا أعالج هنا إلا جانبًا واحدًا من الموضوع ، وهو دراسة الكتب المقدسة نفسها فى ضوء المعارف العلمية الحديثة .

غير أن قصد هذه الدراسة يفرض سؤالاً أوَّليًا لكنه أساسى : ما القيمة الصحيحة لهذه النصوص التى فى حوزتنا اليوم .. ؟ وذلك يعنى بالضرورة أن ندرس الظروف التى سادت تحرير تلك النصوص وانتقالها إلينا .

إن معالجة الكتب المقدسة من خلال علم الدراسة النقدية للنصوص شىء قريب العهد فى بلادنا . ففيما يخص العهد القديم والعهد الجديد ، ظل الناس يقبلونهما على ما هما عليه طيلة قرون عديدة . ولم تكن قراءة الكتب المقدسة تؤدى إلا إلى اعتبارات مدحية ، وكان مجرد التعبير عن أى روح نقدية إزاء الكتاب المقدس خطيئة لا تغتفر . وكان القساوسة هم الصفوة التى تستطيع بغير عناء أن تكون لديها معرفة إجمالية عن التوراة والأناجيل . أما عامة العلمانيين فلم تكن تتلقى إلا نصوصًا مختارة خلال الطقوس الدينية أو عبر المواعظ .

وبعد أن أصبح نقد النصوص علمًا ، فقد كان له الفضل فى أن جعلنا نكتشف مشاكل مطروحة وخطيرة فى أحيان كثيرة ، غير أنه لابد من أن نصاب بخيبة الأمل

عندما نقرأ كتبًا كثيرة تدعى أنها نقدية ، ولكنها لا تقدم فى مواجهة الكثير من مشكلات التأويل الحقيقية إلا تفسيرات مديحية تهدف إلى سَتْر حَرَج المؤلف وحيرته . فى ظل تلك الظروف فإن المتناقضات والأمور البعيدة عن التصديق تظل باقية بلا حل فى نظر كل من يريد أن يحتفظ بسلامة مقدرته على التفكير وحسه الموضوعى . وإننا لنأسف حقًا لذلك الموقف الذى يهدف إلى تبرير الاحتفاظ فى نصوص التوراة والإنجيل ببعض المقاطع الباطلة ، خلافًا لكل منطق ، إن ذلك موقف يسىء كثيرًا إلى الإيمان لدى بعض العقول المثقفة . ومع ذلك فقد أثبتت التجربة أنه إذا كان بعضهم قادرًا على فضح بعض مواطن الضعف من هذا النوع ، فإن الغالبية من المسيحيين لم تدرك حتى الآن وجود هذا الضعف ، وظلت فى جهالة تامة من أمر ذلك التناقض مع المعارف الدنيوية المشهورة التى تُعتبر غالبًا من المعارف الأساسية جدًا .

أما الإسلام فعنده فى الأحاديث النبوية ما يشبه الأناجيل من حيث إنها مجموعة من الأقوال والأخبار لأفعال محمد ﷺ ، وليست الأناجيل بأكثر من هذا فيما يتعلق بعيسى . فقد كتبت أولى الأحاديث بعد عشرات من السنوات من موت محمد ﷺ مثلما كتبت الأناجيل بعد عشرات السنوات من انصراف المسيح . إذن فالأحاديث والأناجيل شهادات بأفعال مضت . وسنرى فيما بعد كيف أن مؤلفى الأناجيل الأربعة المعترف بها كنسيًا لم يشهدوا الوقائع التى أخبروا بها . والأمر نفسه ينطبق على المؤلفات فى الحديث المشهورة بصحتها .

وهنا يجب أن تتوقف المقارنة . وذلك لأن النقاش إذا كان قد دار ومازال يدور حول صحة هذا الحديث أو ذاك فإن الكنيسة قد حسمت منذ قرونها الأولى وبشكل نهائى بين الأناجيل المتعددة وأعلنت رسمية أربعة منها فقط ، برغم التناقضات العديدة فيما بين هذه الأناجيل فى كثير من النقاط ، وأصدرت الأمر بإخفاء الأناجيل الأخرى . ومن هنا جاء اسم « الأناجيل المزورة » .

وهناك فرق آخر جوهرى بين المسيحية والإسلام فيما يتعلق بالكتب المقدسة ، ونعنى بذلك فقدان نصوص الوحى الثابت لدى المسيحية ، فى حين أن الإسلام لديه القرآن الذى هو وحى منزل وثابت معًا .

فالقرآن هو الوحى الذى أنزل على محمد ﷺ عن طريق جبريل ، وقد كتب فور نزوله ، ويحفظه ويستظهره المؤمنون عند الصلاة وخاصة فى شهر رمضان ، وقد رتب فى سور بأمر من محمد ﷺ نفسه ، وجمعت هذه السور فور موت النبى ﷺ وفى خلافة عثمان - (من السنة الثانية عشرة إلى السنة الرابعة والعشرين التالية لوفاة محمد ﷺ) - ذلك لتصبح النص الذى نعرفه اليوم .

أما الكتاب المسيحى المقدس ، فإنه يختلف بشكل بيِّن عما حدث بالنسبة للإسلام. فالإنجيل يعتمد على شهادات بشرية متعددة وغير مباشرة ، وإننا لا نملك مثلاً أى شهادة لشاهد عيان لحياة عيسى ، وهذا خلافًا لما يتصوره الكثير من المسيحيين ، وهكذا إذن طرحت مشكلة صحة نصوص الكتب المقدسة المسيحية - ونصوص الوحى الإسلامى .

ولقد كانت مقابلة نصوص الكتب المقدسة بحقائق العلوم موضوع تفكير الإنسان فى كل العصور . ففى البدء قيل إن اتفاق العلم والكتب المقدسة أمر لازم لصحة النص المقدس . وإن القديس أوغسطين ، فى خطابه الثانى والثمانين - الذى سنذكره فيما بعد - قد حدد هذا المبدأ بشكل حاسم . ولكن تطور العلم كشف للمفكرين عن وجود نقاط خلاف بين الاثنين . وبهذه الطريقة خلق ذلك الوضع الخطير الذى جعل اليوم مفسرى التوراة والأناجيل يناصبون العلماء العداء . إذ لا يمكن فى الحقيقة أن نقبل بأن رسالة إلهية منزلة تنص على واقع غير صحيح بالمرة . وبناء على ذلك فليس هناك سوى إمكانية واحدة للتوفيق المعقول بين الأمرين ، وهى عدم قبول صحة المقطع الذى يقول فى التوراة بأمر غير مقبول علمياً . ولم يكن هذا الحل طواعية ، بل العكس فقد تعصب بعضهم بشدة للاحتفاظ بتمام النص ، وقد كان نتيجة هذا أن اضطر المفسرون إزاء صحة الكتب المقدسة إلى اتخاذ مواقف لا يمكن قبولها من قبل رجل العلم .

وإن الإسلام قد اعتبر دائمًا ، كما فعل القديس أوغسطين بالنسبة للتوراة ، أن هناك اتفاقًا بين معطيات الكتاب المقدس والواقع العلمى . وأن دراسة نص القرآن فى العصر الحديث لم تكشف عن الحاجة إلى إعادة النظر فى هذا . وسوف نرى فيما بعد

أن القرآن يثير وقائع ذات صفة علمية ، وهى وقائع كثيرة جدًا ، خلافًا لقلتها فى التوراة، إذ ليس هناك أى وجه للمقارنة بين القليل جدًا لما أثارته التوراة من الأمور ذات الصفة العلمية ، وبين تعدد وكثرة الموضوعات ذات السمة العلمية فى القرآن ، وأنه لا يتناقض موضوع ما من مواضع القرآن العلمية مع وجهة النظر العلمية . وتلك هى النتيجة الأساسية التى تخرج بها دراستنا . وسنرى فى نهاية هذا الكتاب كيف أن الأمر يختلف تمامًا فيما يتعلق ببعض الأحاديث ظنية الثبوت لا يمكن قبولها علميًا ، غير أن هذه قد خضعت لدراسات جادة اتباعًا لمبادئ القرآن الصريحة التى تأمر دائمًا بالرجوع إلى العلم والعقل اللذين يسمحان للناقد بنفى صحتها على ضوء حقائق القرآن .

هذه التأملات حول الصفة المقبولة أو غير المقبولة علميًا فى كتاب مقدس تتطلب منًا إيضاحًا دقيقًا . إذ علينا أن نؤكد أننا عندما نتحدث هنا عن حقائق العلم فإننا نعنى بها كل ما قد ثبت منها بشكل نهائى . وأن هذا الاعتبار يقضى باستبعاد كل نظريات الشرح والتبرير التى قد تفيد فى عصر ما لشرح ظاهرة ، ولكنها قد تلغى بعد ذلك تاركة المكان لنظريات أخرى أكثر ملاءمة للتطور العلمى . وإن ما أعنيه هنا هو تلك الأمور التى لا يمكن الرجوع عنها . والتى ثبتت بشكلٍ كافٍ بحيث يمكن استخدامها دون خوف الوقوع فى مخاطرة الخطأ ، حتى وإن يكن العلمُ قد أتى فيها بمعطيات غير كاملة تمامًا .

وعلى سبيل المثال فإننا نجهل التاريخ التقريبى لظهور الإنسان على الأرض ، غير أنه قد اكتشفت آثاره لأعمال بشرية نستطيع وضع تاريخها فيما قبل الألف العاشرة من التاريخ المسيحى دون أن يكون هناك أى مكان للشك . وعليه فإننا لا نستطيع علميًا قبول صحة نص سفر التكوين الذى يعطى أنسابًا وتواريخ تحدد أصل الإنسان (خلق آدم) بحوالى ٣٧ قرنًا قبل المسيح . وربما استطاع العلم فى المستقبل أن يحدد لذلك تواريخ فوق تقديراتنا الحالية . غير أننا نستطيع أن نطمئن إلى أنه لن يمكن أبدًا إثبات أن الإنسان قد ظهر على الأرض منذ ٥٧٣٦ سنة كما يقول التاريخ العبرى فى ١٩٧٥ . وبناء على ذلك فإن معطيات التوراة الخاصة بقدم الإنسان غير صحيحة .

هذه المواجهة مع العلم لا تتناول أية قضية دينية بالمعنى الحقيقى للكلمة . فليس للعلم مثلاً أن يقدم أى شرح لكيفية ظهور الله لموسى - أو أن يحل اللغز الذى يحيط بمجئ المسيح على الأرض دون أن يكون له أب جسدى « بيولوچى » . ولذلك فإن الكتب المقدسة لا تقدم أى تعليل مادى لأمور من هذا النوع . وإن الدراسة التى نقدمها الآن تختص بما تتبئنا به الكتب المقدسة فيما يتعلق بالظاهرات الطبيعية المتنوعة الكثيرة ، والتى تحيطها تلك الكتب بقليل أو بكثير من التعليقات والشروح . ولابد من الملاحظة أن الوحى القرآنى غنى جدًا فى تعدد هذه المواضع ، وذلك على خلاف ندرتها فى العهدين القديم والجديد .

لقد قمت أولاً بدراسة القرآن الكريم ، وذلك دون أى فكر مسبق وبموضوعية تامة باحثًا عن درجة اتفاق نص القرآن ومعطيات العلم الحديث . وكنت أعرف ، قبل هذه الدراسة ، وعن طريق الترجمات ، أن القرآن يذكر أنواعًا كثيرة من الظاهرات الطبيعية، ولكن معرفتى كانت وجيزة . وبفضل الدراسة الواعية للنص العربى استطعت أن أحقق قائمة أدركت بعد الانتهاء منها أن القرآن لا يحتوى على أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم فى العصر الحديث .

وبنفس الموضوعية قمت بنفس الفحص على العهد القديم والأناجيل . أما بالنسبة للعهد القديم فلم تكن هناك حاجة للذهاب إلى أبعد من الكتاب الأول - أى سفر التكوين - فقد وجدت مقولات لا يمكن التوفيق بينها وبين أكثر معطيات العلم رسوخًا فى عصرنا .

وأما بالنسبة للأناجيل فما نكاد نفتح الصفحة الأولى منها حتى نجد أنفسنا دفعة واحدة فى مواجهة مشكلة خطيرة ونعنى بها شجرة أنساب المسيح . وذلك أن نص إنجيل متى يناقض بشكل جلى إنجيل لوقا Luc ، وأن هذا الأخير يقدم لنا صراحة أمرًا لا يتفق مع المعارف الحديثة الخاصة بقدم الإنسان على الأرض .

غير أن وجود هذه الأمور المتناقضة وتلك التى لا يحتملها التصديق ، وتلك الأخرى التى لا تتفق والعلم ، لا يبدو لى أنها تستطيع أن تضعف الإيمان بالله ، ولا تقع المسئولية

فيها إلا على البشر ، ولا يستطيع أحد أن يقول كيف كانت النصوص الأصلية ، وما نصيب الخيال والهوى فى عملية تحريرها ، أو ما نصيب التحريف المقصود من قبل كتبة هذه النصوص ، أو ما نصيب التعديلات غير الواعية التى أدخلت على الكتب المقدسة . وإن ما يصدمنا حقًا فى أيامنا هذه أن نرى المتخصصين فى دراسة النصوص يتجاهلون ذلك التناقض والتعارض مع الحقائق العلمية الثابتة ، أو يكشفون عن بعض نقاط الضعف ليحاولوا بعد ذلك التستر عليها مستعينين فى ذلك ببهلوانيات جدلية . وسنقدم فى هذا الكتاب أمثلة لاستخدام بعض كبار المفسرين لصيغ براقة دفاعًا عن إنجيلى متى ويوحنا ومدحًا لهما . وإن استخدام هذه الوسائل للتستر على تناقض أو على أمر بعيد التصديق ، مما يسمونه « صعوبة » استحياءً ، قد كان ناجحًا فى كثير من الأحيان ، وهذا ما يفسر لنا كيف أن كثيرًا من المسيحيين ظلوا يجهلون نقاط الضعف الخطيرة فى كثير من المقاطع فى العهد القديم وفى الأناجيل ، وسيجد القارئ فى الجزءين الأول والثانى من هذا الكتاب أمثلة صحيحة فى ذلك .

أما الجزء الثالث فسيجد فيه القارى أمثلة توضيحية لتطبيق العلم على دراسة أحد الكتب المقدسة ، وهو تطبيق لم يكن ليتوقعه الإنسان ، كما سيجد القارئ فى ذلك بيانًا لما قد جاء به العلم الحديث الذى هو فى متناول كل يد من أجل فهم أكمل لبعض الآيات القرآنية التى ظلت حتى الآن مستغلقة أو غير مفهومة . ولا عجب فى هذا إذا عرفنا أن الإسلام قد اعتبر دائمًا أن الدين والعلم توأمان متلازمان . فمنذ البدء كانت العناية بالعلم جزءًا لا يتجزأ من الواجبات التى أمر بها الإسلام . وأن تطبيق هذا الأمر هو الذى أدى إلى ذلك الازدهار العظيم للعلوم فى عصر الحضارة الإسلامية ، تلك التى اقتات منها الغرب نفسه قبل عصر النهضة فى أوربا . وإن التقدم الذى تم اليوم بفضل المعارف العلمية فى شرح بعض ما لم يكن مفهومًا ، أو فى شرح بعض ما قد أسئ تفسيره حتى الآن من آيات القرآن ، ليشكل قمة المواجهة بين العلم والكتب المقدسة .

* * *

التـوراة

(الكتاب المقدس)

لمحة عامة

من مؤلف العهد القديم ؟

كم من قراء العهد القديم الذين يطرح عليهم هذا السؤال ولا يجيبوا إلا بترديد ما قرأوا فى مقدمة كتابهم العهد القديم . كم من هؤلاء القراء سيردد أن مؤلف كل هذه الكتب هو الرب ، برغم أنها كتبت بأقلام بشر ألهمه الروح القدس .. ؟

أحيانًا يكتفى مؤلف مقدمة الكتاب المقدس بأن يجيب بهذا الجواب المقتضب على قارئه حتى يسد الطريق على أى تساؤل . وأحيانًا أخرى يضيف إليها تصحيحًا يقول فيه : إن هناك تفاصيل قد أضافها بشر إلى النص الأول ، وإن الطابع المشكوك فيه لفقرة ما فى هذا النص لا تحرف « الحقيقة » العامة التى تنبع منه . هناك إصرار على هذه الحقيقة التى تتكفل الكنيسة دائمًا بضمان صحتها ، يعينها على ذلك الروح القدس، والكنيسة هى وحدها القادرة على إيضاح هذه النقاط للمؤمنين . بل لقد نشرت الكنيسة منذ مجامع القرن الرابع المسكونية قائمة بالكتب المقدسة . وأيدت هذه القائمة المجامع المسكونية التى انعقدت بفلورنسا Florence (١٤٤١) وترانت Trente (١٥٤٦) والفاتيكان Vatican II (١٨٧٠) ، بحيث إنها تشكل ما يسمى بالقانون Canon . ومنذ عهد قريب قام آخر مجمع للفاتيكان الثانى Vatican II (١٩٦٢-١٩٦٥) ، بعد كثير من الرسائل البابوية ، بنشر نص عن التنزيل الإلهى . وهو نص ذو أهمية كبيرة ، عمل المجمع طيلة ثلاث سنوات لإعداده ، وقد تم هذا النص وسط صعوبات جمة . وتجد الغالبية العظمى من قراء الكتاب المقدس هذه المعلومات المطمئنة على رأس الطبعات الحديثة ، وتكتفى بالضمانات التى أعطتها الكنيسة عبر القرون ، ولم يرد بذهن هؤلاء القراء أن مسألة الصحة هذه أمر قابل للنقاش .

ولكن ، إذا حدث ورجع القارئ إلى المؤلفات التى كتبها بعض رجال الدين للخاصة وليس لعامة الجمهور ، فسيكتشف أن مسألة أسفار الكتاب المقدس مسألة أكثر تعقيدًا

مما كان يظن بداءة . وإذا استوضح طبعة الكتاب المقدس الحديثة التى ترجمت إلى الفرنسية تحت إشراف رئاسة مدرسة الكتاب المقدس بالقدس(١) فإنه سيكتشف أن نبرة الحديث مختلفة جدًا . وسيدرك أن العهد القديم ، كالعهد الجديد ، يثير مشاكل لا يخفى المفسرون عناصرها التى تسبب النزاع .

وهناك إيضًا دراسات أكثر إيجازًا وموضوعية فيها معطيات دقيقة كدراسة أدموند جاكوب Edmong Jacob . « العهد القديم »(٢) . ويعطى هذا الكتاب رؤية شاملة وكاملة عن المشكلة .

يشير أدموند جاكوب إلى أنه فى البدء لم يكن هناك نص واحد فقط ، بل كان هناك تعدد فى النصوص . ففى القرن الثالث قبل الميلاد تقريبًا كان هناك على الأقل ثلاث مدونات للنص العبرى للتوراة . كان هناك النص المحقق (الماسورى) Masso-rethque ، والنص الذى استخدم ، جزئيًا على الأقل ، فى الترجمة إلى اليونانية . والنص المعروف بالسامرى (أو أسفار موسى الخمسة) : Pentateuque Samaritain ثم بعد ذلك، فى القرن الأول قبل الميلاد ، اتجاه إلى تدوين نص واحد . ولكن تدوين نص الكتاب المقدس لم يتم إلا فى القرن الأول بعد الميلاد .

ولو كانت هذه المدونات الثلاث موجودة الآن لأمكن إقامة المقارنات للوصول ، ربما إلى رأى عما كان عليه النص الأصلى ، ولكن يشاء سوء الحظ ألا تكون لدينا أقل فكرة عنه . إن أقدم نص عبرى للتوراة يرجع عهده إلى القرن التاسع بعد الميلاد ، هذا إذا وضعنا جانبًا أسطوانات مغارة قمران التى ترجع إلى ما قبل العصر المسيحى بقليل ، وبردية الوصايا العشر التى تختلف طفيفًا عن النص الكلاسيكى ، وبعض مخطوطات ناقصة ترجع إلى القرن الخامس بعد الميلاد (كنيسة القاهرة) .

وتعد الترجمة السبعينية Septante أول ترجمة ، وهى باللغة اليونانية . ويرجع تاريخها إلى القرن الثالث قبل الميلاد . وقد قام بها يهود الإسكندرية . وعلى نصها

(١) Editions du Cerf. Paris.

(٢) Presses Universitaires de France, Collection «Que sais-je?».

اعتمد كتاب العهد الجديد . وقد ظلت معتمدة حتى القرن السابع بعد الميلاد . والنصوص اليونانية الأصلية التى يستخدمها عمومًا العالم المسيحى هى المخطوطات المحفوظة باسم Coddex Vaticanus فى الفاتيكان و Codex Sinaiticus المحفوظة بالمتحف البريطانى ، ويرجع تاريخ هذين المخطوطين إلى القرن الرابع بعد الميلاد .

أما فيما يخص توراة القديس إيرونيمس اللاتينية ، فيحتمل أن يكون قد استخدم وثائق عبرية ترجع إلى السنوات الأولى من القرن الخامس بعد الميلاد، وتلك هى الطبعة التى سميت بـ Vulgate بسبب انتشارها الواسع بعد القرن السابع من العصر المسيحى.

ولنذكر أخيرًا المدونات الآرامية والسريانية . وهى جزئية غير كاملة . لقد سمحت هذه المخطوطات المختلفة للمتخصصين بأن ينتهوا إلى إعداد النصوص المسماة «بالمتوسطة» ، وهى شىء أشبه بحلول وسط بين مختلف النسخ . أيضًا هناك مجموعات تحتوى، بين دفتيها وجنبًا إلى جنب على النسخ المختلفة - أى العبرية واليونانية واللاتينية والسريانية والآرامية وحتى العربية . ذلك هو الكتاب المقدس الشهير بنسخة والتون Walton (لندن ١٦٥٧) . ولنضف - حتى نكون كاملين - أن الاختلاف بين الكنائس المسيحية حول مفاهيم الكتب المقدسة كان من شأنه أن لم تقبل كنائس نفس المذاهب نفس الأسفار بالتحديد ، كما أن ليس لها حتى الآن رأيًا واحدًا فى الترجمة ، حتى فى نفس اللغة . وتطمح الترجمة المسكونية الجارية للعهد القديم إلى الانتهاء لنص شامل مركب : هى كتاب يهدف إلى توحيد النصوص يقوم به كثير من الخبراء الكاثوليكيين والبروتستانت .

بهذا تتضح ضخامة ما أضافه الإنسان إلى العهد القديم . وبهذا أيضًا يتبين للقارئ التحولات التى أصابت نص العهد القديم الأول من نقل إلى نقل آخر ، ومن ترجمة إلى أخرى ، بكل ما ينجم حتمًا عن ذلك من تصحيحات ، جاءت على أكثر من ألفى عام .

أصل الكتاب المقدس

كان الكتاب المقدس ، قبل أن يكون مجموعة أسفار ، تراثًا شعبيًا لا سند له إلا الذاكرة ، وهى العامل الوحيد الذى اعتمد عليه نقل الأفكار . وكان هذا التراث يغنى .

ويقول أدموند جاكوب إن « كل شعب يغنى فى مراحل تطوره البدائية ، وفى إسرائيل ، كما حدث فى غيرها من البلاد ، سبق الشعر النثر . ولقد غنت إسرائيل كثيرًا وكانت تلحن الغناء ، ولأن الظروف التاريخية كانت قد قادت إسرائيل إلى قمة الحماس ، كما قادتها إلى مهاوى اليأس ، ولأنها ساهمت بكل كيانها فى كل ما حدث لها . حيث إنه كان لكل شىء معنى فى نظرها ، فإنها قد أعطت أغانيها تعبيرات شديدة التنوع » . كان الناس يغنون فى مختلف المناسبات . ويعدد أ. جاكوب هذه المناسبات التى يحتوى العهد القديم على الأغانى المصاحبة لها ، ومنها أغانى الطعام ، وأغنية الاحتفال بنهاية الحصاد ، وأناشيد العمل مثل « نشيد البئر » المشهور (سفر العدد . الإصحاح ٢١، ١٧) وأناشيد الزواج مثل « نشيد الإنشاد » وتراتيل الحداد ، وأناشيد الحرب ، وهى كثيرة فى العهد القديم ، ومن بينها « ترنيمة دبورة » (سفر القضاة . الإصحاح الخامس من ١ إلى ٣٢) وفيها تترنم بنصر إسرائيل الذى أراده يهوه فى نهاية حرب مقدسة قادها بنفسه (سفر العدد ، الإصحاح العاشر ٣٥) : « وعند ارتحال التابوت يقول موسى : قم يا رب فليتبدد أعداؤك ويهرب مبغضوك من أمامك » .

وهناك أيضًا الحكم والأمثال (سفر الأمثال ، وأمثال وحكم الكتب التاريخية المقدسة) ، وأقوال البركات واللعنات والقوانين التى يسنتها للبشر بعد أن وكلهم الله لذلك .

ويلاحظ أدموند جاكوب أن تناقل هذه الأقوال كان يتم إما عن طريق الأسرة ، وإما عن طريق المعابد فى شكل روايات لتاريخ شعب الله المختار . وقد تحول هذا التاريخ بسرعة إلى حكاية كمثل يوثام (سفر القضاة ، الإصحاح التاسع من ٧ إلى ٢١) . وفى

هذا المثل « ذهبت الأشجار لتمسح عليها ملكًا فتتوجه أولاً إلى الزيتونة ثم إلى شجرة التين ثم إلى الكرمة ثم إلى العوسج » ، وهذا ما سمح لأدموند جاكوب بأن يقول : « إن الوظيفة الأسطورية فى الرواية لم تعبأ بما يتعلق بموضوعات وعصور كان تاريخها معروفًا بشكل سيىء » ويخلص أدموند جاكوب من هذا إلى ما يلى :

« يحتمل أن ما يرويه العهد القديم عن موسى والآباء الأولين لا يتفق إلا بشكل تقريبى مع المجرى التاريخى للأحداث، ولكن الرواة كانوا يعرفون ، حتى فى هذه المرحلة من النقل الشفهى، كيف يضفون الأناقة والخيال حتى يربطوا بين أحداث شديدة التنوع، وقد نجحوا فى تقديم هذه الأحداث المختلفة فى شكل حكاية لما حدث فى أصل العالم والإنسان . ويستطيع العقل النقدى أن يراها ، فى نهاية الأمر ، معقولة بشكل كاف » .

هناك من الأسباب ما يسمح بالتفكير بأن الكتابة قد استخدمت لنقل التراث والحفاظ عليه ، وذلك بعد استقرار الشعب اليهودى ، بأرض كنعان ، أى فى نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد . ولكن لم يكن هذا بشكل لازم ، حتى بالنسبة لما كان يستحق الدوام فى نظر الناس - أى القوانين- ومن بين القوانين هناك القانون الذى تنسب كتابته إلى يد الله نفسه، أى الوصايا العشر، وهى منقولة فى العهد القديم فى روايتين : الأولى فى سفر الخروج (الإصحاح العشرين من ١ إلى ٢١) وفى سفر التثنية (الإصحاح الخامس من ١ إلى ٣٠) . وروح الوصايا فى النصين واحد . ولكن الاختلافات النصية واضحة .

كان الاهتمام منصبًا على تدوين الوثائق الهامة من عقود وخطابات وقوائم الشخصيات (القضاة وكبار الموظفين بالمدن وقوائم الأنساب) وقوائم القرابين وقوائم الغنائم . بهذا تكونت الأرشيفات التى أتت بالوثائق التى استخدمت بعد ذلك عند تحرير المؤلفات النهائية التى أدت إلى الكتب التى فى حوزتنا اليوم . بهذا الشكل أيضًا تختلط فى كل كتاب أنواع أدبية متنوعة : وما على المتخصصين إلا أن يبحثوا فى دوافع تجميع هذه الوثائق المتنافرة .

ومن المهم أن نقارب بين عملية تكوين هذا المجموع المتنافر الذى هو العهد القديم والذى اعتمد أولاً على النقل الشفهى ، وبين ما قد يحدث تحت سماوات وأزمنة أخرى عند ميلاد أدب بدائى .

ولنأخذ على سبيل المثال مولد الأدب الفرنسى فى عصر مملكة الفرنجة Frangs . إن نفس هذا التراث الشفهى يسود من البداية وحتى حفظ الأحداث الهامة مثل الحروب ، وهى كثيرًا حروب دفاع عن المسيحية ومآس مختلفة يبرز فيها الأبطال ، وهى التى ستلهم بعد ذلك بقرون الرواة والقصاصين وكتاب مختلف الحوليات . بهذا تولد ابتداء من القرن الحادى عشر الميلادى الشِعْر المَلْحَمىّ Les chansons de geste التى يختلط فيها الواقع بالخرافة ، تلك الأغانى التى كونت فيما بعد أول نصوص الآداب الملحمية . ومن أشهر هذه الملاحم أنشودة رولان La chanon de Roland وهى أغنية روائية حربية ، يبرز فيها رولان قائد مؤخرة جيش الإمبراطور شارلمان عند عودته من حملة إسبانية . وليست تضحية رولان حدثًا اخترع لمقتضى الحكاية . إذ يحدد تاريخها بـ ١٥ أغسطس عام ٧٧٨م ، وما حدث فعلاً هو هجمة قام بها سكان الجبل الباسكيون على رولان . وليس المؤلف الأدبى هنا أسطوريًا فقط ، إن له قاعدة تاريخية ، ولكن لا يمكن للمؤرخين أن يأخذوا بها حرفيًا .

إن الموازنة بين مولد الكتاب المقدس ومثل هذا الأدب الدنيوى شىء يبدو أنه متفق بشكل دقيق مع الواقع . ولا تهدف هذه الموازنة ، مثلما يفعل كثير من منكرى الله المنهجيين ، إلى رفض نص الكتاب المقدس فى مجموعه ، ذلك النص الذى يحتفظ به الناس فى متحف الآثار الأسطورية . يمكن عن حق الاعتقاد فى حقيقة الخلق ، وفى إعطاء الله الوصايا لموسى ، وفى تدخل الله فى شئون البشر فى عصر الملك سليمان على سبيل المثال ، كما نرى وجوب خضوع تفصيل وصف الأحداث لنقد صارم ، ذلك أن مساهمات البشر فى تدوين التراث الشفهى الأصلى كبيرة حقًا .

أسفار العهد القديم

يتكون العهد القديم من مجموعة أسفار لا تتساوى فى الطول ، وتختلف فى النوع . كتبت هذه الأسفار على مدى يربو على تسعة قرون ، وبلغات مختلفة ، واعتمادًا على التراث المنقول شفويًا . وقد صححت وأكملت أكثرية هذه الأسفار ، بسبب أحداث حدثت أو بسبب ضرورات خاصة ، وفى عصور متباعدة أحيانًا .

ويبدو معقولاً أن ازدهار هذا الأدب الثرى يقع تاريخيًا فى بداية المملكة الإسرائيلية- أى نحو القرن الحادى عشر قبل الميلاد ، ففى هذا العصر ظهرت فى البلاط الملكى هيئة الكتبة التى تتكون من مثقفين لا يقتصر دورهم على مجرد الكتابة والتدوين . وإلى هذا التاريخ يمكن إرجاع أولى المدونات ، تلك المدونات الجزئية جدًا التى تحدثنا عنها فى الفصل السابق ، والتى كان لها أهمية خاصة حتى تدون كتابة . وهى بعض الأناشيد المذكورة أعلاه ، ونبوءتا يعقوب وموسى ، والوصايا العشر ، والنصوص التشريعية عامة التى حددت تقليدًا دينيًا قبل سن القوانين . كل هذه النصوص تكون قطعًا متفرقة فى مختلف مجموعات العهد القديم .

وبعد ذلك بقليل – أى ربما فى القرن العاشر قبل الميلاد ، تم تحرير النص المعروف بالرواية اليهوية[(١)] التى شكلت فيما بعد بنية الأسفار الخمسة التى عرفت باسم أسفار موسى الخمسة . وقد أضيفت إلى هذا النص بعد ذلك الرواية المعروفة بالألهيمية[(٢)] والرواية الأخرى المعروفة بالكهنوتية[(٣)] . ويعالج النص اليهوى الأول الفترة من أصل العالم وحتى موت يعقوب . وهو صادر عن مملكة الجنوب .

ومن نهاية القرن التاسع وحتى أواسط القرن الثامن قبل الميلاد تكون وذاع النفوذ النبوى مع إليا واليشع وكتابهما فى حوزتنا . وتلك أيضًا فترة النص الألهيمى للتوراة

(١) أطلق عليها هذا الاسم لأن اسم الله بها يهوه .

(٢) أطلق عليها هذا الاسم لأن اسم الله بها ألهيم .

(٣) صدرت عن كهنة معبد القدس .

الذى يعالج فترة زمنية محددة بالنسبة إلى النص اليهوى : فهذا النص يكتفى برواية الأحداث الخاصة بإبراهيم ويعقوب ويوسف . ويرجع سفرا يشوع والقضاة إلى تلك الفترة .

أما القرن الثامن قبل الميلاد فهو عصر الأنبياء عاموس وهو شع فى إسرائيل وأشعيا وميخا فى مملكة الجنوب .

وبالاستيلاء على سامرة فى ٧٢١ قبل الميلاد انتهت مملكة إسرائيل . واستقبلت مملكة الجنوب ميراثها الدينى . ويحتمل أن مجموعة الأمثال تنتمى إلى ذلك العصر ، الذى يتسم على وجه خاص باتحاد نصى التوراة اليهوى والألهيمى فى مجلد واحد ، وبهذا تشكل ما يعرف بالتوراة . كما يحتمل أن يرجع تاريخ تحرير سفر التثنية إلى هذا العصر أيضًا .

ويلتقى حكم يشوع ، فى النصف الثانى من القرن السابع قبل الميلاد ، مع بدايات النبى أرميا . ولكن مؤلف هذا الأخير لم يتخذ شكله النهائى إلا بعد ذلك العصر بقرن.

أما رسائل صفنيا وناحوم وحبقوق فيرجع تاريخها إلى ما قبل النفى الأول إلى بابل عام ٥٩٨ قبل الميلاد . وكان حزقيال يمارس النبوة فى أثناء هذا النفى . ثم سقطت القدس فى ٥٨٧ ق. م. هذا الحديث يسبق بداية النفى الثانى الذى امتد حتى ٥٣٨ ق.م.

أما كتاب حزقيال ، وهو آخر نبى كبير ونبى المنفى أيضًا ، فإنه لم يدون فى شكله الحالى إلا بعد موته ، وقد دونه الكتبة ، وهم الذين أصبحوا ورثته الروحيين . وقد قام نفس هؤلاء الكتبة بتدوين رواية ثالثة لسفر التكوين ، واسمها الرواية الكهنوتية ، وهى الرواية التى أوردت الجزء الخاص بالخلق والذى يمتد حتى موت يعقوب .

وهكذا إذن أدخل نص ثالث على النصين اليهوى والألهيمى فى التوراة . وسنرى فيما بعد مظهرًا من مظاهر تشابك هذا النص مع الكتب التى دونت تقريبًا قبل ذلك بأربعة قرون وبقرنين . فى هذا العصر أيضًا ظهر سفر المراثى .

وانتهى النفى إلى بابل بأمر سيروس فى ٥٣٨ ق. م. فعاد اليهود إلى فلسطين وأعيد بناء معبد القدس . واستؤنف النشاط النبوى ، ومن هنا كانت كتب حجاى وزكريا وأشعيا الثالث وملاخى ودانيال وباروك (وقد كتب هذا الأخير باليونانية) .

والفترة التى تلى النفى هى أيضًا فترة كتب الحكمة : حررت الأمثال نهائيًا فى ٤٨٠ ق.م وحرر سفر أيوب فى القرن الخامس قبل الميلاد تقريبًا ، كما يرجع تاريخ سفر الجامعة Ecclesiaste ou Qohelet إلى القرن الثالث ق. م. وذلك أيضًا هو عصر نشيد الإنشاد وكتابى أخبار الأيام وكتب عزرا ونحميا . أما كتاب « بن سيراخ » Ecclesias-tique ou Siracide فقد ظهر فى القرن الثانى قبل الميلاد ، وأما سفر الحكمة لسليمان وسفرا المكابيين فقد كتبوا قبل المسيح بقرن . وأسفار راعوث وأستير ويونس فيصعب تاريخها مثل سفرى طوبيا ويهوديت . وكل هذه المعلومات معطاة تحت تحفظات التعديلات اللاحقة ، لأن كتب العهد القديم لم تتخذ هيئتها الأولى إلا قبل قرون من ميلاد المسيح ، ولم تكتسب شكلها النهائى إلا فى القرن الأول بعد المسيح كما يرى الكثيرون .

وعلى ذلك يبدو العهد القديم صرحًا أدبيًا للشعب اليهودى منذ أصوله وحتى العصر المسيحى . ولقد دونت وأكملت وروجعت الأسفار التى يتكون منها فيما بين القرن العاشر والقرن الأول قبل الميلاد . وليس هذا مطلقًا وجهة نظر شخصية نعطيها عن تاريخ تحرير هذه الأسفار . فالمعطيات الجوهرية لهذه اللمحة التاريخية مستقاة من مقال « التوراة » بدائرة معارف أونيفرساليس للكاتب[١] ج. ب. ساندروز J. P. Sandroz الأستاذ بكليات الدومنيكان بسولشوار Saulchoir ولكى نفهم ما هو العهد القديم يجب أن تكون هذه المعلومات حاضرة فى أذهاننا ، وهى معلومات أثبتها متخصصون على درجة عالية من الكفاءة .

إن الوحى يختلط بكل هذه الكتابات ، ولكننا لا نملك اليوم إلا النصوص التى خلفها لنا الكتاب الذين عالجوا النصوص على سجيتهم ، وحسب الظروف التى عاشوها والضرورات التى كان عليهم مواجهتها .

وعندما نقارن هذه المعطيات الموضوعية بتلك التى تكشف عنها مقدمات الكتب المقدسة المخصصة للعامة ، ندرك أن هذه المقدمات تسوق الأمور بشكل مختلف . فهى

(١) Encyclopedia Universalis طبعة ١٩٧٤ ، الجزء الثالث ، الصفحات من ٢٤٦ إلى ٢٥٣ .

تسكت على الأمور الأساسية الخاصة بتدوين الكتب ، كما أنها تحتفظ بغموض يضل القارئ . وتقلل من شأن أمور أخرى إلا درجة أنها تعطى فكرة خاطئة عن الواقع الذى حدث فعلاً . وهكذا تشوه مقدمات كثير من الكتب المقدسة على الحقيقة . بل إذا كانت هناك كتب قد أصابها التعديل برمتها وعدة مرات (مثلما حدث لأسفار موسى الخمسة)، يكتفى كتاب هذه المقدمات بالإشارة إلى أن تفاصيل أضيفت بعد تحرير النص . بعضهم يزج بمناقشات تخص فقرة عديمة الأهمية فى هذا السفر أو ذاك ويسكتون على أمور حيوية جدًا تستحق دراسات طويلة . وإنه لما يؤسف له حقًا أن يحتفظ لعامة القراء بمعلومات عن التوراة يسمها الخطأ إلى هذا الحد .

التوراة أو أسفار موسى الخمسة PENTATEUQUE

التوراة هو الاسم السامى .

أما التعبير اليونانى الذى أعطى كلمة Pentateuque الفرنسية فهى تعنى مؤلفًا يتكون من خمسة أجزاء هى : التكوين ، والخروج، وسفر اللاويين ، وسفر العدد ، وسفر التثنية . وهى الأسفار التى كونت العناصر الخمسة الأولى لكتاب العهد القديم من تسعة وثلاثين مجلدًا .

وتتناول هذه المجموعة من النصوص أصل الكون وحتى دخول الشعب اليهودى . وتستخدم حكاية هذه الأحداث كإطار لعرض التدابير الخاصة بالحياة الدينية والحياة الاجتماعية للشعب اليهودى ، ومن هنا جاء اسم التوراة أى الناموس .

وظلت اليهودية والمسيحية . لقرون طويلة . تعتبران أن موسى نفسه هو كاتب التوراة ، وربما كان من دفع بتلك الدعوى قد اعتمد على واقع أن الرب قد قال لموسى : (الخروج - الإصحاح ١٧ الآية ١٤) : « اكتب هذا تذكارًا فى الكتاب » ، والمقصود بهذا هزيمة عماليق - أو ربما قد اعتمد أيضًا على الآية الثانية من الإصحاح الثالث والثلاثين من سفر العدد : « وكتب موسى مخارجهم برحلاتهم حسب قول الرب » ، أو قد اعتمد على الآية التاسعة من الإصحاح الحادى الثلاثين من سفر التثنية « وكتب موسى هذه التوراة » . وابتداء من القرن الأول قبل الميلاد كان هناك دفاع عن الرأى

القائل بأن موسى قد كتب الأسفار الخمسة كلها . دافع عن هذا الرأى كل من فلافيوس جوزيف Flanius Josephe وفليون الإسكندرى Philon .

أما اليوم فقد هجر هذا الفرض تمامًا . والكل يتفق على تلك النقطة ، ولكن هذا لا يمنع أن العهد الجديد ينسب إلى موسى هذه الكتب . الواقع أن بولس يقول فى رسالته إلى أهل رومية (الإصحاح العاشر - الآية ٥) : « لأن موسى يكتب فى البِر(١) الذى يصدر من الناموس .. » وهو بهذا يذكر عبارة من سفر اللاويين . أما يوحنا فإنه يجعل المسيح يقول تلك العبارة : لأنكم لو كنتم ترون موسى لكنتم تصدقوننى لأنه هو كتب عنى . فإن كنتم لستم تصدقون ما كتب فكيف تصدقون كلامى » . (إنجيل يوحنا . الإصحاح الخامس : ٤٦-٤٧) . المقصود هنا ، كما هو واضح ، هو فعل الكتابة والكلمة اليونانية التى نجدها فى النص الأصلى (المكتوب باليونانية) هى Episteute وهذا تأكيد مغلوط تمامًا يضعه يوحنا على لسان المسيح : وما يلى يبرهن على ذلك .

وإنى أستعير عناصر هذه البرهنة من الأب ديفو R.P. de Vaux مدير مدرسة الكتاب المقدس بالقدس . وقد قدم الأب ديفو لترجمته لسفر التكوين عام ١٩٦٢ بمقدمة عامة لأسفار موسى الخمسة . وهى مقدمة تحتوى على حجج قيمة تناقض الدعاوى الإنجيلية الخاصة بأبوة المؤلف المعنى به .

يذكر الأب ديفو أن « التراث اليهودى الذى امتثل له عيسى والرسل » كان مقبولاً حتى نهاية القرون الوسطى . وكان الرافض الوحيد لهذه الدعوى أبين إسرا Aben Eser فى القرن الثانى عشر . وفى القرن السادس عشر أشار كارلتشاد Carlstadt إلى استحالة أن يكون موسى قد كتب بنفسه كيف مات (سفر التثنية الإصحاح ٣٤ الآيات من ٥ إلى ١٢) . ويذكر المؤلف بعد ذلك نقادًا آخرين يرفضون أبوة موسى على الأقل لجزء من الأسفار الخمسة ، ويذكر على وجه الخصوص دراسة ريشار سيمون Richard Simon, de l'Qratoire التاريخ النقدى للعهد القديم Histoire Critique du Vieux Testament (١٦٧٨) ، وفيها يؤكد . سيمون على الصعوبات الخاصة بتسلسل الأحداث

(١) المقصود هنا العدل .

والتكرارات وفوضى الروايات وفوارق الأسلوب فى أسفار موسى الخمسة . لقد أثار الكتاب ضجة وسخطًا ، ولم يتابع أحد حجة د. سيمون تقريبًا ؛ وهى أن مراجع العصور القديمة فى كتب التاريخ فى بداية القرن الثامن عشر كثيرًا ما تستعين « بما كتب موسى » .

يستطيع المرء إذن أن يتصور إلى أى حد كان من الصعب تدحيض خرافة تمتعت بالتأييد الذى أتى به المسيح نفسه فى العهد الجديد . كما رأينا . ونحن ندين لجان استروك Jean Astruc طبيب لويس الخامس عشر ، بالبرهان الحاسم الذى قدمه فى هذا الموضوع .

فقد نشر جان استروك فى ١٧٥٣ دراسة بعنوان « قرائن عن المذكرات الأصلية التى يبدو أن موسى قد استخدمها لتحرير سفر التكوين Conjonctures sur les Memoires originaux dont it parait que Moise s'est servi pour composer le livre de la Genese. يؤكد فيها على تعدد المصادر . ولم يكن أول من أشار إلى هذا ، - على أى حال كانت لديه شجاعة أن ينشر على الملأ ملاحظة أساسية هى : وجود نصين جنبًا إلى جنب فى سفر التكوين يحتوى كل منهما على خاصية مختلفة فى تسمية الرب : إذ يسميه أحدهما بيهوه ويسميه الثانى بألوهيم . إذن فسفر التكوين يحتوى على نصين جنبًا إلى جنب . ثم قام إيخهورن Eichhorm (١٧٨٠ - ١٧٨٣) بنفس الاكتشاف بالنسبة للكتب الأربعة الأخرى . ثم جاء إيلجن Ilgen (١٧٩٨) ولاحظ أن أحد النصين اللذين ميزهما استروك ، وهو النص الذى يسمى فيه الرب بألوهيم ، ينقسم هو أيضًا إلى قسمين . وبهذا تفتتت تمامًا كتب أسفار موسى الخمسة .

أما بحاثة القرن التاسع عشر فقد كرسوا جهدهم فى بحث عن المصادر أكثر دقة . وفى ١٨٥٤ كانت هناك أربعة مصادر مقبولة ، وتسمى بالأسماء التالية : الوثيقة اليهوية والوثيقة الألوهيمية ، وسفر التثنية ، والنص الكهنوتى . وقد أفلح الباحثون فى إعطائها أعمارًا :

١ - تقع الوثيقة اليهوية فى القرن التاسع قبل الميلاد (وقد حررت فى مملكة الجنوب) .

٢ - أما الوثيقة الألوهيمية فهى أقرب تاريخنا بقليل (وقد حررت بإسرائيل) .

٣ - وأما سفر التثنية فينتمى إلى القرن الثامن قبل الميلاد فى رأى أدموند جاكوب وهناك بحاثة آخرون ، مثل الأب ديفو ، يرون أنه ينتمى إلى عصر جوزياس (أى القرن السابع قبل الميلاد) .

٤ - وأما النص الكهنوتى فينتمى إلى عصر النفى أو ما بعد النفى ، أى القرن السادس قبل الميلاد .

بهذا إذن يمتد تحرير نص أسفار موسى الخمسة على ثلاثة قرون بأقل تقدير .

ولكن المشكلة أكثر تعقدًا من هذا . ففى ١٨٤١ استطاع أ. لودز A. Lods أن يميز فى الوثيقة اليهوية ثلاثة مصادر ، وفى الوثيقة الإلهيمية أربعة ، وفى سفر التثنية ستة ، وفى النص الكهنوتى تسعة . وهذا «دون حساب الإضافات الموزعة بين ثمانية محررين». كما يقول الأب ديفو ، ومنذ فترة أكثر قربًا وصل التفكير إلى « أن كثيرًا من نواميس أو قوانين أسفار موسى الخمسة كان لها ما يوازيها خارج التوراة ، وفى فترة تسبق بكثير التاريخ المنسوب إلى هذه الوثائق » وإن « عددًا من روايات أسفار موسى الخمسة يفترض وجود مصدر آخر أكثر قدمًا من ذلك الذى يفترض أن هذه الوثائق قد خرجت منه » ، وذلك يدفع إلى الاهتمام بمشكلة « تشكل التراث » . إن المشكلة تبدو عندئذ على درجة من التعقد بحيث إن الأمر يختلط على الكل .

ويجر تعدد المصادر تنافرات وتكرارات عديدة فى هذه النصوص . ويعطى الأب ديفو أمثلة على تعقد هذه الأقوال الموروثة الخاصة بالخلق ، وأنسال قابيل ، والطوفان ، واختطاف يوسف ، وما جرى له بمصر والاختلافات الخاصة بأسماء شخص واحد والتصويرات المختلفة للأحداث الهامة .

وبهذا يتضح تكون كتاب أسفار موسى الخمسة من أقوال موروثة مختلفة جمعها - بشكل يقل أو يزيد حذقًا - محررون وضعوا تارة ما جمعوا جنبًا إلى جنب، وطورًا غيروا من شكل هذه الروايات بهدف إيجاد وحدة مركبة ، تاركين للعين أمورًا غير معقولة ، وأخرى متنافرة كان من شأنها أن قادت المحدثين إلى البحث الموضوعى عن المصادر .

ويعطى كتاب أسفار موسى الخمسة ، على مستوى نقد النصوص ، أكثر الأمثلة وضوحًا عن التعديلات التى قام بها بشر فى فترات مختلفة من تاريخ الشعب اليهودى ، كما يعطى أمثلة جلية عن تعديلات التراث الشفهى والنصوص التى تلقتها الأجيال السابقة .

كان كتاب أسفار موسى الخمسة قد بدا ، فى القرن العاشر أو التاسع قبل الميلاد، مع التراث اليهوى الذى يتناول الرواية ابتداء من أصل العالم . وهو لا يفعل أكثر من وضع الخطوط العريضة لمصير إسرائيل الخاص ، كما يقول الأب ديفو ، وذلك حتى «يضع هذا المصير فى إطار إرادة الله الخاصة بالإنسانية» . والكتاب ينتهى فى القرن السادس قبل الميلاد بالنص الكهنوتى الذى ينصب اهتمامه على الإشارة إلى التواريخ والأنساب[1] .

يقول الأب ديفو : « إن ما تتميز به هذه الأقوال الموروثة من روايات نادرة يشهد باهتماماتها التشريعية : ومن ذلك الراحة يوم السبت عند نهاية الخلق ، والارتباط بنوح، والارتباط بإبراهيم ، والطهور ، وشراء مغارة مكبلا التى أعطت للآباء الأولين سندًا ملكيًا بأرض كنعان » . ولنذكر أن النص الكهنوتى يقع تاريخيًا عند العودة من النفى ببابل ، وعند الاستقرار مرة ثانية بفلسطين ابتداء من ٥٣٨ ق. م. هناك إذن تداخل معقد بين المشاكل الدينية ، وبين المشاكل السياسية الصرف .

فيما يخص سفر التكوين وحده فإن انقسام الكتاب إلى ثلاثة مصادر ثابت فعلاً : ويحدد الأب ديفو فى تعليقات على ترجمته فقرات نص سفر التكوين الحالى التى تخضع لكل مصدر من هذه المصادر . وإذا اعتمدنا على هذه المعطيات فنستطيع أن نحدد بالنسبة لكل فصل ما يأتى به كل مصدر . على سبيل المثال ، فيما يخص الخلق والطوفان ، والفترة التى تمتد من الطوفان وحتى إبراهيم ، وهى العصور التى تحتل

---

(١) سنرى فى الفصل التالى أخطاء الرواية التى ظهرت بعد المقابلة مع المعطيات الحديثة للعلم ، والتى انقاد لها محررو النص الكهنوتى ، وذلك بالنسبة لقدم الإنسان على الأرض ، وبالنسبة لتاريخ أحداث الخلق ومجراها ، كما سيتضح أن الأخطاء ناجمة بشكل واضح عن تعديل للبشر بالنصوص.

الأحد عشر فصلاً الأولى من سفر التكوين ، نرى فى رواية التوراة جزءًا من النص اليهودى يتبعه جزء من النص الكهنوتى ، وليس النص الألهيمى حاضرًا فى هذه الفصول الأحد عشر الأولى . ويظهر بجلاء تام هنا تداخل وتعقد الإسهامات اليهوية والكهنوتية . أما فيما يتعلق بالخلق وحتى نوح (أى الفصول الأولى) فانتظامها بسيط : فقرة يهوية تعقب فقرة كهنوتية اليهوى وهكذا من البداية وحتى نهاية الرواية . أما فيما يتعلق بالطوفان ، وخاصة الفصلين السابع والثامن فإن تقسيم النص حسب مصادره يعزل فقرات قصيرة جدًا قد تصل إلى جملة واحدة . ففى أكثر قليلاً من مائة سطر من النص الفرنسى ننتقل سبع عشرة مرة من مصدر لآخر ، ومن هنا كانت تلك المتناقضات والأمور غير المعقولة التى تدرك عند قراءة هذا النص اليوم .

ويبسط الجدول التالى تقسيم المصادر هذا .

تفصيل توزيع النص اليهوى والنص الكهنوتى فى الإصحاحات من ١ إلى ١١ من سفر التكوين .

يشير الرقم الأول إلى الإصحاح .

يشير الرقم الثانى الموضوع بين قوسين إلى رقم الآيات ، وتنقسم هذه أحيانًا إلى جزأين يشار إليهما بالحرفين أ و ب .

يشير حرف الباء إلى النص اليهوى .

ويشير حرف الكاف إلى النص الكهنوتى ،

مثال : يعنى السطر الأول من الجدول ما يلى :

ما يمتد من الإصحاح الأول ، الآية الأولى إلى الإصحاح الثانى الآية ٤أ من النص الحالى المنشور فى الكتب المقدسة هو النص الكهنوتى .

من الإصحاح	الآية	إلى الإصحاح	الآية	المصدر
١	(١)	٢	(٤ أ)	ك
٢	(٤ب)	٤	(٢٦)	ى
٥	(١)	٥	(٣٢)	ك
٦	(١)	٦	(٨)	ى
٦	(٩)	٦	(٢٢)	ك

من الإصحاح	الآية	إلى الإصحاح	الآية	المصدر
٧	(١)	٧	(٥)	ى
٧	(٦)			ك
٧	(٧)	٧	(١٠)	ى (معدل)
٧	(١١)			ك
٧	(١٢)			ى
٧	(١٣)	٧	(١٦ أ)	ك
٧	(١٦ ب)	٧	(١٧)	ى
٧	(١٨)	٧	(٢١)	ك
٧	(٢٢)	٧	(٢٣)	ى
٧	(٤)	٨	(٢ أ)	ك
٨	(٢ب)			ى
٨	(٣)	٨	(٥)	ك
٨	(٦)	٨	(١٢)	ى
٨	(١٣ أ)			ك
٨	(١٣ ب)			ى
٨	(١٤)	٨	(١٩)	ك
٨	(٢٠)	٨	(٢٢)	ى
٩	(١)	٩	(١٧)	ك
٩	(١٨)	٩	(٢٧)	ى
٩	(٢٨)	١٠	(٧)	ك
١٠	(٨)	١٠	(١٩)	ى
١٠	(٢٠)	١٠	(٢٣)	ك
١٠	(٤)	١٠	(٣٠)	ى
١٠	(٣١)	١٠	(٣٢)	ك
١١	(١)	١١	(٩)	ى
١١	(١٠)	١١	(٣٢)	ك

أى تصوير أوضح من هذا يمكن أن نعطيه لتعديل الناس إلى كتب التوراة .. ؟

الكتب التاريخية

تتناول الكتب التاريخية تاريخ الشعب اليهودى منذ دخوله إلى أرض الميعاد (ويحدد على أحسن تقدير معقول بنهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد) حتى النفى إلى بابل فى القرن السادس قبل الميلاد .

وتؤكد نبرة هذه الكتب على ما يمكن تسميته « بالواقع القومى » ، وتقدمه الكتب باعتباره تنفيذًا لكلام الله . والرواية لا تحفل بالدقة التاريخية . فسفر يشوع ، على سبيل المثال ، يخضع قبل كل شىء لدوافع دينية ، ويشير الأستاذ جاكوب بهذه المناسبة إلى التناقض الصريح بين علم الآثار والنصوص فيما يتعلق بما يدعى بتدمير مدينتى جيريكو Jericho وأى Ay .

إن محور سفر القضاة هو الدفاع عن الشعب المختار ضد الذين كانوا يحيقون به ، وإغاثة الرب له ، ولقد تعدل الكتاب مرات عدة ، وذلك ما يشير إليه بموضوعية كبيرة الأب لوفيفر A. Lefevre فى تمهيده لتوراة كرامبون Crampon وتشهد بذلك المقدمات والحواشى المتداخلة . إن حكاية راعوث ترتبط بهذه الروايات فى سفر القضاة .

أما كتاب صمويل وكتب الملوك فهى أساسًا مجموعات من السير تخص صمويل وطالوت وسليمان . وقيمتها التاريخية مشكوك فيها . ومن وجهة النظر هذه يجد أ. جاكوب فى هذه الكتب أخطاء متعددة ، فالحدث الواحد له روايات مزدوجة وحتى ثلاثية . ويجد الأنبياء إليا واليشع مكانهم فى هذه الروايات ، وبهذا تختلط الخطوط التاريخية بالأساطير . ولكن هناك معلقين مثل الأب أ. لوفيفر R. P. A. Lefevre ، يرون « أن القيمة التاريخية لهذه الكتب أساسية » .

إن الإصحاحين الأول والثانى من أخبار الأيام ، وكتب عزرا ونحميا تنتمى إلى كاتب واحد اسمه القصاص – الذى عاش فى نهاية القرن الرابع قبل الميلاد – وهو يتناول من جديد التاريخ برمته منذ الخلق وحتى ذلك العصر ، بالرغم أن الأنساب عنده تتوقف عند داود .

الواقع أنه يستخدم فوق كل شيء كتاب صمويل وكتاب الملوك » بل هو ينسخها آليًا دون أن يهتم بالمتناقضات الناجمة عن هذا النسخ » (أ. جاكوب) . غير أنه يضيف أيضًا أمورًا معينة يؤكد علم الآثار صحتها . فى هذه المؤلفات إذن اهتمام بتكييف التاريخ مع الضرورات اللاهوتية . وكما يقول أ. جاكوب فإن الكاتب هنا يكتب التاريخ منطلقًا من اللاهوت . وعلى هذا ، ولكى يشرح الكاتب أن ملك الملك منسى ، الذى اضطهد ودنس القدسيات ، قد دام طويلاً وازدهر ، فإنه يفترض أن هذا الملك آمن فى رحلة له بآشور (أخبار الأيام – الإصحاح الثانى ، ٣٣/١١) ، وليس لهذا الأمر أى مصدر فى أى كتاب من كتب التوراة أو خارجها » . لقد انتقضت كتابى عزرا ونحميا بشدة لأنهما يمتلئان بالإبهام ، ولأنهما يتعلقان بعصر هو نفسه غير معروف . وذلك لعدم وجود وثائق خارج الكتب المقدسة ، والمعنى به هو عصر القرن الرابع قبل الميلاد .

وتصنف كتب طوبيا وجوديت وإستيريين الكتب التاريخية ، وفيها تجاسر وتصرف شديدين إزاء التاريخ : ففيها تغيير لأسماء الأعلام ، واختراع لشخصيات وأحداث . وكل هذا بنية دينية طيبة . الواقع أن هذه الكتب تحتوى على حكايات أخلاقية النزعة محشوة بالأخطاء التاريخية وبأمور مستبعدة تاريخيًا .

أما كتابا المكابيين فيختلفان تمامًا ، إذ يعطيان أحداث القرن الثانى قبل الميلاد رواية صحيحة بأكبر قدر ممكن عن تاريخ ذلك العصر، وهى بهذا تشكل شهادات قيمة.

إذن ، فمجموع الكتب المسماة بالتاريخية شديدة التباين . والتاريخ فيها معالج بشكل علمى بمثل ما هو بشكل وهمى .

الكتب النبوية

يجمع تحت هذا الاسم وصايا مختلف الأنبياء الذين يحتوى العهد القديم عليهم باستثناء كبار الأنبياء المشار إلى تعاليمهم فى كتب أخرى مثل موسى وصمويل وإليا واليشع .

وتغطى الكتب النبوية الفترة بين القرن الثامن والقرن الثانى قبل الميلاد .

أما كتب القرن الثامن قبل الميلاد فهى كتب عاموس وهو شع وأشعيا وميخا . ويشتهر الأول بإدانته للمظالم الاجتماعية والثانى بإدانته للفساد الدينى ، ذلك الذى تسبب فى تعذيبه جسديًا (بعد أن تزوج من عاهرة مقدسة فى عبادة وثنية) ، كصورة الله الذى يتألم بسبب انحلال شعبه - وإن أعطاه حبه دائمًا - أما أشعيا فهو وجه للتاريخ السياسى : إنه يسود الأحداث لأن الملوك يستشيرونه ، إنه نبى العظمة . وإلى مؤلفاته تضاف نبوءاته التى نشرها تلامذته حتى القرن الثالث قبل الميلاد : ومنها الاحتجاجات ضد الظلم ، والخوف من يوم القيامة ، والتبشير بالتحرر فى عصر النفى، والتنبؤ فى فترة لاحقة بعودة اليهود إلى فلسطين . ومن المؤكد أن نبوؤتى أشعيا الثانية والثالثة تحتويان أيضًا - إلى جانب الاهتمام النبوى - على اهتمام سياسى يظهر واضحًا . وتتبع رسالة ميخا ، وهو معاصر لأشعيا ، من نفس عامة هذه الأفكار .

وفى القرن السابع قبل الميلاد يبرز صفنيا وأرميا وناحوم وحبقوق فى التبشير . وينتهى إرميا بالاستشهاد . وتلقى باروك نبوءاته . وربما كان أرميا كاتب المراثى .

لقد أعطى النفى إلى بابل فى بداية القرن السادس ق. م. نشاطًا نبويًا كبيرًا . ويعد النبى حزقيال بارزًا فى هذا النشاط باعتباره مواسيًا لإخوته الذين بذر الأمل بينهم . ورؤاه مشهورة . ويرتبط كتاب عوبيديا بكوارث القدس المقهورة .

وبعد النفى الذى انتهى فى عام ٥٤٨ ق. م. استأنف النشاط النبوى مع حجاى وزكريا للحث على إعادة بناء المعبد . إن ما كتب باسم ملاخى ، وبعد الانتهاء من بناء المعبد ، نبوءات متنوعة ذات طبيعة روحانية .

ما سبب إدراج كتاب يونس بين كتب الأنبياء . حيث إن العهد القديم لا ينسب إليه نصوصًا بالمعنى الحقيقى للكلمة ... ؟ إن كتاب يونس حكاية يستخلص منها أمر رئيسى هو الخضوع الضرورى للإرادة الإلهية .

وأما رؤيا دانيال فهى « مذهلة » من وجهة النظر التاريخية كما يقول المعلقون المسيحيون ، وهى مكتوبة بثلاث لغات (العبرية والآرامية واليونانية) . ويقول البعض إنها مؤلف يرجع إلى القرن الثانى قبل الميلاد فى عصر المكابيين . ويحتمل أن يكون

كاتب هذه الرؤيا قد أراد إقناع مواطنيه فى عصر « منتهى الشر » بأن ميعاد الخلاص قريب وذلك حتى يغذى إيمانهم (أ. جاكوب) .

كتب الشعر والحكمة

وتكون كتب الشعر والحكمة مجموعات تتمتع بوحدة أدبية لا جدال فيها . وتحتل المزامير المقام الأول بين هذه المجموعات . إنها الصرح الشامخ فى الشعر العبرى . وقد كتب داود عددًا كبيرًا منها ، وكتب الباقى الكهنة واللاويون . وموضوعها المدائح والتضرعات والتأملات . كانت وظيفة المزامير طقوسية الطابع .

أما كتاب أيوب ، كتاب الحكمة والبر ، بكل معنى الكلمة ، فيرجع فيما يقال إلى ٤٠٠ أو ٥٠٠ ق.م .

وأما المراثى على سقوط القدس ، فى بداية القرن السادس قبل الميلاد ، فربما كان كاتبها هو أرميا .

ولنذكر أيضًا نشيد الإنشاد : إنه أناشيد رمزية تنصب على الحب الإلهى فوق كل شىء ، وسفر الأمثال ، ويتكون من مجموعة من أقوال سليمان وحكماء آخرين فى بلاطه ، وسفر الجامعة ، ويتحدث عن السعادة الدنيوية والحكمة والسؤال الآن هو : كيف استطاع هذا المجموع المتنافر بمضمونه الذى يتكون من أسفار كتبت على مدى سبعة قرون على الأقل ، وأتت من مصادر شديدة التنوع ثم تجمعت بعد ذلك داخل مؤلف واحد ، كيف استطاع عبر القرون أن يكون كلاً لا ينفصم ؟ وأن يصبح - مع بعض الاختلافات بين الجماعات الدينية - كتاب الوحى اليهودى - المسيحى ، كيف أصبح «القانون» Canon وهى كلمة يونانية يرتبط بها معنى عدم المساس ... ؟

إن التجميع لا يرجع إلى عصر المسيحية ، بل إلى اليهودية نفسها ، ولا شك أن مرحلته الأولى تعود إلى القرن السابع قبل الميلاد ، حيث إن الكتب اللاحقة قد أتت بعد ذلك لتضاف إلى ما احتفظ به من قبل . ومع ذلك يجب أن نلاحظ المكانة الخاصة التى أعطيت فى كل العصور - الأسفار الخمسة الأولى التى تكون التوراة - أو ما يعرف

بأسفار موسى الخمسة Pentateuque . فإن تحقق نذائر الأنبياء (هى وعد بالعقاب يرتبط وظيفيًا بالخطايا) ، كان من شأنه أن سهل إضافة كتبهم إلى الكتب المقبولة سلفًا، إن « قانون » Canon الأنبياء كان قد تشكل فعلاً قبل القرن الثانى قبل الميلاد .

أما الكتب الأخرى مثل المزامير ، وبسبب وظيفتها فى الطقوس الدينية ، فقد أدمجت مع الكتابات الأخرى وكتابات سليمان أو أيوب الحكيمة .

إن المسيحية التى كانت أولاً يهودية - مسيحية والتى درسها جيدًا (كما سنرى ذلك) كتاب محدثون ، مثل الكردينال دانيلو Danielou ، قد تقلت بشكل طبيعى جدًا ميراث العهد القديم الذى ارتبطت به وثيقًا كتب الأناجيل ، وذلك قبل أن يجرى عليها التحول الذى حدث بتأثير بولس . ولكن إذا كان « تطهير » الأناجيل قد تم باستبعاد الأناجيل المزورة ، فإن المسئولين لم يروا ضرورة القيام بنفس الفرز بالنسبة إلى العهد القديم ، وقبلوا ما يحتويه كلية تقريبًا .

هل هناك من جرؤ على الاعتراض على هذا المجموع المتنافر حتى القرون الوسطى وفى الغرب على الأقل .. ؟ لا أحد ، أو تقريبًا لا أحد . ومن القرون الوسطى وحتى بداية العصور الحديثة ظهرت بعض الانتقادات ، كما رأينا أعلاه ، ولكن الكنائس نجحت دائمًا فى فرض سلطتها . ولاشك أن عصرنا قد شهد ميلاد نقد أصيل للنصوص . ولكن إذا كان المتخصصون الكنسيون فى نقد النصوص قد كرسوا قرائحهم لدراسة حشد كبير من النقاط التفصيلية ، فإنهم قد حكموا بأفضلية عدم الذهاب إلى أبعد مما يسمونه تلميحًا « صعوبات » . ولا يبدو أن بهم ميلاً لدراسة هذه الصعوبات على ضوء المعارف الحديثة . وإذا كان هناك من لا يعترض على إقامة موازنات تاريخية، وخاصة عندما يكون هناك توافق بين المعارف الحديثة وروايات الكتب المقدسة ، فلا أحد حتى الآن من هؤلاء المتخصصين قد حط الخطى على طريق مقارنة صريحة وعميقة مع المعلومات العلمية التى ندرك أنها ستقود إلى الاعتراض على فكرة صحة الكتابات اليهودية - المسيحية التى لا يجادلها أحد منهم حتى يومنا هذا .

العهد القديم والعلم الحديث

ملاحظات

قليل من الموضوعات التى يعالجها العهد القديم - كالأناجيل - تسمح بالمقابلة مع معطيات العلوم الحديثة . ولكن عندما يحدث تعارض بين نص التوراة والعلم فإنه يجئ فى مسائل نستطيع أن نصفها بالمهمة .

ولقد رأينا فى الفصل السابق أن التوراة تحتوى على أخطاء ذات طابع تاريخى ، وذكرنا بعض هذه الأخطاء مما اكتشفه عدة مفسرين يهود ومسيحيين . وينزع المفسرون المسيحيون بشكل طبيعى إلى التقليل من أهمية هذه الأخطاء . يرون أنه طبيعى تمامًا أن يقدم الكاتب الدينى أمورًا تاريخية بحسب وجهة النظر الدينية : هم يكتبون التاريخ إذن حسب مقتضيات الحال . وسنرى فيما بعد بالنسبة إلى إنجيل متى نفس هذه التصرفات إزاء الواقع ، ونفس التعليقات التى تهدف إلى فرض ما يناقض الحقيقة . إن الروح الموضوعى والمنطقى لا يمكن أن يرضى بهذه الطريقة فى العمل .

من زاوية المنطق يمكن أن نتبين أن عددًا كبيرًا من المتناقضات والأمور غير المعقولة فى التوراة . يمكن أن تكون المصادر المختلفة التى استخدمت فى تأليف النص هى أصل رواية حدث واحد بشكلين مختلفين ، ولكن هناك أكثر من ذلك : إن التعديلات المختلفة والإضافات اللاحقة إلى النص نفسه كالتعليقات التى أضيفت استدلاليًا ، ثم دخلت فيما بعد على النص عند نسخه مرة أخرى ، كل هذا يعرفه المتخصصون فى نقد النصوص ، ويشير البعض إليه بمنتهى الأمانة . وعلى سبيل المثال قدم الأب ديفو ، بالنسبة لأسفار موسى الخمسة وحدها ، فى المقدمة العامة التى تسبق ترجمته لسفر التكوين (ص١٣ و١٤) ، قدم تفصيلاً بكثير من النقاط المتنافرة التى لا يبدو لنا - مهما أعدت ذكرها هنا حيث سنذكر الكثير منها فى هذه الدراسة - أن الفكرة العامة التى نستطيع الخروج بها من هذه الأخطاء هو أنه لا يجب أن نأخذ النص مأخذًا حرفيًا .

وإليكم مثالاً معبرًا عن هذا :

فى سفر التكوين (الإصحاح ٦ الآية ٣) يقرر الله ، قبل الطوفان بقليل ، أن يحدد عمر الإنسان بمائة وعشرين سنة . تقول التوراة : « .. وتكون أيامه مائة وعشرين سنة ». ومع ذلك يلاحظ فيما بعد فى نفس سفر التكوين (الإصحاح ١١ الآيات من ١٠ إلى ٣٢) أن حياة أنسال نوح العشرة قد دامت من ١٤٨ إلى ٦٠٠ سنة (انظر فى هذا الجدول الذى يمثل أنسال نوح حتى إبراهيم) . إن التناقض بين هاتين العبارتين واضح ، وتعليله بسيط . فالعبارة الأولى (التكوين . إصحاح ٦ الآية ٣) نص يهودى يعود تاريخه ، كما رأينا أعلاه ، إلى القرن العاشر قبل الميلاد . أما العبارة الثانية فى سفر التكوين (الإصحاح ١١ - الآيات من ١٠ إلى ٣٢) فهى من نص قريب تاريخيًا (القرن السادس قبل الميلاد) فى التراث الكهنوتى الذى هو أصل هذه الأنساب التى تبدو شديدة الدقة فى إحصاء الأعمار ، بنفس القدر الذى تبدو به غير معقولة إذا أخذناها كتلة واحدة .

فى سفر التكوين توجد أكثر المتناقضات وضوحًا مع العلم الحديث . وتخص هذه التناقضات ثلاث نقاط جوهرية :

١ - خلق العالم ومراحله .

٢ - تاريخ خلق العالم ، وتاريخ ظهور الإنسان على الأرض .

٣ - رواية الطوفان .

خلق العالم

يلاحظ الأب ديفو أن سفر التكوين « يبدأ براويتين عن الخلق كل منهما موضوعة إلى جانب الأخرى » . ومن وجهة نظر دراسة اتفاق هذين النصين مع المعطيات العلمية ، فلابد من دراسة كل منهما مُنفصلاً عن الآخر .

الروايـة الأولـى عن الخلـق

وتحـتل الرواية الأولى الإصـحـاح الأول والآيات الأولى من الإصـحاح الثانى . إنهـا بناء يتكون من أخطاء من وجهة النظر العلميـة . ولابد من القيام بنقدها فقرة فقرة . والنص الذى نقدم هنا هو نص ترجمة فرنسية لمدرسة الكتاب المقدس بالقدس .

الإصـحـاح الأول - الآيتـان ١، ٢ : « فـى البـدء خلق الله السـمـاء والأرض . وكـانت الأرض خربة وخالية والظلمات تغطى اللجة وروح الله يرف على المياه » .

ونستطيع أن نقبل تمامًا أن فى مرحلة ما قبل خلق الأرض كان ما سيصبح الكون ، كما نعرفه ، غارقًا فى الظلمات . ولكن الإشارة إلى المياه فى تلك المرحلة أمر رمزى صـرف . وربمـا كـان ترجـمـة لأسطورة . وسنـرى فى الجـزء الثـالث من هذا الكتـاب أن هناك مـا يسمح بالاعتقاد بوجود كتلة غازية فى المرحلة الأولى لتكون الكون . إن القول بوجود الماء فى تلك المرحلة غلط .

الآيات من ٣ إلى ٥ - : « ليكن نور فكان النور . ورأى الله أن النور حـسن وفـصل بين النور والظلمـات . ودعـا الله النور نهارًا والظلمـات ليـلاً . وكـان مسـاء وكـان صبـاح : اليوم الأول » .

إن الضـوء الذى يقطع الكون هـو نـتـيـجـة ردود أفـعـال مـعـقـدة تحـدث فـى النجـوم وسنعود إلى النجوم فى الجزء الثالث من هذا الكتاب . ولكن النجوم حسب قول التوراة ، لم تكن قد تشكلت بعد فى هذه المرحلة ، حيث إن « أنوار » السموات لا تذكر فى سفر التكوين إلا فى الآية ١٤ باعـتبـارها مـا خلق الله فى اليـوم الرابع « ليـفصل بين النهـار والليل » « ولينير الأرض » وذلك صـحيح تمامًا . ولكن من غير المنطقى أن تذكر النتيـجة الفعلية (أى النور) فى اليوم الأول على حين تذكر وسيلة إنتاج هذا النور . أى « المنيرة» فى اليوم الرابع . يضاف إلى ذلك أن وضع الليل والنهار فى اليوم الأول هو أمر مجازى صـرف : فالليل والنهار باعـتبـارهمـا عنصـران ليوم غير مـعقـولين إلا بعـد وجود الأرض ودورانها تحت ضوء نجمها الخاص بها : أى الشمس .

« الآيات من ٦ إلى ٨ » وقال الله : « ليكن جلد فى وسط المياه وليكن فاصل بين مياه ومياه . وكان كذلك . فعمل الله الجلد وفصل بين المياه التى تحت الجلد والمياه التى فوق الجلد . ودعا الله الجلد سماء . وكان مساء وكان صباح : اليوم الثانى » .

أسطورة المياه هنا تستمر بانفصالها إلى طبقتين بواسطة الجلد الذى سيجعل الطبقة العليا ، عند الطوفان ، تنفذ من خلاله تمر لتنصب على الأرض . إن صورة انقسام المياه هذه إلى كتلتين غير مقبولة علميًا .

الآيات من ٩ إلى ١٣ – وقال الله : « لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد فى كتلة واحدة ولتظهر اليابسة ، وكان كذلك . ودعا الله اليابسة أرضًا ومجتمع المياه دعاه «بحارًا» ورأى الله ذلك أنه حسن » .

وقال الله : « لتنبت الأرض خضرة عشبًا يحمل بذرًا كجنسه ، وشجرًا يعطى ثمرًا من جنسه وبذرًا . ورأى الله ذلك أنه حسن . وكان مساء وكان صباح : اليوم الثالث .

ومقبول علميًا أن القارات قد ظهرت فى مرحلة من تاريخ الأرض . كانت هذه مغطاة بالماء . ولكن أن يكون هناك فى تلك الفترة عالم نباتى ينتظم جيدًا بالتناسل بالبذرة قبل ظهور الشمس (التى تظهر كما يقول سفر التكوين فى اليوم الرابع) وأن ينتظم تعاقب النهار والليل فذلك ما لا يمكن مطلقًا القول به .

الآيات من ١٤ إلى ١٩ – « وقال الله : لتكن أنوار فى جلد السماء لتفصل بين النهار والليل . وتكون علامات للأعياد ، كما للأيام والسنين ، ولتكن أنوار فى جلد السماء لتضئ الأرض ، كان كذلك ، وعمل الله المنيرين العظيمين – المنير الأكبر لحكم النهار ، والمنير الأصغر لحكم الليل – والنجوم . وجعلها الله فى جلد السماء لتنير على الأرض . ولتحكم على النهار والليل ، ولتفصل بين النور والظلمة . ورأى الله ذلك أنه حسن . وكان مساء وكان صباح : اليوم الرابع » .

إن وصف كاتب التوراة هنا مقبول . والنقد الوحيد الذى يمكن إقامته على هذه العبارة هو المكان الذى تحتله فى مجموع الرواية . إن الأرض والقمر ، كما نعرف ، قد

تبعا من نجمهما الأصلى أى الشمس . ووضع خلق الشمس والقمر بعد خلق الأرض يناقض المعلومات الأساسية عن تشكل عناصر النظام الشمسى .

الآيات من ٢٠ إلى ٢٣ - « وقال الله : ولتعج المياه بعجيج الكائنات الحية ، ولتطر طيور فوق الأرض وعلى وجه جلد السماء . وكان كذلك . وخلق الله كبار ثعابين البحر وكل الكائنات الحية التى تنزلق وتعج فى البحار ، كل بحسب جنسه ، وكل ذى جناح بحسب جنسه . ورأى الله ذلك أنه حسن . وباركها الله قائلاً : « أثمرى واملئى البحار وليتكاثر الطير على الأرض . وكان ليل وكان نهار : اليوم الخامس » .

وتحتوى هذه الفقرة على مزاعم لا يمكن قبولها .

يقول سفر التكوين بظهور عالم الحيوان أولاً وابتداء من حيوانات البحر والطيور . الواقع أن رواية التوراة تقول إن فى اليوم التالى - كما سنرى ذلك فى الآيات التالية - أسكنت الأرض بالحيوانات .

ولا شك أن أصل الحياة مائى : وسننظر فى هذه المسألة فى الجزء الثالث من هذا الكتاب . وابتداء من هنا - إن جاز القول - احتل عالم الحيوان الأرض . ومن الحيوانات التى تعيش على سطح الأرض ، وهى فئة خاصة من الزواحف تسمى Pseudo- suchiens كانت تعيش فى العصر الثانى . جاءت الطيور - فيما يعتقد - وهناك كثير من السمات البيولوچية المشتركة بين هاتين الفئتين التى تسمح بهذا الاستنتاج . ولكن سفر التكوين لا يشير إلى الحيوانات الأرضية إلا فى اليوم السادس بعد ظهور الطيور . وإذن فنظام ظهور الحيوانات الأرضية والطيور هذا غير مقبول .

الآيات من ٢٤ إلى ٣١ - « وقال الله : لتخرج الأرض الكائنات الحية كجنسها بهائم ودبابات ووحوش كجنسها . وكان كذلك . عمل الله الوحوش كجنسها ، والدبابات كجنسها ، وكل دبابات الأرض كجنسها . ورأى الله ذلك أنه حسن » .

وقال الله : « لنعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا . ويتسلطوا (كذا) على سمك البحر، وعلى طيور السماء ، وعلى البهائم ، وعلى كل الوحوض والدبابات التى تزحف

على الأرض » . فخلق الله الإنسان على صورته . وعلى صورة الله خلقه ، ذكرًا أو أنثى خلقهما .

« وباركهما الله وقال لهما : أثمرا وأكثرا واملأ الأرض وأخضعاها ، وتسلطا على سمك البحار وطيور السماء وعلى كل حيوان يدب على الأرض » . « وقال الله : إنى قد أعطيتكما كل بقل يحمل بذرًا على وجه الأرض ، وكل شجر فيه ثمر ويحمل بذرًا . لكما يكون طعامًا . ولكل الوحوش ، ولكل طيور السماء ولكل دبابة على الأرض وكائن حى أعطيت كل خضرة النباتات طعامًا » وكان كذلك « ورأى الله كل ما عمله : فإذا هو حسن جدًا . وكان مساء وكان صباح : اليوم السادس » .

فى وصف تمام الخلق يعدد الكاتب كل المخلوقات الحية غير المذكورة سابقًا ، ويشير إلى الأقوات المختلفة الموضوعة تحت تصرف الناس والحيوانات .

وكما نرى فإن الخطأ يكمن فى وضع ظهور الحيوانات الأرضية بعد ظهور الطيور. ولكن ظهور الإنسان على الأرض محدد بشكل صحيح بعد ظهور الفئات الأخرى من الكائنات الحية .

وتنتهى رواية الخلق بالآيات الثلاثة الأولى من الإصحاح الثانى : « فأكملت السموات والأرض بكل جندها (كذا) . وفرغ الله فى اليوم السابع من عمله الذى عمل . فاستراح فى اليوم السابع من جميع عمله الذى عمل . وبارك الله اليوم السابع وقدسه ، لأنه فيه استراح من جميع عمله للخلق . هذه مبادئ السموات والأرض حين خلقت » .

تتطلب رواية اليوم السابع هذه التعليقات :

أولاً معنى الكلمات . والنص هو نص ترجمة مدرسة الكتاب المقدس بالقدس . «جند» تعنى هنا على الأرجح حشد الكائنات المخلوقة . أما فيما يخص التعبير (استراح) «Il choma» فتلك طريقة مدير مدرسة الكتاب المقدس بالقدس فى ترجمة الكلمة العبرية «شباط» والتى تعنى ذلك على وجه الدقة ، ومن هنا جاء يوم الراحة عند اليهود (يوم السبت) .

وواضح أن هذه « الراحة » التى يفترض أن الله قد أخذها بعد أن عمل ستة أيام، هى أسطورة ، ولكن لها تعليل . إذ لا يجب نسيان أن رواية الخلق المدروسة هنا تأتى من النص الذى يسمى بالكهنوتى . كتبه الكهنة أو الكتبة وهم الوريثون الروحيون لحزقيال نبى النفى ببابل فى القرن السادس قبل الميلاد . ومعروف أن هؤلاء الكهنة قد أعادوا روايتى الخلق اليهوية والألوهيمية وأعادوا صياغتهما على مشيئتهم وحسب اهتماماتهم الخاصة التى كتب الأب ديفو عنها قائلاً : إن طابعها « التشريعى » كان جوهريًا . وقد أعطينا عاليه لمحة عن ذلك .

على حين لا يشير النص اليهوى ، الذى يسبق النص الكهنوتى بعدة قرون ، إلى راحة الله الذى تعب من عمله طيلة الأسبوع ، يدخلها الكاتب الكهنوتى فى روايته . إنه يقسم روايته إلى أيام بالمعنى الدقيق لأيام الأسبوع ، وهو يضع محور الرواية على راحة السبت التى يعللها أمما المؤمنين مؤكدًا على هذا بقوله : إن الله هو أول من احترمها . وابتدأ من هذه الضرورة العملية انتقاد رواية الخلق بمنطق دينى ظاهر وإن كان هذا بشكل تسمح معطيات العلم بوصفه بالوهم .

إن إدراج مراحل الخلق المتعاقبة فى إطار أسبوع ، هذا الإدراج الذى أراده الكاتب الكهنوتى بهدف الحث على الطاعة الدينية ، لا يقبل الدفاع من وجهة النظر العلمية . فمعروف تمامًا فى أيامنا أن تشكل الكون والأرض – وسنعالج هذا فى الجزء الثالث من هذا الكتاب بالنسبة للمعطيات القرآنية الخاصة بالخلق – قد تم على مراحل تمتد على فترات زمنية شديدة الطول لا تسمح المعطيات الحديثة بتحديد مدتها حتى تقريبيًا . وحتى إذا كانت الرواية تنتهى مساء اليوم السادس ، ولا تحتوى على إشارة إلى اليوم السابع ، يوم الراحة الذى استراح فيه الله ، وحتى إذا كان مسموحًا لنا – كما هو الأمر بالنسبة للرواية القرآنية – أن نعتبر أن المقصود فعلاً هو فترات غير محددة وليس أيامًا بالمعنى الحقيقى ، فإن النص الكهنوتى يظل غير مقبول ، حيث إن تعاقب الأحداث فيه يناقض المعلومات العلمية الأصلية .

وهكذا إذن تبدو الرواية الكهنوتية للخلق كبناء خيالى مبتكر كان يهدف إلى شيء آخر غير التعريف بالحقيقة .

الرواية الثانية

لا تسمح بنفس الانتقادات رواية الخلق الثانية التى يحتوى عليها سفر التكوين ، والتى تلى دون انتقال ، ودون تعليقات الرواية السالفة .

ولنذكر بأن هذه الرواية ترجع إلى تاريخ أكثر قدمًا من الأولى بحوالى ثلاثة قرون. هى رواية قصيرة جدًا . ولكنها أكثر إفاضة فيما يخص خلق الإنسان وجنة الأرض مما يخص خلق الأرض والسماء الذى تذكره بإيجاز شديد . تقول هذه الرواية .: « عندما عمل يهوه الرب الأرض والسماء ، كل شجر البرية لم يكن بعد فى الأرض وكل عشب البرية لم ينبت بعد لأن يهوه الرب لم يكن قد أمطر على الأرض . ولا كان إنسان ليفلح الأرض ، لكن ، كان سيل يطلع منها ويسقى كل وجهها . وعندئذ جبل يهوه الإنسان من طين الأرض. ونفخ فى أنفه نسمة حياة فصار الإنسان نفسًا حية» (الإصحاح ٢ الآيات ٤ ب إلى ٧).

تلك هى الرواية اليهوية الموجودة فى نصوص كتب العهد القديم التى نملكها حاليًا. هذه الرواية التى أضيفت إليهات فيما بعد الرواية الكهنوتية . هل كانت على هذا القدر من القصر .. ؟ لا يستطيع أحد أن يقول ما إذا كان النص اليهوى قد قطع عبر الأزمنة ، ولا يستطيع أحد أن يقول ما إذا كانت السطور القليلة التى فى حوزتنا تمثل فعلاً كل ما كان يمكن أن يحتوى عليه أقدم نص للتوراة عن الخلق .

إن هذه الرواية اليهوية لا تشير إلى تشكل الأرض بشكل واضح وخاص ، ولا إلى تشكل السماء . إنه يدع للفهم الضمنى أن عند خلق الله للإنسان لم تكن هناك نباتات أرضية (فلم يكن المطر قد نزل بعد) ، هذا برغم أن المياه الآتية من العمق كانت تغطى سطح الأرض . وتؤكد هذا البقية التالية للنص : زرع الله بستانًا فى نفس الوقت الذى خلق فيه الإنسان . وهكذا يظهر عالم النبات فى نفس وقت ظهور الإنسان على الأرض، وهذا علميًا خطأ : فقد ظهر الإنسان على الأرض حين كانت الأرض منذ زمن بعيد حاملة للنباتات، وإن كنا لا نستطيع أن نقول كم من مئات ملايين السنوات قد مرت بين الحدثين.

ذلك هو الانتفاض الوحيد الذى يمكن توجيهه إلى النص اليهوى للخلق . فبما أنه لا يحدد فى الزمن لحظة خلق الإنسان بالنسبة إلى تشكل العالم وتشكل الأرض ، هذا الذى يضعه النص الكهنوتى فى نفس أسبوع الخلق ، فإنه يفلت من انتقاد خطير كان يوجه لهذا الأخير .

تاريخ خلق العالم، وتاريخ ظهور الإنسان على الأرض

لما كان التقويم اليهودي مؤسسًا بالتوافق مع معطيات العهد القديم ، فإنه يحدد هذين التاريخين بدقة : إن الجزء الثاني من عام ١٩٧٥ المسيحي يتفق مع بداية العام ٥٧٣٦ منذ خلق العالم ، إذن فالإنسان الذي يجيء خلقه بعد خلق العالم بعدة أيام قديم نفس القدم الذي يحصيه التقويم اليهودي لخلق العالم .

وهناك ولاشك تصحيح يجب إجراؤه بسبب إحصاءات الزمن التي كانت تحسب أولاً بالسنوات القمرية ، على حين يتأسس التقويم الغربي على السنوات الشمسية . ولكن هذا التصحيح الذي يبلغ ٣٪ والذي يمكن عمله إذا أردنا أن يكون في منتهى الدقة، قليل الأهمية . وحتى لا نعقد الحسابات يحسن أن نمتنع عنها . ما يهم هنا هو حجم الكبر التقريبي ولا يهم إذا كان رقم السنوات بالألف بهامش خطأ يبلغ ٣٠ سنة . ولكي نكون أكثر قربًا من الحقيقة لنقل إن خلق العالم بحسب هذا التقدير العبري يحدد تقريبًا بسبعة وثلاثين قرنًا قبل الميلاد .

ماذا يعلمنا العلم الحديث .. ؟ عسيرة هنا الإجابة عما يتلق بتكون الكون . وكل ما يمكن ترقيمه هو عصر تكون النظام الشمسي الذي يمكن تحديده زمنيًا بتقريب مُرضٍ . وبقدر الزمن الذي يفصلنا عن تكون النظام الشمسي بأربع مليارات ونصف من السنوات وبهذا نقيس الهامش الذي يفصل الواقع الثابت اليوم (والذي سنعود إليه في الفصل الثالث من هذا العمل) عن المعطيات المستخرجة من العهد القديم . إنها تنبع من دراسة دقيقة لنص التوراة . ويعطي سفر التكوين إشارات دقيقة جدًا عن الزمن الذي جرى بين آدم وإبراهيم . وأما بالنسبة للفترة الممتدة من إبراهيم وحتى العصر المسيحي فإن المعلومات المعطاة غير كافية. ولابد من إكمالها بالاستعانة بمصادر أخرى.

١ - من آدم إلى إبراهيم

يقدم سفر التكوين ، في أنسابه بالإصحاحات ٤ و٥ و١١ و٢١ و٢٥ ، معطيات غاية في الدقة عن كل أسلاف إبراهيم من صلب مباشر منذ آدم ، ولما كان سفر التكوين

يعطى مدة حياة كل منهم وعمر الأب عند ميلاد الابن ، فإنه يسمح بيسر بتحديد تواريخ ميلاد ووفاة كل سلف بالنسبة إلى خلق آدم كما هو مشار إليه فى الجدول التالى .

ألف هذا الجدول حسب المعطيات الآتية كلها من النص الكهنوتى لسفر التكوين وهو النص الوحيد فى التوراة الذى يعطى تحديدات من هذا النوع . ومنه يستنتج أن إبراهيم ، كما تقول التوراة ، قد رأى النور فى عام ١٩٤٨ بعد آدم .

أنساب إبراهيم

	تاريخ الميلاد بعد خلق آدم	مدة العمر	تاريخ الوفاة بعد خلق آدم
١ - آدم	٠٠	٩٣٠	٩٣٠
شيت	١٣٠	٩١٢	١٠٤٢
أنوش	٢٣٥	٩٠٥	١١٤٠
قينان	٢٣٥	٩١٠	١٢٣٥
مهللئيل	٣٩٥	٨٩٥	١٢٩٠
يارد	٤٦٠	٩٦٢	١٤٢٢
أخنوخ	٦٢٢	٣٦٥	٩٨٧
متوشالح	٦٨٧	٩٦٩	١٦٥٦
لامك	٨٧٤	٧٧٧	١٦٥١
١٠ - نوح	١٠٥٦	٩٥٠	٢٠٠٦
سام	١٥٥٦	٦٠٠	٢١٥٦
أرفكشاد	١٦٥٨	٤٣٨	٢٠٩٦
شالح	١٦٩٣	٤٣٣	٢١٢٢
عابر	١٧٢٣	٤٦٤	١٢٨٧
فالج	١٧٥٧	٢٣٩	١٩٩٦
داعو	١٧٨٧	٢٣٩	٢٠٢٦
سروج	١٨١٩	٢٣٠	٢٠٤٩
ناحور	١٨٤٩	١٤٨	١٩٩٧
تارح	١٨٧٨	٢٠٥	٢٠٨٣
٢٠ إبراهيم	١٩٤٨	١٧٥	٢١٢٣

٢ - من إبراهيم إلى العصر المسيحى

لا تعطى التوراة عن هذه الفترة أية معلومات حسابية من شأنها أن تقود إلى تقويمات دقيقة كتلك التى يعطيها سفر التكوين عن أسلاف إبراهيم . ولكى نقدر الزمن الذى يفصل بين إبراهيم والمسيح علينا أن نستعين بمصادر أخرى . ويحدد حاليًا عصر إبراهيم بحوالى ثمانية عشر قرنًا قبل الميلاد وبهامش خطأ صغير . وهذه المعطية المؤلفة من إشارات سفر التكوين عن الفترة الزمنية التى تفصل بين إبراهيم وآدم تقود إلى تحديد تاريخ هذا الأخير بحوالى ثمانية وثلاثين قرنًا قبل المسيح . وهذا التقدير خاطئ بلا أى جدل : وخطؤه يأتى من الغلط الذى تحتويه التوراة عن المدة بين آدم وإبراهيم التى يعتمد عليها التراث اليهودى دائمًا لتحديد تقويمه . ونستطيع فى عصرنا أن نعارض الحماة التقليديين لحقيقة التوراة باستحالة اتفاق المعطيات الحديثة مع هذه التقديرات الوهمية التى عملها الكهنة اليهود فى القرن السادس قبل الميلاد . لقرون طويلة استخدمت هذه التقديرات كقاعدة لتحديد أحداث العصر القديم بالنسبة للمسيح .

كانت كتب التوراة المنشورة قبل العصر الحديث تقدم للقراء فى مقدمة توضيحية قائمة بتواريخ الأحداث التى وقعت منذ خلق العالم ، وحتى عصر نشر هذه الكتب ، وكانت الأرقام تتنوع قليلاً بحسب العصور ، على سبيل المثال تعطى نسخة Vulugte Cle'mentine (١٦٢١) مثل هذه الإشارات ، واضعة مع ذلك تاريخ إبراهيم بشكل مبكر قليلاً ، ومحددة الخلق بالقرن الأربعين قبل الميلاد تقريبًا . وأما توراة والتون Walton متعددة اللغات ، المنشورة فى القرن السابع عشر ، فهى تعطى القارئ ، خارج نصوص التوراة فى لغات عدة ، جداول مماثلة لذلك الذى تحدد هنا بالنسبة لأسلاف إبراهيم . إن كل التقديرات متفقة ، فيما عدا اختلافات طفيفة ، مع الأرقام المقدمة هنا . وعندما جاء العصر الحديث لم يعد فى استطاعة الناشر الاحتفاظ بهذه القوائم الوهمية دون التعارض مع المكتشفات العلمية التى حددت تاريخ الخلق بعصر سابق بكثير ، اكتفى إذن بحذف هذه الجداول والمقدمات ، وحاذر الناشرون من إعلام القارئ بخطأ نصوص

التوراة هذه التى اعتمد عليها من قبل لتحرير هذه القوائم التاريخية ، والتى لم يعد فى الإمكان اعتبار أنها تعبر عن الحقيقة . وفضلوا أن يلقوا عليها غلالة من الحياء ، وأن يجدوا صيغًا ديالكتيكية عاملة حتى يقبل النص كما كان من قبل دون أى حذف . وهكذا تجد قوائم الأنساب للنص الكهنوتى للتوراة مكان الصدارة دائمًا ، على حين أنه لم يعد معقولاً فى القرن العشرين حساب الزمن بالاعتماد على مثل هذا الوهم .

أما فيما يخص تاريخ ظهور الإنسان على الأرض فالمعطيات العلمية الحديثة تسمح بتعريفه بأبعد من حد غير دقيق فقط . نستطيع أن نقتنع بأن الإنسان كان يوجد على الأرض ، بطاقة ذكائه وعمله التى تجعله يختلف عن كائنات حية تبدو مقاربة له تشريحيًا ، فى فترة لاحقة على تاريخ يمكن تقديره ، ولكن لا أحد يستطيع أن يحدد بشكل دقيق تاريخ ظهوره . ومع ذلك فيمكن أن نؤكد اليوم وجود أطلال لإنسانية مفكرة وعاملة ، ويحسب قدمها بوحدات تتكون من عشرات من ألوف السنين .

يعود هذا التاريخ التقريبى على نموذج إنسان ما قبل التاريخ الذى اعتبر أكثر النماذج قربًا للنموذج Neo-anthropiens (إنسان كرومانيون Cro-Magnon) .. ولاشك أن هناك اكتشافات أخرى لبقايا يبدو أنها إنسانية قد تمت فى نقاط عديدة على الأرض، وهى تخص أنماطًا أقل تطورًا Paleo-anthropiens. ويقدر حجم قدمها بوحدات من مئات ألوف السنين ، ولكن هل هم حقًا بشر حقيقيون .... ؟

على أى حال فالمعطيات دقيقة بشكل كاف فيما يخص Neo-anthropiens وذلك يسمح بوضعهم أبعد بكثير من العصر الذى يحدده سفر التكوين لأوائل البشر ، هناك إذن استحالة اتفاق واضحة بين ما يمكن استنتاجه من المعطيات الحسابية لسفر التكوين الخاصة بظهور الإنسان على الأرض وبين أكثر المعارف تأسسًا فى عصرنا .

الطوفـان

الإصحاحات ٦ و٧ و٨ من سفر التكوين مكرسة لرواية الطوفان . وبشكل أدق هناك روايتان غير موضوعتين جنبًا إلى جنب ، إنما هما تنفصلان فى مقاطع متداخلة كل فى الآخر ، وبمنطلق ظاهر فى تعاقب مختلف الأحداث . الحقيقة أن فى هذه الإصحاحات الثلاثة تناقضات صارخة ، هنا أيضًا تتعلل هذه التناقضات بوجود مصدرين متميزين بشكل جلى : أى المصدر اليهوى ، والمصدر الكهنوتى .

وقد رأينا أعلاه أن هذين المصدرين يشكلان تجميعًا متنافرًا . فقد قطع كل نص أصلى إلى فقرات أو عبارات . وهذا مع تعاقب عناصر كل مصدر مع عناصر المصدر الآخر ، بحيث إننا ننتقل من مصدر لآخر فى الرواية سبع عشرة مرة ، وذلك خلال مائة سطر تقريبًا من النص .

والرواية فى شمولها هى ما يلى :

لما عم فساد البشر قرر الله تدميرهم مع كل المخلوقات الحية الأخرى . فحذر نوحًا وأمره ببناء السفينة التى سيدخل بها زوجته وأولاده الثلاثة بزوجاتهم الثلاث وكائنات حية أخرى ، ويختلف المصدران بالنسبة للكائنات الحية : فهناك مقطع من الرواية (وهو كهنوتى الأصل يشير إلى أن نوحًا قد أخذ زوجًا من كل نوع ، ثم يحدد المقطع التالى (وهو من الأصل اليهوى) أن الله قد أمر بأخذ سبعة من كل نوع ، ذكر وأنثى من الحيوانات المسماة بالطاهرة ، وزوجًا واحدًا من الحيوانات المسماة بغير الطاهرة . ولكن بعد ذلك يتحدد أن نوحًا لن يدخل إلى السفينة فعلاً إلا زوجًا من كل نوع من الحيوانات . ويؤكد المتخصصون ، مثل الأب ديفو ، أن المعنى به هنا هو مقطع معدل من الرواية اليهوية .

وهناك فقرة (وهى من الأصل اليهوى) تشير أن عامل الطوفان هو ماء المطر ، ولكن هناك فقرة أخرى (وهى كهنوتية الأصل) تقدم سبب الطوفان على أنه مزدوج أى ماء المطر والينابيع الأرضية .

تغطت الأرض حتى قمم الجبال وأعلى منها بالماء . وتدمرت فيها كل الحياة . وبعد سنة خرج نوح من السفينة التى رست على جبل أراراط بعد الانحسار .

ولنضف أيضًا أن للطوفان ، حسب هذه النصوص ، مدتين مختلفتين : إذ تقول الرواية اليهوية : أربعون يوم فيضانًا ، على حين يقول النص الكهنوتى : مائة وخمسون يومًا ، ولا تحدد الرواية اليهوية تاريخ وقوع هذا الحدث من حياة نوح ، ولكن الرواية الكهنوتية تحدده بحين كان عمر نوح ٦٠٠ سنة . وتعطى نفس هذه الرواية إشارات عن موقعه الزمنى بالنسبة لآدم وبالنسبة لإبراهيم ، وذلك من خلال قائمة الأنساب . وحسب الحسابات المعمولة بعد الرجوع إلى إشارات سفر التكوين ، والتى تقول إن نوحًا قد ولد بعد ١٠٥٦ عامًا من آدم (انظر جدول أسلاف إبراهيم) ، فإن الطوفان يكون قد وقع بعد ١٦٥٦ عامًا من خلق آدم ، وبالنسبة إلى إبراهيم فيحدد سفر التكوين الطوفان بـ ٢٩٢ سنة قبل ميلاد هذا الأب الأول .

ولكن ، كما يقول سفر التكوين ، يخص الطوفان كل الجنس البشرى . وكل الكائنات الحية التى خلقها الله قد أعدمت على الأرض حسب هذه الرواية . إن البشرية ، والأمر هكذا ، تكون قد أعادت تكوين نفسها ابتداء من أولاد نوح وزوجاتهم ، بحيث إنه ، عندما يولد إبراهيم بعد ذلك بثلاثة قرون تقريبًا ، فإنه يجد الإنسانية قد أعادت تكوين نفسها فى مجتمعات . كيف يمكن لإعادة البناء هذه أن تتم فى زمن قليل إلى هذا الحد ... ؟ إن هذه الملاحظة البسيطة تنزع عن النص أية معقولية .

أكثر من ذلك فالمعطيات التاريخية تثبت استحالة اتفاق هذه الرواية مع المعارف الحديثة . والواقع أن عصر إبراهيم يحدد بالسنوات ١٨٠٠ - ١٨٥٠ ق. م تقريبًا . فإذا كان الطوفان قد حدث قبل ثلاثة قرون من إبراهيم ، كما يوحى بذلك سفر التكوين فى الأنساب ، فإن الطوفان يقع فى القرن ٢١ أو ٢٢ ق. م . وذلك هو العصر الذى كانت قد ظهرت من قبله فى نقاط مختلفة من الأرض حضارات انتقلت أطلالها للأجيال التى تلتها : إن المعارف التاريخية الحديثة تسمح بتأكيد هذا .

على سبيل المثال فهذه الفترة ، بالنسبة لمصر ، هى التى تسبق الدولة الوسطى (٢١٠٠ ق.م) ، وهذا بالتقريب هو تاريخ الفترة الوسطى الأولى قبل الأسرة الحادية عشرة . وفى بابل أسرة أور الثالثة . ومن المعروف جيدًا أنه لم يحدث انقطاع فى هذه الحضارات ، وبالتالى لم يحدث إعدام يخص البشرية برمتها كما تقول التوراة .

وبالتالى لا يمكن اعتبار أن روايات التوراة الثلاث تصف للإنسان أمورًا تتفق مع الحقيقة ، وإذا أردنا أن نكون موضوعيين فلابد أن نقبل أن هذه النصوص التى وصلت إلينا لا تمثل تعبير الحقيقة . هل أنزل الله شيئًا غير الحقيقة .. ؟ الواقع أنه من غير الممكن تصور فكرة إله يعلم الناس بالاستعانة بأوهام ، بل بأوهام متناقضة . وطبيعى أن يثير ذلك افتراض وجود تحريف بواسطة البشر - إما فى الأقوال المتوارثة التى انتقلت شفهيًا من جيل لآخر ، أو فى النصوص بعد تحديد هذه الأقوال المتوارثة . وعندما نعرف أن مؤلفًا مثل سفر التكوين قد عدل على الأقل مرتين ، وهذا على مدى ثلاثة قرون ، فكيف ندهش حين نجد فيه أمورًا غير معقولة ، أو روايات يستحيل أن تتفق مع واقع الأشياء ، منذ أن سمح تقدم المعارف البشرية - إن لم يكن بمعرفة كل شىء - فعلى الأقل بامتلاك معرفة كافية عن بعض الأحداث تسمح بإقامة الحكم على درجة اتفاق الروايات القديمة بهذه المعرفة . أى شىء أكثر منطقية إذن من الاكتفاء بهذا التفسير لأخطاء نصوص التوراة ، تلك التى لا تضع إلا الإنسان موضع النقاش .. ؟ وإنه لمن المؤسف الا يأخذ بهذا التفسير عامة المعلقين . مسيحيين كانوا أو يهودًا . ومع ذلك فالحجج التى يدفعون بها تستحق الالتفات .

مواقف الكتاب المسيحيين تجاه الأخطاء العلمية
فى نصوص العهد القديم ودراستها النقدية

يثير الدهشة حقًا تنوع ردود الأفعال لدى المعلقين المسيحيين إزاء هذا الكم المتراكم من الأخطاء والمتناقضات والأمور غير المعقولة . بعضهم يقبل بعض الأخطاء ولا يتردد فى مواجهة المسائل الشائكة فيما يكتب . والبعض الآخر يصرف النظر برشاقة عن دعاوى غير مقبولة ، ويتقيد بالدفاع كلمة فكلمة عن النص ، ويحاول الإقناع عن طريق تصريحات مديحية مستعينًا فى ذلك بحجج كثيرة ، غير متوقعة فى غالب الأحيان ، يأمل بذلك أن يضفى غلاله من النسيان على ما يرفضه المنطق .

إن الأب ديفو ، فى مقدمة ترجمته لسفر التكوين ، يقبل وجود هذه الانتقادات ، بل يفيض حتى فى البحث عن وجاهتها . ولكن إعادة بناء أحداث الماضى عديم الأهمية فى رأيه . ويقول فى ملاحظاته إنه إذا كانت التوراة قد استأنفت « ذكريات سيل واحد مخرب - أو أكثر من واحد - وقع بوادى دجلة والفرات ، وإنه إذا كان التراث قد ضخم أبعاد كارثة عالمية » فإن ذلك لا يهم ، « إنما جوهر المسألة هو أن الكاتب الدينى قد حمل هذه الذكرى بتعاليم أزلية عن عدل ورحمة الله ، وعن خبث الإنسان والخلاص الممنوح للعادل » .

بهذا يبرز لتحول أسطورة شعبية إلى حدث إلهى المستوى - ليعرض بعد ذلك على إيمان البشر - ويتم هذا ابتداء من اللحظة التى يستخدم فيها كاتب ما لأسطورة باعتبارها تصويرًا لدرس دينى . إن هذا الموقف المديحى يبرر كل تعسفات البشر فيما يختص بالأمور الإلهية ، ويغطى تعديلات البشر لتأليف نصوص التوراة . إن كل تعديل يصبح مشروعًا طالما كان هناك مرمى دينى . بهذا الشكل تبرر تعديلات كتاب القرن السادس « الكهنوتيين » ذوى الاهتمامات التشريعية التى أدت إلى تلك الروايات الوهمية التى نعرفها .

لقد رأى عدد كبير من المعلقين المسيحيين أنه من اللباقة أن يشرحوا الأخطاء والأمور غير المعقولة وتناقضات روايات التوراة ، وذلك بتقديم الاعتذار الذى يقول إن كتاب التوراة كانوا معذورين فى تقديم تصريحات ترتبط بعوامل اجتماعية لثقافة أو لعقلية مختلفتين ، وذلك ما أدى إلى تعريف « الأنواع الأدبية » الخاصة . إن إدخال هذا التعبير فى جدلية المعلقين الدقيقة تغطى عندئذ كل المصاعب . إن شرح أى تناقض بين نصين يكمن عندئذ فى الفرق بين طريقة كل كاتب فى التعبير وفى « طريقته الأدبية الخاصة » ولاشك أن الحجة ليست مقبولة لدى الكل ، فهى تفتقد فعلاً الجدية . برغم ذلك فهى لم تقع بعد تمامًا فى غياهب النسيان فى عصرنا . وسنرى بالنسبة للعهد الجديد كيف يحاول البعض اعتسافًا شرح متناقضات صارخة فى الأناجيل .

وهناك طريقة أخرى فى إقناع الناس بما يرفضه المنطق إذا ما طبق على النص موضوع النزاع ، وهى إحاطة النص المقصود باعتبارات مديحية . وبذلك ينحرف انتباه القارئ عن المشكلة الأساسية الخاصة بحقيقة الرواية ليتجه نحو مشاكل أخرى .

إن تأملات الكاردينال دانيلو Danielou عن الطوفان التى ظهرت بمجلة « الله الحى Dieu Vivant » تحت عنوان « الطوفان والتعميد ، والحكم » تنتمى إلى هذه الطريقة فى التعبير ، يقول : « رأى التقليد الكنسى الأقدم فى لاهوتية الطوفان صورة للمسيح وللكنيسة » . إنه « حدث ذو دلالة عظيمة » و « حكم يقع على الأمة البشرية برمتها » . ويستشهد الكاردينال باوريجين Origene الذى يذكر فى مواعظه عن حزقيال Homelies sur Fzechiel غرق العالم برمته ، وإنقاذ السفينة له « وهو يذكر بعد ذلك قيمة الرقم ٨ » الذى عبر عن عدد الأشخاص الذين أنقذتهم السفينة : (نوح وزوجته وأولاده الثلاثة وزوجاتهم الثلاث) . وهو يأخذ على عاتقه ما كتب جوستين «الحوار Dia- logue » « لقد وهبوا رمز اليوم الثامن الذى فيه ظهر مسيحنا مبعوثًا من بين الموتى» . وكتب أيضًا : « إن نوحًا هو الوليد الأول لخلق جديد ، إنه صورة للمسيح الذى حقق ما يمثله نوح » (كذا) . ويتابع المقارنة بين نوح من جانب ، الذى أنقذه خشب السفينة والماء الذى يجعلها تطفو ومن جانب آخر ماء التعميد (« ماء الطوفان الذى منه تولد بشرية

جديدة ») وخشب الصليب . وهو يؤكد على قيمة هذه الرمزية ويختتم بالتأكيد على «الثراء الروحى والعقدى لسر الطوفان» (كذا .... ؟) .

هذه التقريبات المديحية تدعو إلى كلام كثير . وعلينا أن نذكر مرة أخرى أنها تعلق على حدث يستحيل الدفاع عن صحته على المستوى العالمى ، وفى العصر الذى تقع فيه التوراة . فمع تعليق كتعليق الكردينال دانيلو نعود وراء إلى القرون الوسطى ، حيث كان النص يقبل كما هو ، وحيث لم يكن هناك مكان لأى بحث غير تقليدى .

ومع ذلك فإنه لمما يبعث على التشجيع أن نلاحظ أن الفترة السابقة على عصر الظلام المفروض شهدت مفكرين اتخذوا مواقف منطقية مثل القديس أوغسطين الذى ينحو فى التفكير بطريقة تسبق عصره بشكل فريد .

ولا شك أن عصر آباء الكنيسة قد عرف مشاكل خاصة بنقد النصوص . حيث إن القديس أوغسطين يتحدث عن واحدة منها فى خطابه رقم ٨٢ . والفقرة التالية هى أكثر فقرات هذا الخطاب تميزًا :

« إن مؤلفات الكتب المقدسة ، هذه التى تعرف بالقانونية هى فقط التى تعلمت أن أعطيها انتباهًا واحترامًا ، كاعتقادى الجازم بأنه ليس هناك أحد من كتابها قد أخطأ . فعندما ألتقى فى هذه الكتب بدعوى تبدو مناقضة للحقيقة ، فإننى عندئذ لا أشك فى أن نص (نسختى) لا يحتوى على خطأ ، أو أن المترجم لم يترجم النص الأصلى بشكل صحيح ، أو أن مقدرتى على الفهم تتسم بالضعف » .

لم يكن معقولاً إذن بالنسبة للقديس أوغسطين أن نصًا مقدسًا قد يحتوى على غلط . كان القديس أوغسطين يعرف بمنتهى الوضوح عقيدة « العصمة من الخطأ » In-errance فأقام فقرة تبدو مناقضة للحقيقة كان يواجه البحث عن علة ، ولا يستبعد فرض رجوع هذا الخطأ إلى سبب إنسانى . وهذا موقف مؤمن يتمتع بحاسة نقدية . وفى عصر القديس أوغسطين لم تكن هناك إمكانيات لمقابلة نص التوراة بالعلم . إن رؤية رحبة مماثلة لرؤيته تسمح - ولا شك - بتسطيح كثير من المصاعب التى تثار اليوم عند مقابلة بعض نصوص التوراة بالمعارف العلمية .

وعلى العكس من ذلك يجتهد المتخصصون فى عصرنا فى الدفاع عن نص التوراة أمام أى اتهام بالغلط . ويعطينا الأب ديفو فى مقدمته لسفر التكوين الأسباب التى تدعو إلى هذا الدفاع عن النص بأى ثمن ، حتى وإن كان واضحًا أنه غير مقبول تاريخيًا أو علميًا . إنه يطلب إلينا ألا ننظر إلى التاريخ فى التوراة « حسب قواعد النوع التاريخى الذى يمارسه المحدثون » . وكان هناك أكثر من طريقة فى كتابة التاريخ . إن التاريخ عندما يحكى بشكل غير صحيح يصبح رواية تاريخية . وهذا ما يقبله الكل . لكن التاريخ هنا لا يخضع للقواعد المتعارف عليها والتى تنبع من مفاهيمنا . إن المعلق على التوراة يرفض أى فحص قد تقوم به علوم الجيولوجيا والإحاثة والمعطيات الخاصة بما قبل التاريخ على روايات التوراة . « إن التوراة ، كما يقول الأب ديفو : لا تنتمى إلى أى من هذه الدراسات العلمية ، وإذا أردنا أن نقابلها بمعطيات هذه العلوم ، فإننا لن ننتهى إلا إلى تعارض غير حقيقى أو إلى توافق مصطنع »[1] . ويجب أن نلاحظ أن هذه التأملات قد دفع بها المؤلف إزاء ما لا يتفق مطلقًا مع المعطيات العلمية فى سفر التكوين ، وخاصة الأحد عشر إصحاحًا الأولى منه . ولكن إذا كانت هناك بعض الروايات قد أمكن التحقق منها اليوم ، وعلى وجه خاص بعض الأحداث التى وقعت فى عصر الآباء الأولين ، فإن الكاتب لا يفتقر إلى الاستشهاد بالمعارف الحديثة لمساندة الحقيقة فى التوراة . يقول الأب ديفو[2] . إن الشكوك التى غيمت على هذه الروايات يجب أن تخلى المكان أمام الشهادة المؤيدة التى يأتى بها التاريخ أو علم الآثار الشرقيين » . بمعنى آخر : إذا كان العلم مفيدًا فى توكيد رواية التوراة فلا بأس ، أما إذا دحضها فإن الرجوع إليه غير مقبول .

وللتوفيق بين ما لا يقبل التوفيق ، أى للتوفيق بين نظرية الحقيقة فى التوراة والطابع غير الصحيح لبعض الوقائع الواردة فى روايات العهد القديم ، اجتهد علماء اللاهوت المعاصرون فى مراجعة المفاهيم الكلاسيكية للحقيقة . ولكنا من إطار هذا الكتاب إذا ما قدمنا عرضًا تفصيليًا للاعتبارات الدقيقة التى تفيض فى دراستها

---

(١) مدخل إلى سفر التكوين ، ص ٣٥ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٣٤ .

مؤلفات تعالج الحقيقة فى التوراة كدراسة أ. لورتز O. Loretz (١٩٧٢) وعنوانها « ما هى حقيقة التوراة »[١] . وعلينا أن نكتفى بالإشارة إلى هذا الحكم الخاص بالعلم :

ويلاحظ المؤلف أن المجمع المسكونى للفاتيكان الثانى « قد حذر من إعطاء أى قواعد للتمييز بين الخطأ والحقيقة فى التوراة . وهناك اعتبارات أساسية تشير إلى الاستحالة هذه ، حيث إن الكنيسة لا تستطيع أن تتخذ قرارًا بصحة أو زيف المناهج العلمية بحيث تستطيع أن تحل مبدئيًا وبشكل عام مشكلة الكتاب المقدس » .

وواضح أن الكنيسة لا تستطيع أن تصدر حكمًا عن قيمة « منهج » علمى ما كأداة للوصول إلى المعرفة . والمقصود هنا شىء آخر تمامًا . فليس المقصود هو الجدل فى النظريات وإنما مناقشة أمور ثابتة فعلاً . أيحتاج المرء فى عصرنا لأن يكون حبرًا عظيمًا ليعرف أن العالم لم يخلق ، وأن الإنسان لم يظهر على الأرض منذ ٣٧ أو ٣٨ قرنًا ، وأن هذا التقدير المستنبط من الأنساب فى التوراة يمكن التأكيد بغلطه دون المخاطرة بالوقوع فى الخطأ .. ؟ إن الكاتب المذكور هنا لا يستطيع تجاهل هذا . إن دعاواه عن العلم لا تهدف إلا إلى تحريف المشكلة حتى لا يعالجها كما كان يجب عليه أن يفعل .

إن التذكير بكل هذه المواقف التى اتخذها الكتاب المسيحيون أمام الأخطاء العلمية فى نصوص التوراة توضح جيدًا الضيق الذى تجره ، وتوضح استحالة تعريف موقف منطقى آخر ، غير ذلك الذى يعترف بالأصل الإنسانى لهذه الأخطاء ، وباستحالة قبولها كجزء من تنزيل إلهى .

إن هذا الضيق الذى يسود الأوساط المسيحية ، والذى يمس التنزيل قد ظهر ترجمة له فى المجمع المسكونى للفاتيكان الثانى (١٩٦٢ - ١٩٦٥) حيث لم يلزم أقل من خمس صيغ حتى يتفق الجميع على النص النهائى بعد ثلاث سنوات من المناقشات ، وحتى «ينتهى هذا الوضع الأليم الذى هدد بتوريط المجمع » على حد تعبير الأسقف فيبر Weber فى مقدمته للوثيقة المسكونية الرابعة عن التنزيل .

---

(١) Editions du Centurion.

وهناك جملتان من هذه الوثيقة الخاصة بالعهد القديم (الفصل الرابع ، ص ٥٣) تشيران إلى شوائب وبطلان بعض النصوص ، وبشكل لا يسمح بأية معارضة ، تقول :

« بالنظر إلى الوضع الإنسانى السابق على الخلاص الذى وضعه المسيح ، تسمح أسفار العهد القديم للكل بمعرفة من هو الله ومن هو الإنسان بما لا يقل عن معرفة الطريقة التى يتصرف بها الله فى عدله ورحمته مع الإنسان . غير أن هذه الكتب تحتوى على شوائب وشىء من البطلان ، مع ذلك ففيها شهادة عن تعليم إلهى » .

ليس هناك إذن أحسن من كلمتى « الشوائب » و « البطلان » اللتين تنطبقان على بعض النصوص التى تسمح بالنقد بل بأن تهجر ؛ ومبدأ كهذا مقبول بشكل واضح .

إن هذا النص جزء من تصريح شامل صوت عليه نهائيًا بأغلبية ٢٣٤٤ صوتًا ضد ٦ أصوات ، لا يبدو أن هذا التصريح قد اكتسب هذه الأغلبية الساحقة الصورية . فالواقع أننا نجد فى تعليقات الوثيقة الرسمية التى وقعها الأسقف فيبر جملة تصحح بشكل واضح الدعوى ببطلان بعض النصوص التى يحتوى عليها الإعلان الرسمى للمجمع . تقول : « لاشك أن بعض أسفار التوراة اليهودية تحتوى على مرمى وقتى وبها شىء غير كامل » .

إن « البطلان » ، وذلك هو تعبير الإعلان الرسمى . لا يرادف « المرمى الوقتى » وهو تعبير المعلق ؛ وعندما يضيف المعلق بشكل غريب صفة « اليهودية » فإنه يوحى بأن النص المسكونى قد استطاع أن ينتقد فقط النسخة العبرية ، على حين أن ليس الأمر هكذا مطلقًا ، وأن العهد القديم هو الذى كان - فى هذا المجمع - موضع الحكم الخاص بشوائب وببطلان بعض أجزاء منه .

خاتمـــة

لا يجب النظر إلى كتب التوراة بزخرفتها بدعيًا بميزات نريد أن تتميز بها ، وإنما بأن ندرس موضوعيًا ما هى عليه . وذلك لا يتضمن فقط معرفة بالنصوص . بل يتضمن أيضًا معرفة بتاريخ النصوص . إن معرفة تاريخ النصوص تسمح - فى الواقع - بتكوين فكرة عن الظروف التى قادت إلى التعديلات النصية عبر القرون ، وإلى التكون البطئ لمجموعها كما نملكه اليوم بأجزاء متعددة محذوفة وأخرى مضافة .

إن هذه المعلومات تجعل ، معقولاً تمامًا ، الوجود فى العهد القديم روايات مختلفة عن موضوع واحد وأخطاء تاريخية وأمورًا متناقضة وأخرى غير معقولة أو يستحيل أن تتفق مع المعطيات العلمية الثابتة . إن استحالة الاتفاق مع المعطيات العلمية أمر طبيعى تمامًا فى كل المؤلفات الإنسانية القديمة . وكيف لا نجد مثل هذه التعارضات فى كتب كتبت فى ظروف كتلك التى تكون فيها نص التوراة ... ؟

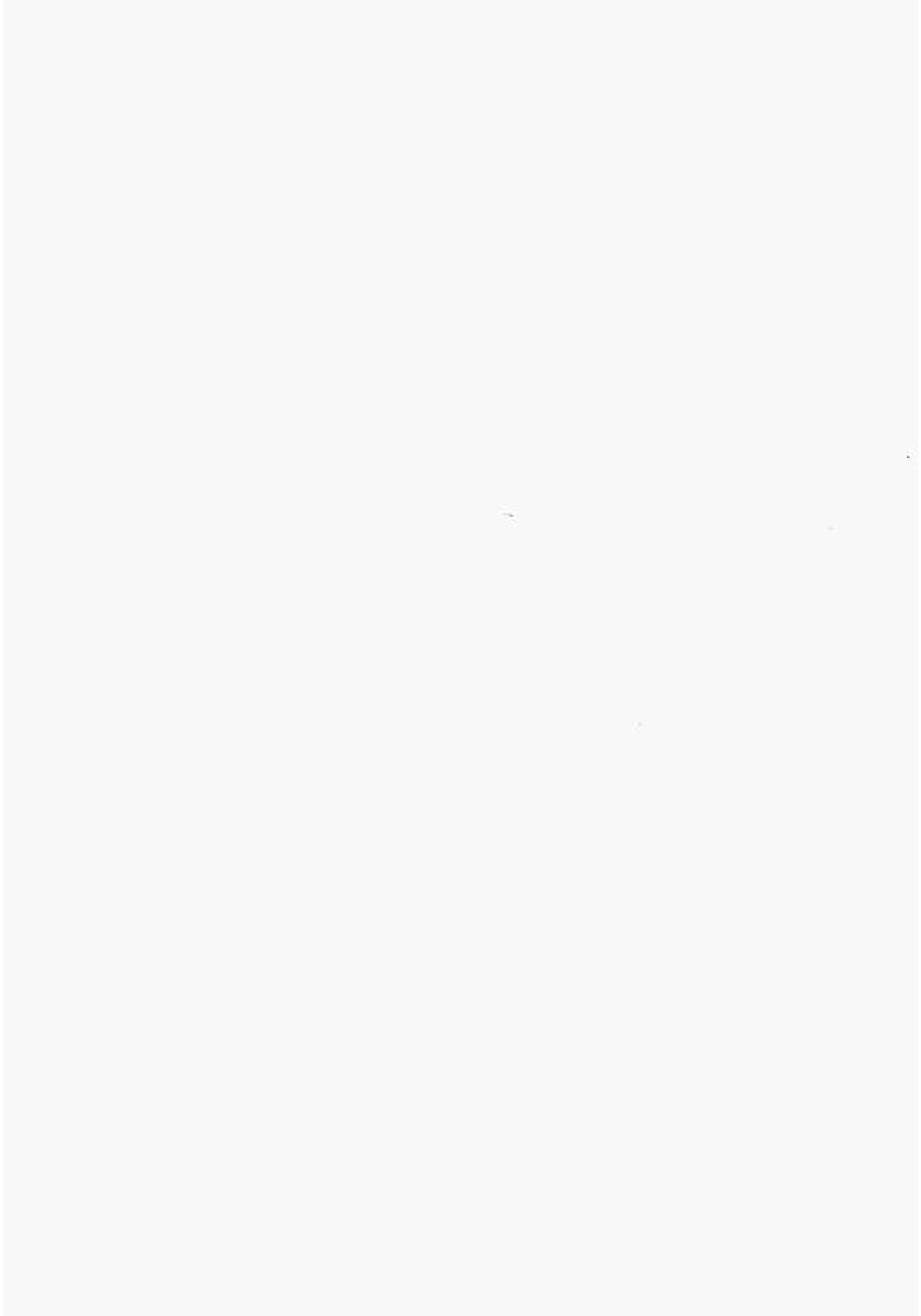
إن رجلاً يتمتع بإدراك سليم مثل القديس أوغسطين قد استطاع - حتى قبل أن تثير مسائل المشكلات العلمية نفسها فى عصر لم يكن ممكنًا الحكم فيه على أمور غير معقولة أو متناقضة - استطاع أن يطرح مبدأ استحالة أن يكون أصل الدعوى المناقضة للحقيقة إلهيًا : فالقديس أوغسطين كان يعتبر أن الله لا يمكن أن يعلم البشر بما لا يتفق والحقيقة . وكان على استعداد لأن يستبعد من أى نص مقدس ما كان يمكن أن يبدو له واجب الحذف لهذه الدوافع .

وفيما بعد - فى عصر أدرك فيه المفكرون استحالة اتفاق بعض فقرات التوراة مع المعارف الحديثة - فإنهم يرفضون اتباع موقف القديس أوغسطين . عندئذ شهدنا مولد الأدب الذى يهدف إلى تبرير الاحتفاظ - برغم أنف كل شيء - بنصوص لم يعد لها مكان فى التوراة .

إن المجمع المسكونى للفاتيكان الثانى (١٩٦٢-١٩٦٥) قد خفف بشدة من هذا التصلب . وذلك بإدخال تحفظ على « أسفار العهد القديم » التى « تحتوى على الشوائب وشىء من البطلان » . ترى هل يبقى هذا التحفظ مجرد تعبير عن نية طيبة أو سيتبعه تغير فى الموقف إزاء ما لم يعد القرن العشرون يقبله فى نصوص كانت تهدف أن تكون مجرد « شهادات عن تعليم إلهى حقيقى » وذلك خارج أى تعديل بشرى .

* * *

الأناجيل



مفتتــح

كثيرون من قراء الأناجيل يشعرون بالحرج . بل بالحيرة عندما يتأملون فى معنى بعض الروايات ، أو عندما يقارنون روايات مختلفة لحدث واحد مروى فى كثير من الأناجيل . تلك هى الملاحظة التى يقدمها الأب روجى فى كتابه. «مقدمة إلى الإنجيل[1]» . إن التجربة الثرية التى اكتسبها الكاتب ، حيث إنه كان لسنوات طويلة مكلفًا بالرد فى جريدة أسبوعية كاثوليكية على قراء الأناجيل الذين تحيرهم النصوص ، هذه التجربة قد سمحت له أن يدرك مدى أهمية الاضطراب الذى يشعر به قراء الأناجيل . ويلاحظ أن طلبات الشرح التى يبعث بها محدثوه - الذين ينتمون إلى أوساط اجتماعية وثقافية شديدة التنوع - تنصب على نصوص يراها القراء مبهمة غير مفهومة، بل حتى متناقضة أو فاضحة» . إذن ليس هناك شك فى أن قراءة النصوص الكاملة للأناجيل قادرة على إثارة اضطراب عميق لدى المسيحيين .

وهذه ملاحظة قريبة العهد : فقد نشر كتاب الأب روجى عام ١٩٧٣ . وفى عصور ليست بعيدة تمامًا كانت أغلبية المسيحيين لا تعرف من الأناجيل إلا مقاطع مختارة تقرأ عند القداس أو المواعظ . وإذا وضعنا حالة البروتستانت جانبًا ، فإنه لم تكن قراءة الأناجيل فى كليتها أمرًا سائدًا فيما عدا بعض المناسبات . إن كتب التعليم الدينى لم تكن تحتوى إلا على مقاطع مختارة من الأناجيل ، ولم يكن هناك تداول للنص بأكمله . وفى أثناء دراساتى الثانوية بإحدى المدارس الكاثوليكية وقعت يدى على مؤلفات لفرجيل وأفلاطون ، ولكن لم يحدث أبدًا أن وقعت يدى على العهد الجديد . ومع ذلك فالنص اليونانى للعهد الجديد كان يمكن أن يكون مفيدًا . وبعد ذلك بفترة طويلة أدركت لِمَ لم يعطنا مدرسونا واجبات ترجمة من الكتب المقدسة المسيحية . كان يمكن أن تقودنا هذه الكتب إلى أن نطرح على أساتذتنا أسئلة الرد عليها محرج .

---

(١) Editions du Seuil. 1973.

هذه المكتشفات التى ينتهى إليها امرؤ ذو روح نقدية عند قراءة الأناجيل بأكملها قد قادت الكنيسة إلى التداخل لمساعدة القراء للتغلب على حيرتهم .» كثير من المسيحيين يحتاجون إلى تعلّم قراءة الأناجيل » على حد قول الأب روجى . وسواء اختلف المرء أو اتفق مع التفاسير التى تعطى ، فإن جدارة الكاتب كبيرة حقًا فى مواجهة المشاكل الحرجة . ولكن مما يؤسف له أن الأمر ليس كذلك دائمًا فيما يختص بكثير من الكتابات الخاصة بالتنزيل المسيحى .

ففى منشورات التوراة الموجهة للانتشار الواسع نجد أن الملاحظات الأولية تعرض فى غالب الأحيان مجموعة من الاعتبارات تنحو إلى إقناع القارئ بأن الأناجيل لا تطرح بتاتًا مشاكل تتعلق بشخصية كتاب مختلف الأسفار ، وبصحة النصوص ، وبالطابع الحقيقى لهذه الروايات . وعلى حين توجد كثير من المجاهيل بالنسبة لكتاب لم نتأكد من هويتهم ، فإننا نجد كثيرًا من التحديدات فى هذا النوع من الملاحظات التى كثيرًا ما تقدم ما ليس إلا مجرد فرض على أمر يقينى ، مؤكدة أن هذا المبشر أو ذلك كان شاهدًا عيانًا لأحداث محددة على حين تدعى دراسات متخصصة عكس ذلك .

إن المسئولين يقللون بشكل مبالغ فيه الفترة الزمنية الواقعة بين نهاية رسالة المسيح وبين ظهور النصوص . يريدون إيهام الناس بوجود صيغة واحدة اعتمدت على تراث شفهى على حين أثبت المتخصصون أن هذه النصوص قد أصابتها تعديلات كثيرة ، ويتحدثون هنا وهناك عن بعض مصاعب التفسير ، ولكنهم يغضون النظر عن المتناقضات البينة التى تقفز إلى عينى من يتأمل . يلاحظ القارئ فى المعاجم الصغيرة الملحقة بالمقدمات المطمئنة أن الأمور غير المعقولة أو المتناقضات أو الأخطاء الصارخة كثيرًا ما تتجنب أو تخنق بحجج مديحية بارعة . وإنه لما يروع القارئ هذا الحال من الأمور الذى يبين بجلاء الطابع الخداع لهذه التعليقات .

إن الاعتبارات المدروسة هنا ستدهش - ولا شك - القراء الذين لم يحيطوا علمًا بعد بهذه المشكلات . ولذا وقبل أن ندخل فى صميم الموضوع ، آمل أن أوضح غرضى من الآن ، وذلك بمثال يبدو لى أنه يبرهن تمامًا على ما نقول .

لا متى ولا يوحنا يتحدثان عن صعود المسيح . أما لوقا فإنه يحدده بيوم القيامة فى إنجيله ، وبعد أربعين يومًا فى « أعمال الرسل » التى يقال إنه كاتبها . أما فيما يخص مرقس فإنه يشير إليه (دون تحديد تاريخه) ، وذلك فى خاتمة تعتبر حاليًا غير صحيحة . وعلى ذلك فليس للصعود أى قاعدة كتابية متينة . برغم ذلك فإن المعلقين يتعرضون لهذه المسألة الهامة باستخفاف لا يصدق .

إن أ. تريكو A. Tricot لا يكرس مقالاً عن الصعود فى « المعاجم الصغيرة للعهد الجديد » من الكتاب المقدس طبعة كرامبون Crampon ، وهو كتاب واسع الانتشار[1] أما طبعة الأناجيل الأربعة المتوافقة Synopse des Quatres Evangiles التى قام بها الأبوان بينوا وبوامار R.R.P.P. Benoit et Boismard ، الأستاذان بمدرسة الكتاب المقدس بالقدس[2] ، فإنها تعلمنا فى الجزء الثانى منها (ص ٤٥١ و ٤٥٢) أن التناقض ، عند لوقا ، بين إنجيلة و « أعمال الرسل » يرجع إلى « حيلة أدبية » . وليفهم من يفهم ... !

أما الأب روجى فإنه - على ما يبدو - لم يخضع لإغراء مثل هذه الحجة . ومع ذلك فأقل ما يمكن أن يقال عن التعليل الذى يعطينا إياه هو أنه فريد . يقول الأب روجى فى كتابه « مقدمة إلى الإنجيل » ، طبعة ١٩٧٣ (ص ١٨٧) : « إن المشكلة هنا ، كما فى كثير من المشاكل المشابهة ، لا تبدو غير قابلة للحل إلا إذا أخذ المرء بحرفية دعاوى الكتاب المقدس ونسى دلالتها الدينية . ليس المقصود هو حل واقع الأمور برمزية مائعة ، وإنما المقصود هو البحث عن النية الدينية لدى هؤلاء الذين يكشفون لنا الأسرار بتقديم أمور محسوسة وعلامات خاصة بالجذور المادية لعقلنا » .

كيف نكتفى بمثل هذا التفسير .. ؟ إن الصيغ المديحية من هذا النوع لا يمكن أن تصلح إلا للمؤمنين بلا قيد ولا شرط .

إن أهمية عبارة الأب روجى تمكن أيضًا فى اعترافه بوجود «حالات كثيرة مشابهة» لمسألة الصعود فى الأناجيل . وإذن فيجب التعرض للمشكلة بشكل شامل ومن جذورها

(١) Desclee et Cie. 1960..

(٢) Editions du Cerf. 1972.

وبمنتهى الموضوعية . يبدو أن من الحكمة إذن البحث عن توضيحات فى دراسة الظروف التى كتبت الأناجيل فى ظلها ، وفى دراسة المناخ الدينى الذى كان سائدًا فى ذلك العصر . إن توضيح التعديلات التى وقعت على الصيغ الأولى التى تمت بالاعتماد على التراث الشفهى ، وتوضيح التحريفات التى حدثت للنصوص إلى أن وصلت إلينا ، كل ذلك من شأنه أن يخفف من الشعور بالدهشة أمام عبارات مبهمة غير مفهومة ومتناقضة لا يدركها العقل ، بل قد تذهب فى بعض الأحيان إلى حد العبث واستحالة أن تتفق مع الوقائع التى أثبتها اليوم التقدم العلمى . مثل هذه الملاحظات تدل على مساهمة الإنسان فى عملية تحرير النصوص ، وعلى التعديل الذى أصابها بعد ذلك .

والأمر الواقع الآن هو أنه منذ عشرات من السنوات حدث اهتمام بدراسة الكتب المقدسة بروح بحث موضوعى . وفى كتاب ظهر منذ عهد قريب ، بعنوان « الإيمان بالقيامة وبعث الإيمان[1] Foi en la Resurrection, Re surrection de la foi يعطى الأب كانينجسر R.P. Kannengiesser الأستاذ بالمعهد الكاثوليكى بباريس ، لمحة عن هذا التغير العميق . يقول « يكاد شعب المؤمنين ألا يعرف بهذه الثورة التى حدثت فى مناهج تفسير التوراة منذ عصر بى الثانى عشر PiexII ١٩٣٩ - ١٩٥٨ » . إن « الثورة » التى يتحدث عنها المؤلف قريبة من عهدنا إذن . وقد بدأت امتداداتها تصل إلى تعليم المؤمنين ، يقوم بهذا على الأقل بعض المتخصصين الذين يحركهم روح التجديد . ويقول المؤلف أيضًا : « إن هذه الثورة فى مناهج التفسير تفتح الطريق بشكل يقل أو يكثر لانقلاب فى أرسخ رؤى تقليد الوعظ والإرشاد الكنسيين » .

ويحذر الأب كانينجسر من أنه « لم يعد واجبًا الأخذ بحرفية » الأحداث الواردة عن المسيح فى الأناجيل . فهى « كتابات ظرفية » أو « خصامية » .. « يذكر » كتابها «أقوال جماعة كل منهم عن المسيح ، وفيما يختص بقيامة المسيح ، وذلك هو موضوع

(١) Beauchesne, Collection «Le Point Theologique», 1974.

كتابه ، يشير الأب كانينجسر إلى استحالة أن يعطى أى كاتب من كتاب الأناجيل لنفسه صفة شاهد العيان . وهو بذلك يدع للفهم الضمنى أن بقية حياة المسيح العامة ، يبدو أن ينظر إليها بنفس الشكل ، حيث إنه ليس هناك أى حوارى - باستثناء يهوذا الأسخربوطى - قد انفصل عن السيد منذ اللحظة التى تبعه فيها حتى آخر أعماله على هذه الأرض .

ها نحن أولاء إذن بعيدون تمامًا عن المواقف التقليدية التى كان يؤكدها بالتبجيل مجمع الفاتيكان الثانى منذ عشر سنوات بالكاد ، والتى تستأنفها الكتب الحديثة الموجهة لعامة المؤمنين . ولكن الحقيقة تخرج إلى النور شيئًا فشيئًا .

وليس من السهل إدراكها . فثقيل حقًا وزن التقاليد الموروثة التى دوفع عنها بشراسة . وإذا أردنا أن نتحرر من هذا الثقل فيجب الأخذ بالمشكلة من القاعدة - أى أن ندرس أولاً الظروف التى سادت ميلاد المسيحية ..

تذكرة تاريخية

اليهودية - المسيحية وبولس

تعتقد غالبية من المسيحيين أن كتاب الأناجيل شهود عيان على حياة المسيح ، وأنهم بهذا قد أقاموا شهادات لا تقبل الجدل عن الأحداث التى وقعت فى حياته وتبشيره . فكيف يمكن للمؤمن ، عندما يواجه مثل ضمانات الصحة هذه ، أن يناقش المعلومات التى قد تخرج منها ؟ كيف يمكن للمؤمن أن يشك فى قيمة المؤسسة الكنسية التى نشأت بفضل تطبيق التوجيهات العامة التى أعطاها المسيح . إن طبعات الأناجيل الحالية الموجهة للعامة تحتوى على تعليقات تهدف إلى نشر هذه المعلومات بين الجمهور .

فالمسئولون عن هذه الطبعات يقدمون صفة شهود العيان من محررى الأناجيل باعتبارها أمرًا بديهيًا . ألم يكن القديس جوستين ، فى منتصف القرن الثانى ، يطلق على الأناجيل اسم « مذكرات الرسل » .. ؟ ثم إن التحديدات التى تعلن على الملأ ، والتى تخص المحررين هى من الكثرة بحيث إن المسيحى يتساءل : كيف يمكن الشك فى صحتها : على سبيل المثال يقال إن متى كان شخصية معروفة ، « كان موظفًا بمكتب الجمارك أو ضرائب المرور بكفر ناحوم » ، بل يقال أيضًا إنه كان يعرف الآرامية واليونانية . وأما مرقس فهويته معروفة تمامًا باعتباره مساعد بطرس : فلا شك إذن أنه كان شاهد العيان . وأما لوقا فهو هذا « الطبيب العزيز » الذى يتحدث بولس عنه ، والمعلومات عنه دقيقة جدًا ، وأما يوحنا فهو الرسول القريب دائمًا من المسيح وهو ابن زبيد ، الصياد ببحيرة كثروت (Genesareth) .

إن الدراسات الحديثة عن بدايات المسيحية تظهر أن هذه الطريقة فى تقديم الأمور لا تتفق مطلقًا مع الواقع . وسنرى فيما بعد ما يخص كتاب الأناجيل من هذا الأمر . أما فيما يتعلق بعشرات السنوات التى تلت رسالة المسيح فيجب على القارئ معرفة أن الأحداث لم تقع مطلقًا كما قيلت ، وأن وصول بطرس إلى روما لم يؤسس

مطلقًا الكنيسة . بل على العكس ، فبين اللحظة التى غادر فيها المسيح هذه الأرض ، وحتى منتصف القرن الثانى ، أى طيلة أكثر من قرن ، كانت هناك معركة بين اتجاهين : أى بين ما يمكن تسميته بالمسيحية البولسية وبين اليهودية - المسيحية . ولم يحل الاتجاه الأول محل الثانى ، ولم تنتصر البولسية على اليهودية - المسيحية إلا بشكل شديد التدرج .

وهناك عدد كبير من الدراسات التى تعود إلى العقود الأخيرة ، قد تأسست على مكتشفات عصرنا ، وهى التى سمحت بالوصول إلى هذه المعلومات الحديثة التى يرتبط بها اسم الكاردينال دانيلو Danieloou . إن المقال الذى نشره فى ديسمبر ١٩٦٧ بمجلة « دراسات «Etudes» » هو « رؤية جديدة للأصول المسيحية واليهودية - المسيحية » تستأنف الأبحاث السابقة . إنه يضع خطوط تاريخ المسيحية ، ويسمح لنا بتحديد ظهور الأناجيل ، وذلك فى سياق يختلف تمامًا عن ذلك الذى تقول به المعلومات الموجهة لعامة الجمهور . وسيجد القارئ فيما يلى تلخيصًا للنقاط الجوهرية لهذا المقال مع فقرات كبيرة منه .

كونت « مجموعة الحواريين الصغيرة بعد المسيح » طائفة يهودية تمارس ديانة المعبد وتحفظ تعاليمها . ومع ذلك فعندما تنضم إليها طائفة الذين أمنوا من الوثنيين فإنها تقترح عليهم - إن جاز القول - نظامًا خاصًا . إذ يحلهم مجمع القدس المسكونى (٤٩م) من الطهارة ، ومن تطبيق الأركان اليهودية ، ورفض كثير من اليهود - المسيحيين هذا التنازل . وانفصلت هذه المجموعة تمامًا عن بولس . بل أكثر من ذلك فقد اصطدم بولس واليهود - المسيحيون ، بسبب الذين أتوا إلى المسيحية (أحداث أنطاكية عام ٤٩م) « فالطهارة ، ومراعاة الراحة يوم السبت ، وديانة المعبد كانت أمورًا بالية ، فى نظر بولس ، حتى بالنسبة لليهود أنفسهم . فيجب على المسيحية أن تتحرر من انتمائها السياسى والدينى إلى اليهودية حتى تفتح ذراعيها لغير اليهود » .

أما اليهود - المسيحيون الذين ظلوا « يهودًا مخلصين » فإنهم يعتبرون بولس كخائن ، وتصفه وثائق يهودية - مسيحية « بالعدو » وتتهمه « بتواطؤ تكتيكى » . ولكن

«اليهودية- المسيحية كانت تمثل حتى عام ٧٠م غالبية الكنيسة» و « كان بولس منعزلاً » فى ذلك الوقت . وكاتن رئيس الجماعة جاك Jacques قريب المسيح . وكان معه (فى البداية) بطرس ثم يوحنا . « ويمكن اعتبار جاك Jacques كعمود اليهودية المسيحية الذى ظل ، عن إرادة ، ملتزمًا بخط اليهودية أمام المسيحية البولسية » . إن أسرة المسيح تحتل مكانة كبيرة فى هذه الكنيسة اليهودية المسيحية بالقدس . « وقد خلف سيمون Simwon جاكا Jacques وهو ابن كاليوبا ابن عم للمسيح » .

ويذكر الكاردينال دانيلو فى مقاله الكتابات اليهودية - المسيحية التى تقدم نظرات هذه الجماعة عن المسيح ، تلك الجماعة التى تكونت أولاً حول الحواريين . وهذه الكتابات هى إنجيل العبريين (الذى يعود إلى جماعة يهودية مسيحية مصرية) «ومأثورات كليمنت Hypotyposes de Clement » و « الفضائل الكليمنتية Reconnais-sances Clementines » و« نهاية العالم الثانية لجاك Seconde Apocalypse de Jacques » وإنجيل توما[1] Evangile de Thomas » « وكما يبدو فإنه من الواجب أن نعزو إلى هؤلاء اليهود - المسيحيين أقدم مخطوطات الأدب المسيحى » التى يشير إليها الكاردينال دانيلو بالتفصيل . يقول :

« لم تكن اليهودية - المسيحية سائدة فقط بالقدس وفلسطين طيلة القرن الأول للكنيسة . فقد تطورت البعثة اليهودية - المسيحية ، فيما يبدو ، فى كل مكان قبل البعثة البولسية . وذلك هو ما يوضح الإشارة الدائمة فى رسائل بولس إلى صراع ما » . إنهم نفس الأعداء الذين قابلهم حيثما ذهب ، بغلاطية ، وكورنتة وكولوس وروما وأنطاكية » .

كان الساحل السورى - الفلسطينى ، من غزة إلى أنطاكية ، يهوديًا مسيحيًا « كما تشهد بذلك أعمال الرسل والكتابات الكليمنتية » . وفى آسيا الصغرى. فوجود اليهود - المسيحيين ، تشهد به رسائل بولس إلى الغلاطيين والكلوسيين . أما كتابات بانياس فهى

(١) مما يجدر ملاحظته أن هذه الكتابات سيحكم عليها بأنها مزورة ، أى مستوجبة للإخفاء ، وقد فعلت هذا الكنيسة المنتصرة التى ولدت بانتصار بولس . ولقد قامت بعمليات قطع فى الأدب الإنجيلى ، ولم تحتفظ إلا بالأناجيل الأربعة القانونية .

تعطى معلومات عن اليهودية المسيحية بفريجى . وفيما يخص اليونان فتذكر رسالة بولس الأول إلى أهل كورنثوس اليهود المسيحيين وبابوللوس على وجه خاص . وتعد روما « مركزًا هامًا » حسب رسالة كليمنت وراعى هرمياس . ويرى سويتون Sue'tone وتاسيت Tasit أن المسيحيين يشكلون طائفة يهودية . ويعتقد الكاردينال دانيلو أن أول تبشير بالأناجيل فى إفريقيا كان يهوديًا - مسيحيًا . وإلى اليهودية المسيحية يعزى أيضًا إنجيل العبريين وكتابات كليمنت الإسكندرى .

إن معرفة هذه الوقائع أمر رئيسى حتى نفهم فى أى جو من الصراع بين الجماعات حررت الأناجيل . إن خروج النصوص التى نملكها اليوم إلى النور قد بدأت فى عام ٧٠م ، بعد تعديلات فى المصادر ، وهى الفترة التى كانت الجماعتان المتنافستان فى أوج صراعهما وكانت السيادة فى ذلك الوضع لليهود المسيحيين . ولكن الموقف اختلف تمامًا بسبب حرب السبعين وسقوط القدس . ويشرح الكاردينال دانيلو أسباب الانهيار كما يلى :

« لما كان اليهود منبوذين فى الإمبراطورية ، فقد نحا المسيحيون إلى الانفصلال عنهم ، عندئذ ساد المسيحيون الهلينستكيون : لقد حاز بولس على النصر بعد وفاته . بهذا انفصلت المسيحية اجتماعيًا وسياسيًا عن اليهودية لتكون ما يعرف بالشعب الثالث. برغم ذلك ، وحتى آخر التمرد اليهودى عام ١٤٠م كانت اليهودية المسيحية سائدة ثقافيًا » .

ومن عام ٧٠م وحتى فترة تحدد بما قبل عام ١١٠م نتجت أناجيل مرقس ومتى ولوقا ويوحنا . ولا تشكل هذه الأناجيل أولى الوثائق الثابتة فى المسيحية : فرسائل بولس سابقة عليها . وفى رأى أ. كولمان O. Culmann أن بولس قد كتب عام ٥٠م رسالته إلى أهل تسالونيكى . ولكن لاشك أنه كان قد مات منذ عدة سنوات عندما انتهى إنجيل مرقس .

وإذا كان بولس أكثر وجوه المسيحية موضعًا للنقاش ؛ وإذا كان قد اعتبر خائنًا لفكر المسيح ، كما وصفته بذلك أسرة المسيح والحواريون الذين بقوا بالقدس حول جاك

Jacques . فذلك لأنه قد كون المسيحية على حساب هؤلاء الذين جمعهم المسيح من حوله لنشر تعاليمه . ولما لم يكن قد عرف المسيح فى حياته فقد برر لشرعية رسالته بأن أكد أن المسيح بعد قيامته قد ظهر له على طريق دمشق . ومن المسموح به أن نتساءل : ما كان يمكن للمسيحية أن تكون عليه دون بولس ؟ ، ونستطيع فى هذا المقام أن نقيم افتراضات كثيرة . ولكن ، فيما يخص الأناجيل ، فليست هناك مجازفة كبيرة فى أنه لولا جو الصراع بين الطوائف التى ولدت بسبب انشقاق بولس ، لما حصلنا على الكتابات التى فى حوزتنا اليوم . إن هذه « الكتابات الخصامية » ، كما يصفها الأب كانينجسر ، قد ظهرت فى فترة صراع حاد بين الطائفتين ، وانبعثت من حشد كتابات عن المسيح . ففى هذا العصر شكلت المسيحية البولسية بعد نصرها النهائى مجموعة نصوصها الرسمية - أى « القانون Canon » الذى يستبعد كل الوثائق الأخرى التى لم تكن توافق الخط الذى اختارته الكنيسة ، ويعدها معاكسة للأورثوذكسية .

وبرغم أن اليهود - المسيحيين « قد اختفوا كطائفة ذات نفوذ ، فقد ظل الحديث عنهم جاريًا ، ولكن تحت اسم « المستهودين » Judaisants . ويتحدث الكاردينال دانيلو عن نهايتهم كما يلى :

« بانقطاع اليهود - المسيحيين عن الكنيسة الكبرى التى تحررت تدريجيًا من روابطها اليهودية سرعان ما فنوا فى الغرب . ولكن يمكن اقتفاء آثارهم من القرن الثالث إلى القرن الرابع بالشرق ، وخاصة فى فلسطين والجزيرة العربية ما وراء الأردن وسوريا ، وما بين النهرين . وقد امتص الإسلام بعضهم ، وهو جزئيًا وريث لهم ، وتحالف البعض الآخر مع أورثوذكسية الكنيسة الكبرى مع الاحتفاظ بخلفية ثقافية سامية . وهناك شىء منهم مازال متشبثًا بالكنيستين الأثيوبية والكلدانية » .

الأناجيل الأربعة

مصادرها - تاريخها

لا تشير أولى كتابات العصر المسيحى إلى الأناجيل إلا بعد مؤلفات بولس بفترة طويلة جدًا . فالشهادات المتعلقة بوجود مجموعة من الكتابات الإنجيلية تظهر فقط فى منتصف القرن الثانى ، وبالتحديد بعد عام ١٤٠م ، ذلك على حين أن هناك « كثيرًا من الكتاب المسيحيين يوحون بوضوح منذ بداية القرن الثانى بأنهم يعرفون عددًا كبيرًا من رسائل بولس » . وهذه الملاحظات التى تعرضها « المقدمة إلى الترجمة المسكونية للعهد الجديد » ، المنشورة عام ١٩٧٢[1] تستحق أن تذكر على الفور ، كما يفيد التنويه إلى أن هذه الترجمة هى نتيجة عمل جماعى تضافر له أكثر من مائة متخصص من الكاثوليك والبروتستانت .

إن الأناجيل التى أصبحت رسمية فيما بعد ، أى كنسية ، لم تعرف إلا فى عصر متأخر ، برغم أن تحريرها كان قد تم فى بداية القرن الثانى . وحسب الترجمة المسكونية ، فقد بدأ ذكر الروايات التى تنتمى إلى هذه الأناجيل فى نحو منتصف القرن الثانى ، ولكن « يكاد يكون عسيرًا التقرير بما إذا كانت هذه الاستشهادات قد تمت بعد الرجوع إلى النصوص المكتوبة ، التى كانت تحت يد الكتاب ، أو أنهم قد اكتفوا بذكر أجزاء من التراث الشفهى اعتمادًا على الذاكرة » .

وفى تعليقات هذه الترجمة المسكونية للعهد الجديد يقرأ القارئ « أنه لا توجد ، على أى حال ، أى شهادة تقول بوجود مجموعة من الكتابات الإنجيلية قبل عام ١٤٠م » . وهذه الدعوى تناقض تمامًا ما كتب أ. تريكو A. Tricot فى التعليقات على ترجمته للعهد الجديد يقول : « ومنذ وقت مبكر جدًا ، منذ بداية القرن الثانى ، استقر العرف على استخدام الكلمة « إنجيل » للإشارة إلى الكتب التى كان القديس جوستين ، فى نحو ١٥٠ ، يسميها أيضًا « مذكرات الرسل Memoires des Apotres » . ومما يؤسف له أن

(١) Editions du Cerf les Bergers et les Mages. Editeurs, Paris.

مثل هذه المزاعم تكررت كثيرًا بحيث إن عامة الجمهور لا تعرف إلا معلومات خاطئة عن التاريخ الذى تم فيه جمع الأناجيل .

إن الأناجيل لم تكن كلا واحدًا إلا بعد أكثر من قرن من انتهاء بعثة المسيح ، ولم يتم هذا فى وقت مبكر جدًا كما يقول . والترجمة المسكونية ترجع إلى عام ١٧٠م تقريبًا التاريخ الذى اكتسبت فيه الأناجيل الأربعة صفة الأدب الكنسى .

أيضًا فإن دعوى جوستين التى تصف كتاب الأناجيل بالرسل لم تعد مقبولة اليوم ، كما سنرى ذلك .

أما فيما يتعلق بتاريخ تحرير الأناجيل فيؤكد أ . تريكو أن أناجيل متى ومرقس ولوقا قد حررت قبل عام ٧٠م : وليس هذا مقبولاً ، ربما باستثناء إنجيل مرقس . إذن فهذا المعلق يحاول ، بعد معلقين آخرين ، أن يقدم محررى الأناجيل على أنهم رسل أو رفاق للمسيح ، وهو بهذا يقدم تواريخ التحرير إلى فترة تقارب كثيرًا فترة حياة المسيح . أما فيما يتعلق بيوحنا ، الذى جعله . تريكو يعيش إلى ما يقرب عام ١٠٠م . فقد اعتاد المسيحيون صورته التى تصوره دائمًا على قرب شديد من المسيح فى ظروف رسمية ، ولكن من العسير حقًا التأكيد بأنه كاتب الإنجيل الذى يحمل اسمه . إن الرسول يوحنا (مثل متى) ، فى نظر أ . تريكو ومعلقين آخرين ، هو الشاهد الكفء المعترف به على الأمور التى سردها ، على حين لا تتمسك غالبية المعلقين بالفرض القائل بأنه هو الذى حرر الإنجيل الرابع .

وإذا كان من العسير اعتبار هذه الأناجيل الأربعة « كمذكرات » لرسل أو رفاق المسيح فما هو أصلها إذن .. ؟

يقول أ . كولمان O. Culmann فى كتابه « العهد الجديد »[١] إن المبشرين لم يكونوا إلا « متحدثين باسم الجماعة المسيحية الأولى التى ثبتت التراث الشفهى . فقد بقى الإنجيل طيلة ثلاثين أو أربعين سنة فى شكله الشفهى فقط أو بالكاد ، ولكن التراث

(١) Les Presses Universitaires de France, 1967.

الشفهى قد نقل أساسًا أقوالاً وروايات منعزلة . وقد نسج المبشرون - كل على طريقته وبحسب شخصيته الخاصة واهتماماته اللاهوتية الخاصة - الروابط بين هذه الروايات والأقوال التى تلقوها من التراث السائد . إن تجميع أقوال المسيح وربط الروايات بصيغ أسلوبية غامضة مثل « وبعد هذا » « وما إن .. » إلخ ، وبالاختصار ، إطار الأناجيل المتوافقة[1] ، Evangiles Synoptiques كل هذا أدبى الطابع وليس له أساس تاريخى » .

ويستأنف هذا الكاتب نفسه : « ويجب ملاحظة أن احتياجات التبشير والتعليم والممارسة الدينية هى التى دعت الجماعة الأولى إلى تثبيت هذا التراث عن حياة المسيح بأكثر من اهتمامها بتسجيل حياة المسيح . كان الحواريون يوضحون حقائق الإيمان الذى يحضون عليه بسرد أحداث حياة المسيح . وإن مواعظهم هى التى خلقت ظروف تثبيت هذه الروايات . أما أقوال المسيح فقد انتقلت بشكل خاص عبر تعليم الكنيسة الأولى الدينى » .

ولا يذكر المعقلون على الترجمة المسكونية مراحل تكون الأناجيل بشكل آخر وهو ما يلى : تشكل تراث شفهى بتأثير تبشير تلامذة المسيح ومبشرين آخرين ، بقاء هذه العناصر التى نجدها أخيرًا فى الأناجيل بفضل التبشير والطقوس وتعاليم المؤمنين ، ثم إمكانية التجسيد المبكر فى سكل مكتوب لبعض تحديدات الإيمان ، ولبعض أقوال المسيح وروايات آلامه على سبيل المثال ، ثم استعانة المبشرين بهذه الأشكال المكتوبة المتنوعة كاستعانتهم بمعطيات التراث الشفهى حتى يكتبوا نصوصًا « تتكيف مع مختلف الأوساط ، وتستجيب لاحتياجات الكنائس ، وتعبر عن تأمل فى الكتاب المقدس ، وتصحح الأخطاء وترد بهذه المناسبة على حجج الخصوم . بهذا الشكل جمع ودون المبشرون ، كل بحسب وجهة نظره ، ما قد أعطتهم إياه الأقوال المتوارثة الشفهية » .

إن هذا الموقف الجماعى المتخذ الذى صدر عن أكثر من مائة مفسر للعهد الجديد كاثوليك وبروتستانت ، يختلف بشكل متميز عن الخط الذى عرفه المجمع المسكونى للفاتيكان الثانى فى دستوره العقائدى عن التنزيل ، هذا الدستور الذى أعد فيما بين

(١) أى أناجيل مرقس ومتى ولوقا .

١٩٦٢ و ١٩٦٥ . ووجد القارئ أعلاه إشارة أولى إلى وثيقة المجمع هذه التى تتعلق بالعهد القديم . لقد استطاع المجمع المسكونى أن يعلن بشأن العهد القديم أن الأسفار التى تكونه « تحتوى على شوائب وشيئًا من البطلان » ولكنه لم يضع أى تحفظات مثل هذه بالنسبة للأناجيل . بل بالعكس قالت الوثيقة ما يلى :

« لا يغفل على أى إنسان أن من بين كل الكتب المقدسة ، بل حتى كتب العهد الجديد ، كان هناك ما يتمتع - عن حق - بالامتياز مثل الأناجيل . باعتبار أنها تكون شهادة حقيقية عن حياة ودرس الكلمة المجسدة - أى منقذنا . فدائمًا وفى كل مكان حفظت الكنيسة - ومازالت - الأصل الرسولى للأناجيل الأربعة . والواقع أن ذلك هو الذى دعا إليه الرسل بأمر المسيح ، فقد نقلوا إلينا أنفسهم والناس الذين كانوا يحيطون بهم - وبتأثير من الوحى الإلهى للروح - كتابات هى أساس الإيمان ، ونعنى الإنجيل المربع حسب متى ومرقس ولوقا ويوحنا » .

« إن كنيستنا الأم المقدسة قالت وتقول بحزم وثبات دائمين : إن هذه الأناجيل الأربعة ، التى تؤكد تاريخيتها دون أى تردد ، تنقل بشكل أمين فعلاً أقوال وأفعال المسيح طيلة حياته بين البشر لخلاصهم الأبدى وإلى أن رفع إلى السماء .. إن الكتاب الدينيين إذن يؤلفون الأناجيل الأربعة بشكل يسمح بإعطائنا دائمًا عن المسيح أمورًا حقيقية ومخلصة » .

هذا إذن تأكيد بلا أدنى غموض بأمانة نقل الأناجيل لأفعال وأقوال المسيح .

وهنا لا يرى القارئ أى اتفاق بين دعوى المجمع المسكونى هذه ، ودعاوى الكتاب المذكورين أعلاه ، وعلى وجه خاص تلك التى تقول إنه : « لا يجب الأخذ بحرفية الأناجيل فهى كتابات ظرفية وخصامية حدد محرروها كتابة تراث جماعاتهم عن المسيح» (الأب كانينجسر - R. P. Kannengisser) .

الأناجيل إذن نصوص « تتكيف مع مختلف الأوساط وتستجيب لاحتياجات الكنائس ، وتعبر عن فكر ما عن الكتاب المقدس وتعدل من الأخطاء . بل ترد بهذا على

حجج الخصوم . وبهذا جمع المبشرون وحرروا ، كل حسب وجهة نظره الخاصة - ما أعطاهم إياه التراث الشفهى » (الترجمة المسكونية للعهد الجديد) .

وواضح تمامًا أن التصريح المسكونى ، وهذه المواقف التى اتخذت منذ عهد قريب يضعاننا بين دعاوى متناقضة . إذ لا يمكن التوفيق بين تصريح الفاتيكان الثانى الذى يقول : إننا نجد فى الأناجيل نقلاً أمينًا لأفعال وأقوال المسيح وبين وجود متناقضات فى هذه النصوص وأمور غير معقولة واستحالات مادية ودعاوى معاكسة لأمور تم التحقق من صحتها .

وعلى العكس من ذلك فإذا نظر القارئ إلى الأناجيل على أنها تعبير عن وجهات النظر الخاصة بجامعى التراث الشفهى المنتمى إلى مختلف الجماعات ، وإذا نظر إليها القارئ على أنها « كتابات ظرفية أو خصامية » ، فإنه لن يدهش عندما يجد فى الأناجيل كل هذه العيوب التى هى علامة صنع الإنسان فى مثل هذه الظروف . قد يكون جامعو النصوص هؤلاء مخلصين تمامًا - بالرغم من أنهم يسردون أمورًا لا يشكون فى عدم صحتها ، عندما يقدمون لنا روايات تتناقض مع روايات كتاب آخرين ، أو عندما يقدمون روايات عن حياة المسيح بحسب نظرة مختلفة تمامًا عن نظرة الخصم ، وذلك لأسباب تتعلق بالتنافس الدينى بين جماعة وأخرى .

وقد رأينا أن السياق التاريخى يتفق مع هذه الطريقة الأخيرة فى تصور الأناجيل . فالمعطيات التى تملك عن النصوص نفسها تدعم هذا كلية .

إنجيل متى

يحتل إنجيل متى بين الأناجيل الأربعة المكانة الأولى فى نظام ترتيب أسفار العهد الجديد . وهى مكانة لها ما يبررها . فهذا الإنجيل امتداد للعهد القديم بشكل ما : فقد كتب ليثبت أن المسيح « يكمل تاريخ إسرائيل » . يقول هذا المعلقون على الترجمة المسكونية ، وهى الترجمة التى سنستعير منها فقرات كبيرة . ولكى يحقق متى هذا الغرض فإنه يستشهد دائمًا بفقرات من العهد القديم تشير إلى أن المسيح يتصرف كالمسيح الذى ينتظره اليهود .

ويبدأ هذا الإنجيل بشجرة نسب المسيح[1] . ومتى يجعل المسيح ينتسب إلى إبراهيم عن طريق داود . وسنرى فيما بعد خطأ النص الذى يسكت عليه المعلقون عامة. وأيًا كان الأمر فقد كانت نية متى واضحة فى أن يعطى بنسب المسيح المعنى العام لكتابه. إن متى يتابع نفس هذه الفكرة ، وذلك بتوضيحه الدائم لموقف المسيح إزاء القانون اليهودى وسيادته العريضة من صلاة وصوم وزكاة .

فالمسيح يريد أن يوجه تعاليمه أولاً وأولويًا إلى شعبه . وهو يحدد رسالته بهذه الكيفية . يحدث الحواريين : « إلى طريق الوثنيين ، لا تمضوا ، وإلى مدينة للسامريين[2] لا تدخلوا . بل اذهبوا بالحرى إلى خراف بنى إسرائيل الضالة » . (متى. الإصحاح ١٠ الآيتان ٥ و٦) . « ولم أرسل إلى خراف بنى إسرائيل الضالة » . (متى . الإصحاح ١٥ الآية ٢٤) . وبشكل ثانوى فإن متى يمد فى خاتمة إنجيله إلى كل الأمم تبشير تلاميذ المسيح الأولين الاثنى عشر ، ويجعل المسيح يعطى الأمر التالى : «فاذهبوا وتلمذوا جمع الأمم» ، (متى الإصحاح ٢٨ - الآية ١٩) . ولكن الارتحال يجب أن يتم بأفضلية الذهاب نحو «بيت إسرائيل ، ويقول تريكو عن هذا الإنجيل ما يلى : «تحت يونانية الثوب يكمن الكتاب يهوديًا لحمًا وعظمًا وروحًا ، وهو يحمل آثار اليهودية بسماتها المميزة .

وهذه الاعتبارات وحدها تضع أصل إنجيل متى داخل الجماعة اليهودية المسيحية « والتى تحاول » ، على حد قول أ. كولمان ، « أن تقطع العلاقات التى كانت تربطها باليهودية مع الاحتفاظ فى نفس الوقت بخط مستمر مع العهد القديم . إن نقاط الأهمية والنبرة العامة لهذا الإنجيل توحى بوجود وضع متوتر » .

وربما كان هذا النص متصلاً بعوامل ذات صفة سياسية . فالاحتلال الرومانى لفلسطين يحمى بالطبع رغبة البلد المحتل فى وقوع الاستقلال ، ولذا فهو يدعو الله إلى

---

(١) سنناقش التناقض مع شجرة أنساب المسيح بأنجيل لوقا فى فصل خاص .

(٢) كان كتاب السامريين الدينى التوراة أو أسفار موسى الخمسة ، وكانوا ينتظرون مجئ المسيح ويخلصون لمعظم تعاليم اليهودية ، وإن كانوا قد بنوا معبدًا ينافس معبد القدس .

التدخل فى صالح الشعب الذى اختاره من بين كل الشعوب ، والذى هو ملكه الأكبر الذى يستطيع أن يأتى بعونه المباشر فى شئون البشر مثلما فعل ذلك مرات كثيرة عبر التاريخ.

ما هى شخصية متى .. ؟ لنقل صراحة إنه لم يعد مقبولاً اليوم القول إنه أحد حواريى المسيح . وبرغم ذلك يقدمه أ. تريكو على أنه كذلك فى تعليقه على ترجمة العهد الجديد (المنشورة عام ١٩٦٠) يقول :« اسمه متى ، واسمه قبل ذلك ليفى ، وكان عشارًا أو جابيًا بمكتب الجمارك أو ضرائب المرور بكفر ناحوم عندما دعاه المسيح ليجعل منه أحد تلامذته » . وذلك ما كان يعتقده آباء الكنيسة مثل أوريجين وجيرون وإبيفان . ولكن لم يعد أحد يعتقد هذا فى عصرنا . هناك نقطة لا جدال فيها وهى أن هذا الكاتب يهودى ، فمفردات كتابه فلسطينية ، أما التحرير فيونانى . ويقول أ. كولمان إن الكاتب ، أى متى ، يخاطب « أناسًا ، وإن كانوا يتحدثون اليونانية ، فإنهم يعرفون العادات اليهودية واللغة الآرامية » .

أما بالنسبة للمعلقين على الترجمة المسكونية فإن أصل هذا الإنجيل يبدو كما يلى:

« يقدر غالبًا أن إنجيل متى قد كتب بسوريا وربما بأنطاكية (...) أو بفينيقيا ، ففى هذه المناطق كان يعيش عدد كبير من اليهود[1] (...) وقد يمكن أن نستشف معركة فكرية ضد اليهودية المعبدية الأورثوذكسية الفريزية Pharisiens التى ظهرت بالمجمع الكنسى اليهودى بجامينا فى نحو عام ٨٠م . فى ظل هذه الظروف يكثر عدد الكتاب الذين يؤرخون للإنجيل الأول بما بين عامى ٨٠، ٩٠م أو ربما قبل ذلك بقليل ، ولا يمكن الوصول إلى يقين كامل فى هذا الموضوع . ولما كان اسم المؤلف غير معروف بالتحديد ، فالأنسب هو الاكتفاء ببعض الخطوط المرسومة فى إنجيل متى نفسه ومنها : إن الكاتب معروف بمهنته ، وإنه متبحر فى الكتب المقدسة والتراث اليهودى ، وإنه يعرف ويحترم

---

(١) تساءل البعض عما إذا كانت طائفة متى اليهودية - المسيحية تعيش بالإسكندرية إن أ. كولمان يذكر هذا الفرض من بين فروض أخرى .

رؤساء شعبه اليهود ، وإن أغلظ فى خطابه لهم ، كما أنه أستاذ فى فن التدريس ، وفى إفهام قول المسيح لمستمعيه مع تأكيده الدائم على النتائج العلمية لتعاليمه . وإنه يتفق جيدًا مع ملامح يهودى متأدب اعتنق المسيحية ، وهو معلم حاذق « يخرج من كنزه جديدًا وقديمًا » ، كما يشير إلى هذا إنجيله نفسه (الإصحاح ١٣ ، الآية ٥٢) . تلك صورة بعيدة كل البعد عن صورة الموظف البيروقراطى بكفر ناخحوم الذى يطلق عليه مرقس ولوقا اسم ليفى والذى أصبح واحدًا من حواريى المسيح الاثنى عشر ...

ويتفق الجميع على الاعتقاد بأن متى قد كتب إنجيله اعتمادًا على مصادر مشتركة بينه وبين مرقس ولوقا . ولكن روايته تختلف ، وفى نقاط جوهرية كما سنرى فيما يلى : ومع ذلك فقد استخدم متى بشكل واسع إنجيل مرقس الذى لم يكن أحد حواريى المسيح (أ. كولمان) .

يتصرف متى بحرية خطيرة مع النصوص . ويلاحظ ذلك بالنسبة للعهد القديم فيما يتعلق بنسب المسيح التى يضعها فى بداية إنجيله . وقد ألحق بكتابه روايات يستحيل بالدقة تصديقها . واستحالة التصديق تلك هى الصفة التى يستخدمها الأب كانينجسر فى كتابه المشار إليه عندما يتحدث عن رواية قيامة المسيح ، والمقصود بالتحديد هو الجزء الخاص بالحراس . فالكاتب يبرز عدم معقولية حكاية حراس القبر العسكريين « هؤلاء الجنود الوثنيون الذين يذهبون بتقريرهم ليس إلى رؤسائهم الوظيفيين ، وإنما يذهبون إلى كبار الكهنة الذين يرشونهم ليقولوا أكاذيب » . ومع ذلك فهو يضيف : « علينا أن نحاذر من السخرية ، ذلك أن نية متى نية جديرة بالإجلال . حيث يدخل بطريقته الخاصة إلى مؤلفه المكتوب معطية قديمة من التراث الشفهى . هذا إخراج تمثيلى جدير بفيلم كفيلم « المسيح نجمًا سينمائيًا – Jesus- Christ Super- star »[1] .

ولنذكر بأن هذا الحكم على متى صادر عن عالم لاهوتى مبرز ، وهو أستاذ بالمعهد الكاثوليكى بباريس .

---

(١) فيلم أمريكى يشوه تاريخ المسيح .

ويعطى متى مثالاً آخر على خياله الواسع فى سرده للأحداث التى تواكب موت المسيح . يقول :

« وإذا حجاب الهيكل قد انشق إلى اثنين من فوق إلى أسفل . والأرض تزلزلت والصخور تشققت . والقبور تفتحت وقام كثير من أجساد القديسين الراقدين . وخرجوا من القبور بعد قيامته[1] ودخلوا المدينة المقدسة وظهروا لكثيرين » .

ليس لهذه الفقرة من إنجيل متى (الإصحاح ٢٧ الآيات من٥١ إلى ٥٣) مثيل فى الأناجيل الأخرى . ولا نرى كيف استطاعت أجساد القديسين المعنيين أن تقوم عند موت المسيح (أى قبل يوم السبت كما تقول الأناجيل) وألا تخرج من قبورها إلا بعد قيامة عيسى (أى غداة السبت حسب نفس المصادر) .

وربما كان إنجيل متى هو الذى يحتوى على هذا القول الذى يتميز بعدم معقولية لا جدال فيها من بين كل الأقوال التى وضعها كتابها على لسان المسيح نفسه . يسرد متى حادثة آية يونس كما يلى : (الإصحاح ١٢ - الآيات من ٣٨ إلى ٤٠) .

المسيح بين قوم من الكتبة والفريسيين يخاطبونه بهذه الألفاظ : « يا معلم نريد أن نرى منك آية » . فأجابهم المسيح : « جيل شرير وفاسق يطلب آية ! ولا يعطى له آية أخرى إلا آية يونس النبى . لأنه كما كان يونس فى بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال هكذا يكون ابن الإنسان فى قلب الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال » .

المسيح يعلن أنه سيظل ببطن الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال . ولكن متى ، ومعه لوقا ومرقس ، يحددون موت ودفن المسيح بما قبل السبت بيوم ، وهذا بالتأكيد يجعل المكوث بالأرض ثلاثة أيام (يقول النص اليونانى Treis emeras) . لكن هذه الفترة الزمنية لا يمكن أن تحتوى إلا على ليلتين وليس ثلاث ليال (يقول النص اليونانى Treis nuktas)[2] .

---

(١) قيامة المسيح .

(٢) يشير متى مرة ثانية فى إنجيله إلى هذا الحدث ، ولكن دون تحديد زمنى (١٦-١-٤) ، ونفس الأمر بالنسبة للوقا (١١-٢٩-٣٢) ، أما بالنسبة لمرقس ، كما سنرى هذا فيما بعد . فإنه يدعى أن المسيح قد أعلن أنه لن يعطى لهذا الجيل أية آية (مرقس ٨-١١-١٢) .

المعلقون على الأناجيل يسكتون فى غالب الأحيان أمام هذا الحدث . ومع ذلك فالأب روجى يبرز هذا الأمر غير المعقول ، ويلاحظ أن المسيح « لم يبق بالقبر » إلا ثلاثة أيام (منها يوم كامل فقط) وليلتين . غير أنه يضيف قائلاً : « التعبير جامد ولا يدل على شىء آخر إلا ثلاثة أيام » ، وإنه لمما يحزن حقًا أن نلاحظ أن المعلقين ينزلون إلى استخدام مثل هذه الحجج التى لا تقول شيئًا إيجابيًا ، على حين يشفى العقل الإيحاء بأن مثل هذه الكبيرة ربما تكون قد صدرت عن أخطاء أحد نساخ النص .

وبالإضافة إلى هذه الأمور غير المعقولة فإن ما يتميز به إنجيل متى أولاً وقبل كل شىء هو أنه إنجيل طائفة يهودية - مسيحية بسبيل مخالفة اليهودية مع الاحتفاظ بخط العهد القديم ، ومن وجهة نظر تاريخ اليهودية المسيحية فلإنجيل متى أهمية كبرى .

إنجيل مرقس

إنه أقصر الأناجيل الأربعة . وهو أيضًا أقدمها . ولكنه ليس كتاب أحد الحواريين: هو على أكثر تقدير كتاب حرره تلميذ لأحد الحواريين .

وقد كتب أ . كولمان أنه لا يعتبر مرقس تلميذًا للمسيح . ومع ذلك فهو يشير إلى هؤلاء الذين قد يشكون فى انتساب هذا الإنجيل إلى مرقس « إن متى ولوقا يكونا ليستخدما هذا الإنجيل مثلما فعلا لو كانا لا يعرفان أنه مؤسس فعلاً على تعاليم أحد الحواريين » . لكن هذه حجة غير حاسمة . ويذكر أ . كولمان ، لتأكيد التحفظ الذى يدفع به ، الإشارات الكثيرة فى العهد الجديد التى تتحدث عن رجل اسمه « يوحنا ويلقب بمرقس » . ولكن هذه الفقرات لا تذكر مؤلف إنجيل ، وحتى نص مرقس نفسه لا يشير إلى أى مؤلف .

إن فقر المعلومات الخاصة بهذه النقطة قد قادت المعلقين إلى أن يأخذوا بتفاصيل تبدو وهمية على أنها عناصر ذات قيمة ومنها ما يلى : « فبحجة أن مرقس هو المبشر الوحيد الذى سرد فى روايته عن آلام المسيح حادثة شاب كان يلبس إزارًا على عريه

وترك الإزار وهرب عريانًا عندما شرع فى الإمساك به ، (مرقس الإصحاح ١٤ - الآيتان ٥١ و٥٢) ، استنتج البعض أن هذا الشاب قد يكون مرقس « التلميذ الأمين الذى يحاول أن يتبع السيد » (من الترجمة المسكونية) . وفى رأى آخرين يستطيع القارئ أن يرى هنا بسبب هذه الذكرى الشخصية علامة على الصحة وإمضاء مجهول » ... « يثبت أن صاحبه كان شاهدًا معاينًا » (أ. كولمان) .

ويرى هذا الكاتب « أن هناك كثيرًا من تراكيب الجمل تدعم الفرض القائل أن مؤلف هذا الإنجيل يهودى الأصل » ، ولكن وجود المناحى اللغوية اللاتينية قد يوحى بأنه قد كتب إنجيله من روما . « فهو بالإضافة إلى هذا يتوجه بالخطاب إلى مسيحيين لا يعيشون بفلسطين ، ويعتنى بشرح التعبيرات الآرامية التى يستخدمها فى حديثه إليهم » .

الواقع ، أن التراث قد أراد أن يرى فى مرقس رفيقًا لبطرس فى روما . وذلك اعتمادًا على نهاية رسالة بطرس الأولى (إذا ما كان هذا الأخير هو فعلاً كاتب هذه الرسالة) . ويقال إن بطرس قد كتب لمن وجه رسالته إليهم : « جماعة المختارين ببابل : نحييكم وكذلك مرقس أخى » . « بابل أو ربما روما » ... ذلك ما نقرأ فى التعليقات على الترجمة المسكونية ، ومن هنا يعتقد البعض أن من حقه استنتاج أن مرقس الذى كان مع بطرس بروما هو المبشر.. ترى أسبب من هذا النوع الذى دفع ببابياس Papias ، أسقف هيرا بولس فى نحو عام ١٥٠م ، إلى أن ينسب الإنجيل المقصود إلى مرقس الذى يقول عنه إنه كان « مترجمًا لبطرس » وإنه كان أيضًا مساعد بولس .. ؟

إن إنجيل مرقس ، من هذه الزاوية ، يكون قد تحرر بعد موت بطرس . أى على أكثر تقدير بين ٦٥م و٧٠م حسب الترجمة المسكونية ، وفى حوالى عام ٧٠م حسب أ. كولمان .

ويظهر النص نفسه عيبًا رئيسيًا أوليًا لا جدال فيه : لقد حرر دون أى اهتمام بالتعاقب الزمنى للأحداث . فهذا الإنجيل يضع فى بداية روايته (الإصحاح ١ - الآيات من ١٦ إلى ٢٠) حكاية الصيادين الأربعة الذين يدعوهم المسيح لأن يتبعوه قائلاً لهم

ببساطة « ستصيرون صيادي الناس » على حين أنهم لا يعرفونه . ويضاف إلى ذلك أن هذا المبشر يبرز افتقادًا كاملاً للمعقولية .

وكما يقول الأب روجى فإن مرقس كاتب غير حاذق وأكثر المبشرين ابتذالاً . فهو لا يعرف أبدًا كيف يحرر حكاية ، ويدعم المعلق ملاحظته بذكر فقرة تسرد تكون الاثنى عشر حواريًا . تقول هذه الفقرة حرفيًا :

« ثم صعد إلى الجبل ودعا الذين أرادهم فيذهبوا إليه . وأقام اثنى عشر ليكونوا معه ، وليرسلهم ليكرزوا ، ويكون لهم سلطان إخراج الشياطين . وجعل الاثنى عشر ، وفرض على سمعان اسم بطرس » (مرقس الإصحاح ٣ - الآيات من ١٣ إلى ١٦) .

إن إنجيل مرقس يتناقض مع إنجيلى متى ولوقا فيما يخص بعض الأحداث كما أشرنا أعلاه بمناسبة حكاية آية يونس . وأكثر من ذلك فبمناسبة الآيات التى يعطيها المسيح للبشر فى أثناء بعثته ، يسرد مرقس حكاية لم تعد قابلة للتصديق . يقول (الإصحاح ٨ - الآيتان ١١، ١٢) :

« فجاء الفريسيون وجعلوا يحاورون المسيح ، وليسوقوه إلى فخ طلبوا منه آية من السماء - تنهد المسيح بعمق وقال : « لماذا يطلب هذا الجيل آية ... ؟ الحق أقول لكم ، لن يعطى هذا الجيل آية » ثم تركهم وصعد إلى السفينة ليمضى إلى الضفة الأخرى » .

ولا شك فى أن هذا تأكيد ، من المسيح نفسه ، بأنه ليس فى نيته القيام بأى فعل قد يبدو غير طبيعى . وعليه فالمعلقون على الترجمة المسكونية ، عندما يتعجبون من إعلان لوقا بأن المسيح لن يعطى إلا آية واحدة ، آية يونس (انظر إنجيل متى) يحكمون فى الوقت نفسه بوجود « مفارقة » بين قول مرقس بأنه « لن يكون لهذا الجيل آية » وبين المعجزات التى يقدمها المسيح نفسه كآيات (إنجيل لوقا الإصحاح ٧ - الآية ٢٢ والإصحاح ١١ - الآية ٢٠) » .

وإذا كان إنجيل مرقس معترفًا به كلية كإنجيل كنسى . فإن هذا لا يقلل من أن الكتاب المحدثين يعدون خاتمته (الإصحاح ١٦ - الآيات من ٩ إلى ٢٠) كمؤلف مضاف . وتشير الترجمة المسكونية إلى هذا بشكل صريح .

وهذه الخاتمة غير موجودة فى أقدم مخطوطتين كاملتين للأناجيل المعروفتين باسمى Codex Sinaiticus, Codex Vaticanus اللذين يرجع تاريخهما إلى القرن الرابع . ويقول أ. كولمان فى هذا الشأن : « أضاف مخطوطات يونانية أقرب عهدًا ، وبعض نصوص أخرى إلى هذا الموضع خاتمة عن ظهور المسيح لا تنتسب إلى مرقس ، وإنما هى مستخرجة من أناجيل أخرى » . والواقع أن روايات هذه الخاتمة المضافة كثيرة . ففى النصوص نجد تارة رواية طويلة ، وتارة رواية قصيرة (وتحتوى الترجمة المسكونية على الروايتين) ، وتارة الرواية الطويلة مع حاشية ، وتارة أخرى الروايتين معًا .

ويعلق الأب كانينجسر على هذه الخاتمة بما يلى : « لابد أنه قد حدث حذف للآيات الأخيرة عند الاستقبال الرسمى (أو عند النشر على العامة) لكتاب مرقس فى الجماعة التى ضمنته . ولا متى ولا لوقا ، ولا يوحنا بالأحرى ، قد عرفوا هذا الجزء المفقود ، مع ذلك فقد كانت الفجوة لا تحتمل . وبعد ذلك بكثير ، وبعد أن جرت بين الأيدى الكتابات المتشابهة لمتى ولوقا ويوحنا تم توليف خاتمة محترمة لمرقس ، وذلك بالاستعانة بعناصر من هنا ومن هناك لدى المبشرين الآخرين . ومن السهل الاستدلال على قطع هذه الفزورة بالتفصيل - خاتمة مرقس (١٦ - من ٩ إلى ٢٠) . ذلك يسمح بتكوين فكرة مادية عن الحرية التى كانوا يعالجون بها النوع الأدبى الخاص بالحديث الإنجيلى حتى أعتاب القرن الثانى » .

يا له من اعتراف صريح بوجود التعديلات التى قام بها البشر على النصوص المقدسة ! يا له من اعتراف ذلك الذى تقدمه لنا تأملات هذا العالم اللاهوتى الكبير .... !

إنجيل لوقا

هو « كاتب حوليات » فى رأى أ. كولمان ، و « روائى حقيقى » فى نظر الأب كانينجسر . ينبهنا لوقا نفسه فى ديباجته الموجهة لثاوفيلس إلى أنه ، بعد الآخرين الذين أنشأوا قصصًا عن المسيح ، سينشئ بدوره حكاية عن نفس الأحداث مستخدمًا هذه القصص ومعلومات الشهود المعاينين - وذلك يعنى أنه ليس واحدًا منهم -

وبالإضافة إلى المعلومات الآتية من مواعظ الحواريين . المقصود إذن كتاب منهجى ، ويقدم لوقا له بما يلى : « إذا كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة فى الأحداث التى وقعت ، كما نقلها إلينا الذين كانوا منذ البدء شهودًا معاينين وخدامًا للكلمة ، رأيت أنا أيضًا ، إذ تتبعت كل شىء من الأول بتدقيق ، أن أكتب على التوالى إليك ، أيها العزيز ثاوفيلس . لتعرف صحة الكلام الذى علمت به » .

من السطور الأولى يستطيع القارئ أن يميز ما يفصل لوقا عن مرقس ، « هذا الكاتب الغث » الذى تحدثنا عن إنجيله . إن إنجيل لوقا عمل أدبى ، لا يجادل ، كتب بلغة يونانية كلاسيكية راقية ، تخلو من حوشى الكلام .

لوقا أديب وثنى آمن بالمسيحية ، واتجاهه بالنسبة إلى اليهود يتضح مباشرة ، وكما يشير أ . كولمان فإن لوقا يحذف من روايته أكثر الآيات اليهودية عند مرقس ، ويبرز كلمات المسيح فى مواجهة كفر اليهود ، وعلاقاته الطيبة مع السامريين الذين يمقتهم اليهود ، هذا على حين يقول متى فى إنجيله إن المسيح طلب إلى حوارييه أن يتجنبوا السامريين . وذلك مثال جلى بين أمثلة كثيرة على أن المبشرين ، يضعون على لسان المسيح ما يتناسب مع وجهات نظرهم الشخصية ، وهم يفعلون ذلك ولا شك باقتناع مخلص ، فإنهم يعطوننا عن أقوال المسيح الرواية التى تتكيف مع وجهات نظر الطوائف التى ينتمون إليها ، كيف يمكن إذن ، أمام أمور جلية كهذه ، إنكار أن الأناجيل ليست « كتابات خصامية » أو « ظرفية » كما قيل أعلاه ؟ إن المقارنة بين المنحى العام لإنجيل متى ولوقا يأتى ببرهان قاطع فى هذا الشأن .

من هو لوقا ؟ لقد أراد بعضهم التعرف على هويته فى شخصية الطبيب الذى يحمل اسم لوقا ، والذى يذكره بولس فى بعض رسائله . وتلاحظ الترجمة المسكونية أن « بعضهم قد رأى تأكيدًا لمهنة الطب التى كان المؤلف يمارسها ، وذلك بسبب دقة وصف المرض » . وهذا تقدير مبالغ فيه تمامًا . فلوقا لا يعطى « أوصافًا » من هذا النوع إذا شئنا الدقة ، « والمفردات التى يستخدمها هى مفردات أى إنسان مثقف فى هذا العصر». لقد كان هناك لوقا قد رافق بولس فى رحلاته . فهل هو نفس الشخص ؟ إن أ . كولمان يعتقد ذلك .

ويمكن تقدير تاريخ إنجيل لوقا بالنظر إلى عوامل عدة . فقد استعان لوقا بإنجيل مرقس ومتى . وكما تقول الترجمة المسكونية فيبدو أنه قد عايش حصار القدس وتدميرها تحت جيوش تيتوس عام ٧٠م . وعلى ذلك يكون هذا الإنجيل لاحقًا على ذلك التاريخ . ويحدد النقاد الحاليون غالبًا تاريخ تحريره بما بين ٨٠ - ٩٠م . ولكن هناك معلقين آخرين ينسبونه إلى تاريخ أكثر قدمًا .

وتحتوى شتى الروايات فى إنجيل لوقا على اختلافات هامة مع روايات سابقيه . ولقد أعطينا أعلاه لمحة . وتشير إليها الترجمة المسكونية فى صفحة ١٨١ وما يليها .

يذكر أ . كولمان ، فى كتابه « العهد الجديد » صفحة ١٨ ، روايات من إنجيل لوقا لا توجد فى الأناجيل الأخرى ، وليس المقصود نقاطًا تفصيلية .

إن الروايات عن طفولة المسيح فى إنجيل لوقا خاصة بهذا الإنجيل . فمتى يقص بشكل يختلف عن لوقا طفولة المسيح . أما مرقس فإنه لا يقول كلمة عنها .

ويعطى كل من متى ولوقا للمسيح أنسابًا مختلفة . والتناقض بينهما هام ، وعدم المعقولية كبيرة من وجهة النظر العلمية . بحيث يجدر تخصيص فصل خاص هنا لهذا الموضوع . وقد يمكن فهم أن متى لأنه يتوجه بخطابه لليهود ، يبدأ شجرة نسب المسيح بإبراهيم ويجعلها تمر بداود ، وإن لوقا ، وهو الوثنى الذى آمن بالمسيحية ، يهتم بأن يمد جذور هذه الشجرة إلى أبعد من ذلك . ولكن القارئ سيرى أن الاثنين يتناقضان ابتداء من داود .

ومن ناحية أخرى ، فإن رسالة المسيح مسرودة بشكل مختلف ، وفى نقاط كثيرة لدى كل من لوقا ومتى ومرقس .

إن تأسيس سر القربان المقدس، وهو حدث ذو أهمية رئيسية بالنسبة للمسيحيين، يخضع لتنوعات كثيرة من لوقا إلى المبشرين الآخرين . ويلاحظ الأب روجى فى كتابه «مقدمة إلى الإنجيل» (ص ٧٥) أن الكلمات التى يسوق بها إنجيل لوقا (الإصحاح ٢٢ - الآيات من ١٩ إلى ٢٤) سر القربان المقدس تختلف عن تلك التى نجدها فى إنجيل متى (الإصحاح ٢٦ - الآيات من ٢٦ إلى ٢٩) وفى إنجيل مرقس (الإصحاح ١٤ - الآيات

من ٢٢ إلى ٢٤) ، وهى متطابقة تقريبًا فى هذين الأخيرين . » وعلى العكس ، فالصيغة التى ينقلها لوقا تقارب كثيرًا تلك التى يذكرها بولس » (الرسالة الأولى إلى أهل كورنثة . (الإصحاح ١١ - الآيات من ٢٣ إلى ٢٥) .

إن لوقا ، كما رأينا ، فى إنجيله يصدر عن صعود المسيح قولاً يناقض ما يقول فى « أعمال الرسل » التى سلم المتخصصون بأنه كاتبها ، وهى جزء متمم للعهد الجديد . إنه يحدد فى إنجيله تاريخ صعود المسيح بيوم الفصح ، ويحدده فى « الأعمال » ببعد ذلك بأربعين يومًا . وإننا لنعرف إلى أى تعليقات غريبة قاد هذا التناقض المفسرين المسيحيين .

غير أن المعلقين الذين تهمهم الموضوعية مضطرون للاعتراف ، مثلما فعل المعلقون على الترجمة المسكونية عمومًا ، بأن « الاهتمام الأول (لدى لوقا) ليس هو وصف الأمور فى دقتها المادية ... » ، إن الأب كانينجسر يقارن روايات « أعمال الرسل » ، وهى من تأليف هذا اللوقا نفسه ، مع روايات أمور مماثلة عند بولس عن المسيح بعد قيامته ، ويقدم الرأى التالى عن لوقا : « لوقا هو أكثر كتاب الأناجيل الأربعة إرهافًا فى الحس ، وأكثرهم ميلاً للأدب ، إنه يتمتع بكل صفات الكاتب الروائى الحقيقى » .

إنجيل يوحنا

يختلف إنجيل يوحنا جيدًا عن الأناجيل الثلاثة الأخرى ، إلى درجة أن الأب روجى فى كتابه « مقدمة إلى الإنجيل » ، وبعد أن علق على الأناجيل الأخرى ، يعطى صورة معبرة عن هذا الإنجيل الرابع : « إنه عالم آخر » . والواقع أنه كتاب مختلف تمامًا : فهو يختلف فى ترتيب وفى اختيار الموضوعات والروايات والخطب ، وبه اختلافات أسلوبية وجغرافية ، وأخرى خاصة بالتعاقب الزمنى للأحداث . بل إنه يحتوى على اختلاف فى الآفاق اللاهوتية (أ. كولمان) . إن أقوال المسيح تساق بشكل مختلف لدى كل من يوحنا والمبشرين الآخرين : وينوه الأب روجى ، فى هذا الشأن ، إلى أنه على حين تسوق الأناجيل الثلاثة المتوافقة أقوال المسيح فى أسلوب « قارع ، يقارب كثيرًا الأسلوب الشفهى » فإن كل شىء يخضع عند يوحنا إلى التأمل ، إلى درجة « أننا نستطيع أن

نتساءل أحيانًا ما إذا كان المسيح هو الذى مازال يتحدث أم أن أقواله تمتط بشكل غير محسوس بتأثير تأملات هذا المبشر » .

من هو المؤلف ؟ المسألة موضع نقاش كثير ، وقد طرحت آراء شديدة التنوع فى هذا الشأن .

وينتمى أ . تريكو والأب روجى إلى هؤلاء الذين لا يغشاهم أى شك : فإنجيل يوحنا فى نظرهما هو كتاب لشاهد معاين ، والمؤلف هو يوحنا بن زبيدى وأخو جاك Jacques، هو المبشر الذى تعرف عنه تفاصيل كثيرة، وتعرض فى الكتب المبسطة المعممة . وتصوره الأيقونات الشعبية واقفًا بجوار المسيح مثلما كان عند العشاء الأخير قبل الآلام . فمن ذا الذى يتخيل أن إنجيل يوحنا ليس من مؤلف يوحنا الحواريى ذى الصورة المنتشرة إلى هذا الحد لدى العامة ؟

إن التحرير المتأخر جدًا لهذا الإنجيل الرابع لا يشكل حجة قاطعة ضد هذا الموقف الذى يتخذه البعض ، المعتقد أن الصيغة النهائية له قد حررت فى نحو نهاية القرن الأول .

إن تحديد تاريخها بستين عامًا بعد المسيح قد يكون أمرًا يتفق مع وجود حوارى كان صغير السن فى عصر المسيح ، وعاش ما يقارب قرنًا من الزمان .

إن الأب كانينجسر ، فى دراسته عن القيامة ، يصل إلى هذه النتيجة ، وهى أنه ليس هناك أى كاتب للعهد الجديد ، سوى بولس ، يستطيع أن ينسب لنفسه صفة كونه شاهدًا معاينًا لقيامه المسيح . وبرغم ذلك فيوحنا يقص ظهور المسيح بعد قيامته للحواريين وكأنه هو واحدًا منهم ، وكانوا مجتمعين باستثناء توما (الإصحاح ٢٠ – الآيات من ١٩ إلى ٢٤) ثم ظهوره مرة أخرى بعد ثمانية أيام للحواريين بكاملهم .

إن أ . كولمان لا يتخذ موقفًا خاصًا بهذا الموضوع فى كتابه « العهد الجديد » .

كما أن الترجمة المسكونية للكتاب المقدس . تحدد أن غالبية النقاد لا تأخذ بالفرض القائل بتحرير قام به يوحنا الحوارى ، وإن كان ذلك احتمالاً غير مستبعد برغم كل شىء . ولكن كل شىء يدفع للاعتقاد بأن النص المنشور حاليًا ينتمى إلى أكثر من

كاتب واحد : « فيحتمل أن الإنجيل ، بشكله الذى نملكه اليوم ، قد نشر بواسطة تلامذة المؤلف الذين أضافوا الإصحاح ٢١ كما أضافوا - ولا شك - بعض الحواشى (مثل ٤، ٢ وربما أيضًا ٤، ١، ٤، ٤٤، ٧، ٣٧ب ١١، ٢، ١٩، ٣٥) . أما فيمات يختص بالمرأة الزانية (الإصحاح ٧، ٥٣ إلى ٨، ١١) فالكل يتفق على الاعتراف بأن هذا نص مجهول الأصل، ألحق فيما بعد (وإن انتمى برغم ذلك إلى الكتاب المقدس المعترف به كنسيًا) » . إن الفقرة من ١٩، ٣٥ تبدو وكأنها « إمضاء لشاهد معاين» (أ. كولمان) وهو الإمضاء الوحيد الصريح فى كل إنجيل يوحنا ، ولكن المعلقين يعتقدون أنها فقرة مضافة ولاشك .

ويعتقد أ. كولمان أن الإضافات اللاحقة واضحة فى هذا الإنجيل : مثل الإصحاح ٢١ ، ويعتقد أنه من عمل « أحد التلاميذ ، وقد أضاف أيضًا بعض اللمسات إلى متن الإنجيل » .

ودون ذكر الافتراضات الأخرى التى قدمها المفسرون ، فالملاحظات الصادرة عن أبرز الكتاب المسيحيين ، والتى أوردناها هنا عن مشكلة مؤلف الإنجيل الرابع ، تشير ، هى وحدها ، إلى أننا مغمورون بالغموض والخلط فيما يتعلق بأبوة هذا الكتاب .

لقد كانت القيمة التاريخية لروايات يوحنا موضع نزاع كثير . فالأمور التى تتنافر مع الأناجيل الثلاثة الأخرى صارخة . ولكن أ. كولمان يعللها : فهو يعترف بأن ليوحنا مرامى لاهوتية تختلف عن مرامى المبشرين الآخرين . وهذه الأغراض هى التى « تقود اختيارات روايات أقوال المسيح Logia ، كما تقود الطريقة التى نقلت بها هذه الأقوال . وهكذا كثيرًا ما يمط السطور ، ويضع على لسان المسيح ما أنزله عليه الروح القدس نفسه » . ذلك هو سبب عدم الاتفاق مع الأناجيل الأخرى فى رأى هذا المفسر .

ولا شك أنه من المعقول أن يوحنا ، وقد شرع فى الكتابة بعد المبشرين الآخرين ، كان يستطيع أن يختار بعض الروايات التى تصور دعاواه بشكل أوضح ، وإننا لا يجب أن ندهش عندما لا نجد فى إنجيل يوحنا كل ما تحتوى عليه الروايات الأخرى . والترجمة المسكونية تذكر عددًا معينًا من حالات من هذا النوع (ص ٢٨٢) . ولكن أكثر ما يثير الدهشة هو بعض الثغرات . فبعضها معقول بالكاد ، كتلك التى تخص رواية تأسيس

القربان المقدس . إذ كيف يمكن تصور أن يوحنا ، وهو المبشر المفكر المتأمل بكل معنى الكلمة ، لا يتحدث عن الحدث الرئيسى فى المسيحية ، والذى سيصبح ركنًا من أهم أركان الطقوس الكنسية أى القداس ؟ الحادث فعلاً أن يوحنا يكتفى فقط ، فى سرده لهذا العشاء الذى يسبق الآلام ، بوصف غسل أقدام الحواريين والتنبؤ بخيانة يهوذا الأسخريوطى ، وبإنكار بطرس .

وعلى العكس من هذا أيضًا . ففى إنجيل يوحنا روايات غير واردة فى الأناجيل الأخرى ، والترجمة المسكونية تشير إليها ص ٢٨٣ . ورب قائل لأن الثلاثة الآخرين لم يروا فى بعض الأحداث الأهمية التى ميزها يوحنا . ولكن كيف لا ندهش عندما نجد فى إنجيل يوحنا رواية عن ظهورا المسيح لتلامذته على بحيرة طبرية بعد أن قام من الأموات (يوحنا الإصحاح ٢١ : الآيات من ١ إلى ١٤) وليست هذه الرواية إلا نقلاً مع كثير من التفاصيل الإضافية لمعجزة الصيد التى حكاها لوقا (الإصحاح ٥ : الآيات من ١ إلى ١١) كحادثة وقعت فى حياة المسيح . ويشير لوقا فى روايته إلى وجود يوحنا الرسول ، والذى هو المبشر كما يقول التراث . وإن انتماء هذه الرواية من إنجيل يوحنا إلى الإصحاح ٢١ - الذى يتفق الجميع على أنه إضافة لاحقة - يسهل علينا تصور أن ذكر اسم يوحنا فى رواية لوقا قد دفع المؤلف إلى ضم اسم يوحنا بشكل مصطنع إلى الإنجيل الرابع : ولهذا الغرض لم يتردد معدل النص الإنجيلى فى تحويل حدث وقع فى حياة المسيح إلى رواية حدثت بعد حياته !

هناك أيضًا اختلافات على جانب كبير من الأهمية بين إنجيل يوحنا والأناجيل الأخرى ، وهو اختلاف خاص بالفترة الزمنية لبعثة المسيح . إذ يحددها مرقس ومتى ولوقا بعام واحد . أما بالنسبة ليوحنا فهى تمتد على الأكثر من عامين . ويشير أ. كولمان إلى هذا الأمر . وأما الترجمة المسكونية فهى تصرح عن هذا الموضوع بما يلى :

« على حين تحدثنا الأناجيل الثلاثة المتوافقة عن فترة طويلة بالجليل تتبعها مسيرة نحو الناصرة Judee تمتد قليلاً أو قد تقصر ثم يليها أخيرًا المكوث فترة قصيرة بالقدس . فإن يوحنا - على العكس - يسرد انتقالات عدة للمسيح من منطقة إلى أخرى

ويتحدث عن مكوثه فترة طويلة بأرض الناصرة Judee وبالقدس على وجه خاص (١-٩: ٥١ ؛ ٢-١٣ إل ٢-٣٦ ؛ ٥-١: ٤٧؛ ١٤-٢٠ : ٣١) ويشير إلى احتفالات فصحية متعددة (٢-١٣ ؛ ٥-١؛ ٦-٤؛ ١١-٥٥) وهو بهذا يوحى بأن بعثة المسيح قد دامت أكثر من عامين» .

إذن فمن يجب أن يصدق ؟ أنصدق متى أم مرقس أم لوقا أم يوحنا ؟

مصادر الأناجيل

إن اللمحة العامة التى أعطيناها عن الأناجيل والتى استخرجناها من الدراسة النقدية للنصوص تقود إلى اكتساب مفهوم أدب « مفكك تفتقر خطته إلى الاستمرار » و« تبدو تناقضاته غير قابلة للحل » كما تقول ألفاظ الحكم الذى أصدره المعلقون على الترجمة المسكونية للكتاب المقدس الذين يهمنا الرجوع إلى سلطتهم، حيث إن التقديرات فى هذا الموضوع تؤدى إلى نتائج بالغة الخطورة . ولقد رأينا أن بعض المعلومات عن التاريخ الدينى المعاصر لميلاد الأناجيل تستطيع أن توضح بعض سمات هذا الأدب الذى يبلبل القارئ المتأمل . ولكن يجب الذهاب إلى أبعد من هذا ، كما يجب البحث عما يمكن أن تعلمنا به الدراسات المنشورة فى العصر الحديث عن المصادر التى نَهَلَ منها المبشرون لتحرير نصوصهم ، كما يهم أيضًا دراسة ما إذا كان تاريخ النصوص بعد استقرارها قادرًا على شرح بعض الصفات التى تقدمها فى عصرنا .

لقد تصدى آباء الكنيسة فى عصرهم لمشكلة المصادر بطريقة ساذجة . ففى القرون الأولى من العصر المسيحى لم يكن المصدر إلا الإنجيل الذى تضعه المخطوطات الكاملة على رأسها أى إنجيل متى فقط . وكانت مشكلة المصادر تطرح إزاء إنجيل مرقس ولوقا . حيث كان إنجيل يوحنا يشكل حالة منفصلة : كان القديس أوغسطين بعد إنجيل مرقس . وهو الإنجيل الثانى فى الترتيب التقليدى لتقديم الأناجيل ، مستلهمًا من إنجيبل متى ، وإنه قد لخصه ، وإن إنجيل لوقا ، وهو الثالث فى ترتيب المخطوطات المؤلفة ، قد استعان بمعطيات كل من الأول والثانى : وتوحى بذلك فاتحته التى تحدثنا عنها أعلاه .

كان مفسرو هذا العصر يستطيعون مثلنا أن يقيموا درجة اتفاق النصوص ، وأن يجدوا عددًا كبيرًا من الآيات المشتركة بين اثنين أو ثلاثة من مخطوطات الأناجيل المتوافقة . وفى عصرنا يحسب المعلقون على الترجمة المسكونية عدد هذه الآيات تقريبًا كما يلى :

آيات مشتركة بين ثلاث أناجيل : متى ومرقس ولوقا ٣٣٠ .

آيات مشتركة بين إنجيلى مرقس ومتى ١٧٨ .

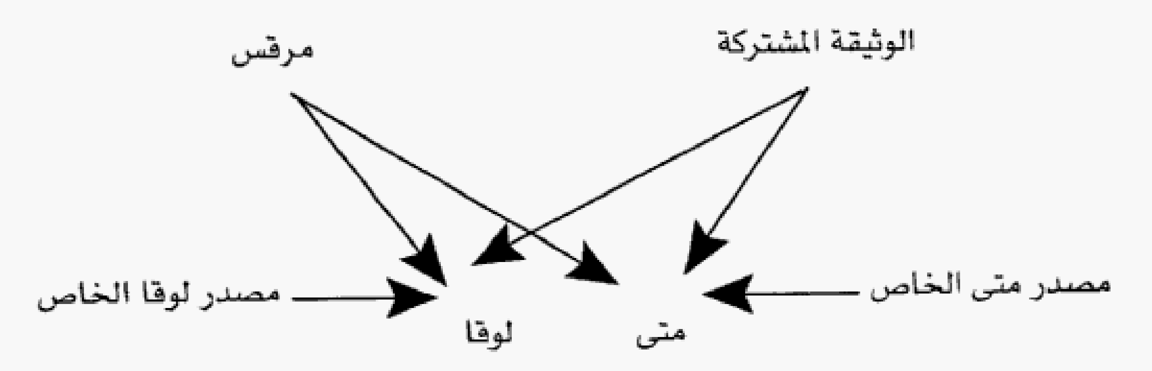
آيات مشتركة بين إنجيلى مرقس ولوقا ١٠٠ .

آيات مشتركة بين إنجيلى متى ولوقا ٢٣٠ .

هذا . وعلى حين أن الآيات الخاصة بكل من المبشرين الثلاثة الأولين هى: ٣٣٠ آية بالنسبة لمتى . و٥٣ آية بالنسبة لمرقس و٥٠٠ آية بالنسبة للوقا .

ومن عصر آباء الكنيسة وحتى نهاية القرن الثامن عشر ، مر ألف وخمسمائة عام دون إثارة أى مشكلة جديدة ، مهما كانت ، عن مصادر المبشرين : كان هناك امتثال للتراث . وفى العصر الحديث فقط ، وأمام هذه المعطيات أدرك البعض أن كل مبشر قد أنشأ رواية على طريقته الخاصة ، وحسب وجهات نظره الشخصية مع الاعتماد على المعلومات التى وجدها عند الآخرين . عندئذ علق الباحثون أهمية كبيرة على جمع مواد الرواية فى التراث الشفهى للطوائف الأصلية من ناحية ، وفى مصدر مكتوب أرامى مشترك لم يعثر عليه من ناحية أخرى . وقد كان يمكن لهذا المصدر المكتوب أن يشكل كتلة صماء ، أو أن يتكون من مقتطفات كثيرة لروايات شتى ، ربما تكون قد خدمت كل مبشر فى تشييد نصه الأصلى .

ومنذ قرن تقريبًا ، قادت أبحاث أكثر تعمقًا إلى نظريات أكثر دقة ازدادات تعقدًا بمرور الزمن . وأول هذه النظريات الحديثة هى النظرية المسماة « بمصدرى هولتزمان » Holtzmann (١٨٦٣) . وحسب هذه النظرية . كما يحدد أ . كولمان والترجمة المسكونية ، فإن متى ولوقا قد استلهما مرقس من ناحية ، ووثيقة مشتركة مفقودة اليوم من ناحية أخرى . يضاف إلى هذا أن كلاً من المبشرين الأولين كان يملك تحت حوزته مصدرًا خاصًا : وقد أدى هذا إلى الرسم البيانى التالى :



وينتقد أ . كولمان هذا البيان فيما يتعلق بالنقاط التالية :

١ - ليس مؤلف مرقس الذى استخدمه لوقا ومتى هو إنجيل مرقس . إنما هو مؤلف سابق على مرقس .

٢ - لا يعطى هذا أهمية كافية للتراث الشفهى ، ويبدو أنه رئيسى . لأنه - وهو وحده قد حفظ طيلة ثلاثين أو أربعين سنة أقوال المسيح والروايات الخاصة ببعثته . وحيث إن كل مبشر لم يكن إلا المتحدث باسم الطائفة المسيحية التى ثبتت التراث الشفهى .

بهذا نصل إلى فكرة أن الأناجيل ، كما هى فى حوزتنا اليوم ، قد أعطت صدى لما كانت الطوائف المسيحية البدائية تعرف عن حياة ورسالة المسيح ولمعتقداتهم ومفاهيمهم اللاهوتية التى تحدث المبشرون باسمها .

أما أحدث أبحاث نقد النصوص الخاصة بمصادر الأناجيل فقد أوضحت وجود عملية أكثر تعقيدًا من شكل النصوص . إذ تنوه طبعة الأناجيل الأربعة المتوافقة Synopse des quatre Evangiles ، وهى للأبوين بينوا وبومار R.R.P.P. Benoit et Boismard . الأستاذين بمعهد الكتاب المقدس بالقدس (١٩٧٢-١٩٧٣) ، تنوه بشكل خاص إلى تطور النصوص على مراحل متعددة بالتوازى مع تطور للتراث ، ويجر هذا إلى نتائج يعرضها الأب بينوا بهذه الألفاظ فى تقديمه للجزء الذى قام به الأب بومار من الكتاب المشار إليه .

يقول : « (....) إن أشكال الأقوال أو الروايات الناتجة عن تطور طويل للتراث لا تتمتع بنفس صحة الأقوال أو الروايات الموجودة أصلاً . وقد يدهش بعض قراء هذا الكتاب ، أو قد يشعر بالحرج عندما يعلم أن هذا القول للمسيح أو هذا المثل أو ذاك التصريح بمصيره لم تقل مثلما نقرأ اليوم ، وأن هؤلاء الذين نقلوا هذا إلينا قد أجروا عليه لمسات وتعديلات . إن هؤلاء الذين لم يعتادوا هذا النوع من البحث التاريخى يجدون هنا مصدرًا ممكنًا للاندهاش . بل حتى للاستنكار » .

إن هذه اللمسات وتلك التعديلات ، التى مارسها هؤلاء الذين نقلوا إلينا النصوص قد أنجزت بطريقة يعطينا الأب بومار عنها رسمًا بيانيًا شديد التعقيد هو بسط للنظرية المسماة بنظرية المصدرين . وقد وضع هذا الرسم بعد عمل من الفحص ومن مقارنة النصوص يستحيل تلخيصه . وإذا أراد القارئ المهتم الحصول على تفاصيل أكثر فعلية أن يرجع إلى الكتاب الأصلى ، وقد نشر بباريس بدار نشر Editions du Cerf .

هناك أربع وثائق أساسية هى أ، ب، ج، ق تمثل المصادر الأصلية للأناجيل (انظر الرسم البيانى العام) .

الوثيقة أ وثيقة نبعت من أوساط يهودية - مسيحية ، وقد ألهمت متى ومرقس .

الوثيقة (ب) هى إعادة تفسير للوثيقة أ ، استخدمتها الكنائس الوثنية - المسيحية: وقد ألهمت كل المبشرين ما عدا متى .

الوثيقة ج ألهمت مرقسًا ولوقًا ويوحنا .

الوثيقة ق تكون معظم المصادر الشائعة بين متى ولوقا ، إنها « الوثيقة المشتركة » فى نظرية المصدرين المشار إليها أعلاه .

لم تؤد وثيقة من هذه الوثائق الأساسية إلى تحرير النصوص النهائية التى فى حوزتنا . فبينها وبين التحرير النهائى توجد تآليف وسيطة خاصة بكل إنجيل[1] وتلك الوثائق الأربع الوسيطة هى التى أدت إلى الصيغ النهائية للأناجيل الأربعة ، وفى نفس

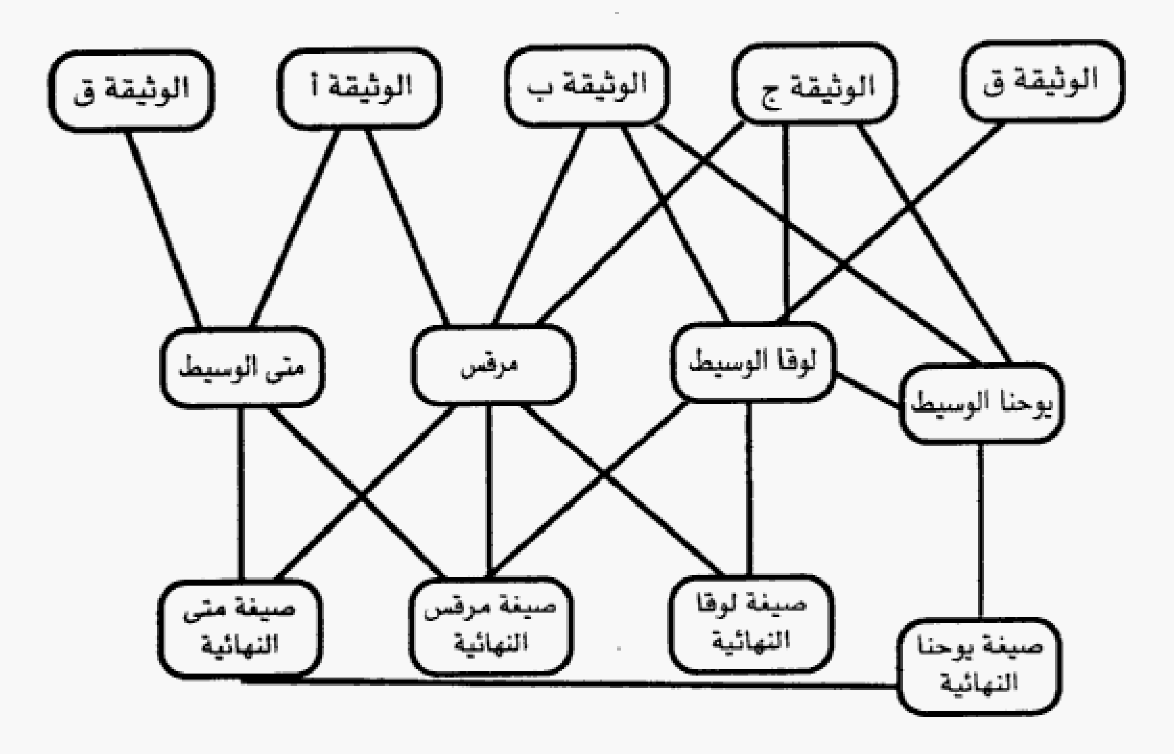
---

(٢) تختلف أسماء هذه الصيغ فى اللغة الفرنسية . وحتى نكون أكثر وضوحًا فإننا نعطيها اسمًا مماثلاً هو : « وسيط » .

الوقت ألهمت الصيغ النهائية المناظرة والمطابقة لصيغ أناجيل أخرى . ولابد من الرجوع إلى الرسم البيانى العام حتى يمكن إدراك الشبكات المعقدة التى يضعها المؤلف .

إن نتائج هذا البحث الخاص بالكتاب المقدس على أهمية بالغة . فهى تثبت أن نصوص الأناجيل ، التى لها تاريخ (وسيعالج هذا فى فصل لاحق) ، تتمتع أيضًا ، حسب تعبير الأب بومار ، « بتاريخ ما قبل التاريخ » ، أى أنها قد خضعت قبل ظهور الصيغ النهائية لتعديلات ، وذلك فى مرحلة الوثائق الوسيطة . بهذا يتضح - على سبيل المثال - أن حكاية معروفة جيدًا وقعت فى حياة المسيح ، حكاية معجزة الصيد ، تقدم ، كما رأينا فى إنجيل لوقا - بعتبارها حدثًا وقع فى حياة المسيح ، على حين يقدمها يوحنا كحادثة من حوادث ظهوره بعد قيامته .

أ. بومار
الأناجيل الأربعة المتوافقة
الرسم البيانى العام بتصرف



الوثيقة أ ، ب ، ج ، ق : الوثيقة الأساسية التى استخدمت فى الصياغة النهائية .

الوسيط : الصياغة الوسيطة .

ونتيجة كل هذا أننا لم نعد متأكدين مطلقًا من أننا نتلقى كلمة المسيح بقراءة الإنجيل . والأب بينوا يتوجه لقارئ الإنجيل ويحذره من هذا ، ويقدم تعويضًا قائلاً : «إذا كان عليه أن يتخلى فى أكثر من حالة عن سماع صوت المسيح المباشر فإنه يسمع صوت الكنيسة ويركن إليها ركونه لمفسر خول إليه أن يفسر السيد الذى يحدثنا اليوم فى مجده بعد أن تحدث على أرضنا » .

كيف يمكن التوفيق بين هذه الملاحظة الصريحة عن عدم صحة بعض النصوص وبين عبارة الدستور العقائدى عن التنزيل الإلهى التى صوت عليها مجمع الفاتيكان الثانى . وهذا يؤكد لنا ، على العكس ، بأمانة نقل أقوال المسيح . تقول هذه العبارة : «هذه الأناجيل الأربعة التى تؤكد (الكنيسة) تاريخيتها دون تردد ، تنقل بشكل أمين فعلاً أقوال وأفعال المسيح ، ابن الله ، طيلة حياته بين البشر لخلاصهم الأبدى وإلى أن رفع إلى السماء » .

ويظهر بوضوح تام أن عمل مدرسة الكتاب المقدس بالقدس يأتى إلى دعاوى المجمع بتكذيب صارم .

تاريخ النصوص

يخطئ من يعتقد أن الأناجيل شكلت ، بمجرد تحريرها ، الكتب المقدسة الأساسية للمسيحية الوليدة ، وأنه قد اعتمد عليها مثلما كان يعتمد على العهد القديم . لقد كانت السلطة السائدة فى ذلك الوقت للتراث الشفهى الذى كان ينقل أقوال المسيح وتعاليم الحواريين . إن أول الكتابات المتداولة وأول ما ساد منها قبل الأناجيل هو رسائل بولس : ألم تكن قد كتبت قبل ذلك بعشرات من السنوات ؟

ولقد رأينا أنه قبل عام ١٤٠م لم يكن هناك ما يشهد بأن هناك من يعرف وجود مجموعة من الكتابات الإنجيلية ، على عكس ما يكتب بعض المعلقين حتى اليوم . بل يجب انتظار عام ١٧٠م حتى تكتسب الأناجيل صفة الأدب المعترف به كنسيًا .

فى تلك العصور المسيحية الأولى ، كان هناك تداول كثير من الكتابات عن المسيح غير أنه لم يَعْتَدّ بها ككتابات جديرة بصفة الصحة ، كما أوصت الكنيسة بإخفائها ، ومن هنا جاء اسم الأناجيل المزورة Apocryphes . ولقد بقى من هذه النصوص مؤلفات يحتفظ بها جيدًا لأنها « كانت تتمتع بالتقدير العام » ، وعلى ما تقول لنا الترجمة المسكونية ، ومن هذه رسالة برنابا Didache de Barnabe ولكن هناك نصوص أخرى قد « استبعدت بشكل أكثر عنفًا » ولم يتبق منها إلا بعض أجزاء . ولأنها كانت تعتبر ناقلة للخطأ العام فقد أخفيت عن أنظار المؤمنين . برغم ذلك فهناك من المؤلفات ، مثل أناجيل الناصريين ، وأناجيل العبرانيين ، وأناجيل المصريين التى عرفت بفضل تنويهات آباء الكنيسة ما كان يشبه عن قرب الأناجيل المعترف بها كنسيًا . ونفس الأمر ينطبق على إنجيل توما وإنجيل برنابا .

وبعض هذه الكتابات « المزورة » يحتوى على تفاصيل خرافية أنتجها الخيال الشعبى . وعلى ذلك فبعض مؤلفى دراسات عن الأناجيل المزورة يذكرون برضى شديد الوضوح مقاطع من هذه التفاصيل تدعو حقًا للسخرية . لكن من الممكن أن نجد مثل هذه الفقرات فى كل الأناجيل . ولنذكر فقط الوصف الوهمى للأحداث التى يدعى متى أنها قد وقعت عند موت المسيح . يمكن إذن أن نجد فقرات تفتقر إلى الجدية فى كل كتابات العصور الأولى للمسيحية : وعلى المعلقين أن يتحلوا بشرف الاعتراف بهذا .

لقد قادت وفرة الروايات عن المسيح الكنيسة فى مرحلة انتظامها إلى إجراء استبعاد لكثير من المؤلفات . وربما كان ما حذف مائة إنجيل ! لقد احتفظ فقط بأربعة من الأناجيل لتدخل فى قائمة رسمية من كتابات العهد الجديد ، والتى تشكل ما يسمى بالكتب المعترف بها كنسيًا .

وفى منتصف القرن الثانى ، دفع مارسيون Marcion بصرامة السلطات الكنسية إلى اتخاذ موقف . وكان خصمًا لدودًا لليهود ، وكان يرفض كل العهد القديم ، ويرفض من الكتابات اللاحقة على المسيح ما كان يبدو منها على ارتباط وثيق بالعهد القديم ،

أو التراث اليهودى - المسيحى . ولم يعترف مارسيون إلا بإنجيل لوقا لأنه ، فى رأيه ، المتحدث باسم بولس ، وبكتابات بولس .

وحكمت الكنيسة على مارسيون بالهرطقة ، ووضعت فى القائمة الرسمية كل رسائل بولس ، ولكن مع الأناجيل الأخرى لمتى ومرقس ولوقا ويوحنا ، وألحقت به أيضًا بعض الكتب الأخرى مثل « أعمال الرسل » . ومع ذلك فالقائمة الرسمية تنوعت مع الزمن فى هذه القرون الأولى من العصر المسيحى . وهناك مؤلفات اعتبرت فيما بعد معدومة القيمة (المزورة) كانت تحتل مكانًا مؤقتًا فى هذه القائمة ، على حين كانت هناك كتابات أخرى ، محتواة فى القائمة الحالية للعهد الجديد ، مستبعدة فى ذلك العصر . لقد دام التردد حتى مجمعين : هيبون فى ٣٩٣م ، وقرطاجنة فى ٣٩٧. ولكن الأناجيل الأربعة كانت دائمًا موجودة بهذه القائمة .

ولا نستطيع إلا أن نأسف ، مع الأب بومار ، على اختفاء (كم) ضخم من الكتب التى اعتبرتها الكنيسة مزورة ، فقد كان لها أهمية تاريخية . الواقع أن الأب بومار يعطيها مكانًا فى كتابه « الأناجيل الأربعة المتوافقة » إلى جانب الأناجيل الرسمية . ويلاحظ أن هذه الكتب كانت موجودة بالمكتبات حتى نهاية القرن الرابع .

لقد شهد هذا القرن عصرًا من التنظيم الجاد ، وإلى هذا العصر ترجع أقدم المخطوطات الكاملة للأناجيل . فمن الوثائق السابقة على هذا العصر ، برديات يرجع تاريخها إلى القرن الثالث ، وبردية أخرى قد ترجع إلى القرن الثانى ، ولكنها لا تنقل لنا إلا أجزاء منفصلة ، أما أقدم مخطوطتين من الرق فهما مخطوطتان يونانيتان من القرن الرابع ، وهما ما يعرفان بالـ Codex Vaticanus ومكان اكتشافهما مجهول ، وهما مخطوطتان بمكتبة الفاتيكان وبالـ Codex Sinaiticus وقد اكتشفت بجبل سيناء وهى محفوظة بالمتحف البريطانى . وتحتوى الوثيقة الثانية على مؤلفين مزورين .

وكما تقول الترجمة المسكونية . ففى العالم مائتان وخمسون مخطوطة رقية أخرى معروفة ، وآخرها يرجع إلى القرن الحادى عشر . ولكن « كل نسخ العهد الجديد التى وصلت إلينا ليس عددها على أى حال كبير . وبعض هذه الاختلافات لا تخص

إلا تفاصيل فى النحو أو المفردات أو ترتيب الكلمات . ولكن فى مؤلفات أخرى يلاحظ بين المخطوطات اختلافات تمس معانى فقرات بأكملها » . وإذا أردنا أن ندرك هذه الاختلافات النصية فيكفى الرجوع إلى العهد الجديد اليونانى Novum Testamentum[(١)] فهذا الكتاب يحتوى على نص يونانى يقال له « متوسط » وهو نص مركب يشتمل فى حواشيه على كل النقاط المختلفة التى يجدها القارئ فى مختلف النسخ .

إن صحة أى نص - حتى أكثر النصوص احتراماً - قابلة دائماً للنقاش . إن المخطوطة المعروفة باسم Codex Vaticanus تعطى مثالاً على ذلك . فطبعتها المطابقة للأصل التى أعادتها الفاتيكان عام ١٩٦٥ تحتوى على تنبيه من نفس المصدر يخبرنا «بأنه بعد مرور قرون عدة على النسخة» (القرن العاشر أو الحادى عشر كما يعتقد) حبَّر أحد النساخ كل الحروف ما عدا التى رأى أنها خطأ » . وهناك عبارات من النص مازالت فيه الحروف الأولى ، وهى بنية اللون ، ترى بشكل واضح ، وتصر على البقاء وتتباين مع بقية النص الذى كتب بحبر بنى غامق . ولا شىء يسمح بتأكيد أن ترميم النص كان أميناً . وبالإضافة إلى ذلك فالتنبيه يحدد ما يلى : « لم نتمكن حتى الآن من أن نميز بشكل نهائى مختلف الأيدى التى صححت ، المخطوطة ووضعت عليها الحواشى عبر القرون ، ولا شك أن عدداً من التصحيحات قد عمل ساعة تحبير النص » . ومع ذلك فكل كتب التعليم الدينى تقدم هذه المخطوطة على أنها نسخة من القرن الرابع . ولابد من الذهاب إلى مصادر الفاتيكان حتى ندرك أن بعض الأيدى قد حرفت النص بعد ذلك بقرون كثيرة .

وقد يجيب أحد عن هذا بأن هناك نصوصاً أخرى تنفع فى المقارنة . ولكن كيف يختار القارئ بين نقاط مختلفة تحرف المعنى ؟ المعروف جيداً أن تصحيحاً قديماً جداً لأحد النساخ يؤدى إلى إعادة نهائية لنص جرى عليه التصحيح بهذا الشكل . وسندرك

---

(١) Nestle et Aland, edition 1971.

تمامًا فيما بعد أن كلمة واحدة فى إنجيل يوحنا خاصة بالـ Paraclet تغير جذريًا معنى الفقرة ، وتغير رأسًا على عقب دلالتها من وجهة النظر اللاهوتية .

وهذا ما كتب أ. كولمان بالنسبة للتفاصيل المختلفة فى كتابة « العهد الجديد » يقول: « إنها قد تنتج عن أخطاء غير إرادية : إما أن يكون الناسخ قد أسقط كلمة ، وإما أن يكون قد كتبها مرتين متتاليتين ، وإما أن يكون قد حذف سهوًا جزءًا من الجملة كان موضوعًا فى النص المطلوب نسخة بين كلمتين متماثلتين . وقد يكون المعنى به أيضًا تصحيحات إرادية : إما أن الناسخ قد سمح لنفسه بتصحيح النص حسب أفكاره الشخصية ، وإما أنه يبحث عن التوفيق بين النص ونص آخر مواز حتى يقلل الاختلافات بينهما بشكل قد يقل أو يزيد مهارة . ويتدرج انفصال كتابات العهد الجديد عن بقية الأدب المسيحى البدائى لينظر إليها ككتاب مقدس ازداد تردد النساخ فى إجراء مثل هذه التصحيحات التى كان يقوم بها من سلفهم : وبهذا اعتقدوا أنهم ينقلون النص الصحيح ، وبهذا ثبتوا النقاط التفصيلية المختلفة . أحيانًا أخرى يكتب الناسخ تعليقًا على هامش النص ليشرح عبارة مبهمة . ويأتى الناسخ التالى ويظن أن العبارة المكتوبة على هامش النص قد سقطت عند ناسخ آخر ، ويرى ضروريًا إدخال التعليق الهامشى على النص . وبهذا ، أحيانًا ، يصبح النص الجديد المنقول أكثر غموضًا » .

إن نساخ بعض المخطوطات يسمحون لأنفسهم بحريات كثيرة مع النص . فهكذا الأمر بالنسبة لناسخ أحد أكثر النصوص إجلالاً بعد النصين المذكورين أعلاه ، وهو الـ Codex Bezae Cantabrigiensis الذى يرجع إلى القرن السادس . فقد لاحظ الناسخ ، ولا شك ، الفرق بين سلسلة نسب المسيح فى كل من إنجيلى لوقا ومتى ، ولذلك وضع فى نسخته لإنجيل لوقا نسب المسيح عند متى . ولما كانت هذه الأخيرة تحتوى على كم من الأسماء أقل من الأولى فإنه قام بتضخيمها بأسماء إضافية (دون أن يقيم توازنًا مع ذلك) .

والسؤال هو : هل الترجمات اللاتينية ، مثل Vulgate للقديس يرونيمس (القرن الرابع) والترجمة القديمة Vetus Itala والترجمات السيريانية والقبطية . هل هى أكثر

أمانة من المخطوطات اليونانية الأساسية ؟ فربما تكون قد كتبت اعتمادًا على مخطوطات أكثر قدمًا من تلك التى ذكرناها ، وغير موجودة فى عصرنا . لا أحد يعلم شيئًا عن هذا .

لقد نجح المتخصصون فى تصنيف مجموع هذه النصوص فى عائلات تجمع عددًا من الصفات المشتركة . وهكذا يمكن ، حسب كولمان ، تعريف ما يلى :

- نص يقال له سورى ، ربما انتهت إلى تشكيلة أقدم وأغلب النصوص اليونانية ، وقد انتشر هذا النص انتشارًا واسعًا فى أوربا ابتداء من القرن السادس عشر بفضل آلة الطباعة ، وهو أسوأ النصوص فى رأى المتخصصين .

- نص يقال له غربى بنسخه اللاتينية القديمة ، وما يعرف بالـ Codex Bezae Cantabrigiensis وهو نص يونانى ولاتينى فى آن واحد (ويتسم هذا النص فى رأى الترجمة المسكونية ، باتجاه صريح نحو التعليل وعدم الدقة والإطناب والتوفيق) .

- نص يقال له محايد ينتمى إليه الـ Codex Vaticanus والـ Codex Sinaiticus وهو أكثر نقاء ، وهذا النص هو الذى تعتمد عليه اليوم طبعات العهد الجديد ، برغم أنه هو أيضًا يحتوى على بعض العيوب (الترجمة المسكونية) .

إن كل ما يستطيع نقد النصوص الحديث أن يقدمه لنا من وجهة النظر هذه هو محاولته لإعادة بناء « نص يتمتع بأكبر الفرص الممكنة فى أن يقترب من النص الأصلى. وعلى أى حال فلا مجال مطلقًا للأمل فى الوصول إلى النص الأصلى نفسه »(الترجمة المسكونية) .

الأناجيل والعلم الحديث

تحتوى الأناجيل على قليل جدًا من الفقرات التى تستطيع أن تقود إلى مقارنة مع المعطيات العلمية الحديثة .

وقبل كل شىء فكثير من روايات الأناجيل التى لها صلة بمعجزات ما لا تسمح مطلقًا بأى تعليق علمى . وهذه المعجزات تتعلق بأشخاص : مثل شفاء المرضى الممسوسون والعميان والمشلولون والمصابون بالبرص ، وبعث إلعازر) كما تتعلق بظاهرات مادية صرفة تقع على هامش القوانين الطبيعية (كمشى المسيح على صفحة المياه التى تحمله وتغير الماء إلى نبيذ) . وقد تكون المعجزة أحيانًا ظاهرة طبيعية غير عادية بسبب تحققها فى زمن قصير جدًا كسكون العاصفة الفجائى ، أو تجفيف التين فى لحظة ، أو ذلك الصيد المعجز وكأن كل أسماك البحيرة قد تجمعت فى نقطة محددة كانت الشباك قد ألقيت بها .

وفى هذه الأحداث يتدخل الله بقدرته ، ولا يدهش المرء مما يقدر الله على فعله ، ويبدو للإنسان كمعجزات ، وإن لم تكن كذلك بالنسبة له . إن هذه الاعتبارات لا تعنى بأى حال أن على المؤمن ألا يتدخل فى شئون العلم . فالإيمان بمعجزة إلهية ، والإيمان بالعلم أمران يتفقان تمامًا . فالأولى إلهية المستوى ، والثانية إنسانية المستوى .

شخصيًا أعتقد عن طيب خاطر أن المسيح قد استطاع أن يشفى الأبرص ، ولكنى لا أستطيع أن أقبل بأن يقال بصحة وبإلهام الله لنص أقرأ فيه أن عشرين فقط من الأجيال قد عاشت بين أول إنسان وإبراهيم ، يقول ذلك لوقا فى إنجيله (٣، ٢٣، ٢٨) وسنرى بعد قليل الأسباب التى تقرر أن نص لوقا ، كالنص الخاص بنفس الموضوع فى العهد القديم قد صدر عن الخيال البشرى .

إن الأناجيل (كالقرآن) تعطينا نفس المعطيات عن أصول المسيح البيولوجية . إن نمو المسيح فى رحم أمه قد حدث خارج قوانين الطبيعة المشتركة بين كل الكائنات البشرية . فالبويضة التى أنتجها مبيض أمه لم تحتج للالتقاء بحيوان منوى يأتى من أبيه ليشكل جنينًا ثم طفلاً قابلاً للحياة . إن الظاهرة التى تؤدى إلى ميلاد الكائن الحى دون تدخل من العنصر المخصب للذكر ، تسمى بالتلقيح الذاتى Parthenogenese ويمكن ملاحظة التلقيح الذاتى فى عالم الحيوان تحت ظروف معينة . وتلك حالة حشرات متنوعة وبعض اللافقريات وهى تخص أيضًا حالة جنس منتقى من الطيور ، ولكن هذا استثنائى جدًا . وقد أمكن بالتجربة عند بعض الثدييات ، أنثى الأرنب مثلاً ، الحصول على بداية لتطور البويضة إلى حالة جنينية فى مرحلة أولية جدًا دون إدخال حيوان منوى . ولم يمكن الذهاب إلى أبعد من هذا ، ولا يعرف عند هذه الثدييات أى مثال لتلقيح ذاتى مكتمل ، لا بالتجربة ولا بالطبع . أما المسيح فهو حالة خاصة . فقد كانت مريم أمًا عذراء . وقد احتفظت بعذريتها ، ولم تلد أطفالاً غير المسيح . إن المسيح استثناء بيولوجى[1] .

شجرتا نسب المسيح

تطرح شجرتا النسب اللتان يحتوى عليهما إنجيلا متى ولوقا مشاكل تتعلق بالمعقولية وبالاتفاق مع المعطيات العلمية ، ومن هنا فهى مشاكل تتعلق بالصحة . هى مشاكل تحرج جدًا المعلقين المسيحيين . فهم يرفضون أن يروا فيها ما هو بجلاء نتاج للخيال الإنسانى . ولقد ألهم الخيال الإنسانى كتاب سفر التكوين الكهنوتيين فى القرن السادس قبل الميلاد فى موضوع أنسال البشر الأول . وهو أيضًا الذى ألهم متى ولوقا بالنسبة إلى ما لم يستلهمه هذان الكاتبان من العهد القديم .

وبادئ ذى بدء يجب ملاحظة أن هذين النسبين من جهة الرجال معدوم المعنى فيما يتعلق بالمسيح . ولو كان من الضرورى إعطاء المسيح نسبًا ، وهو وحيد مريم (أمه) .

(١) تذكر الأناجيل أحيانًا « إخوة » و « أخوات » للمسيح (متى ١٣، ٤٦-٥٠ و ٥٤-٥٨ ، مرقس ٦، ١-٦، يوحنا ٧، ٣ و٢و ١٢) . والكلمتان اليونانيتان المستخدمتان للتعبير عن هذه هما odelphai – adel-phoi وتعنينان بالفعل إخوة وأخوات بالمعنى البيولوجى ، وهذه بالتأكيد ترجمة قاصرة لكلمتين من أصل سامى ، وتعنيان أقرباء دون زيادة ، وربما كان المقصود أيضًا هو أولاد العمة أو الخالة .

وليس له أب بيولوجى ، فيجب أن يكون ذلك النسب من جهة مريم فقط .

وها هى ذى نصوص هذا النسب حسب الترجمة المسكونية للعهد الجديد : يضع متى شجرة نسب المسيح على رأس إنجيله :

كتاب أصول عيسى المسيح بن داود بن ابراهيم

إبراهيم ولد إسحاق
وإسحاق ولد يعقوب
ويعقوب ولد يهوذا وإخوته
ويهوذا ولد فارص وزارح من ثامار
وفارص ولد حصرون
وحصرون ولد آرام
وآرام ولد عمينا داب
وعمينا داب ولد نحشون
ونحشون ولد سلمون
وسلمون ولد بوعز من راحاب
وبوعز ولد عوبيد من راعوث
وعوبيد ولد يسى
ويسى ولد داود الملك
وداود الملك ولد سليمان من التبنى لاوريا
وسليمان ولد رحبعانم
ورحبعام ولد أبيا
وأبيا ولد أسا
وأسا ولد يهوشافاط
ويهوشافاط ولد يورام
ويورام ولد عزيا
وعزيا ولد يوتان
ويوتام ولد أجاز
وأجاز ولد حزقيا
وحزقيا ولد منسى
ومنسى ولد أمون
وأمون ولد يوشيا
ويوشيا ولد يكنيا وإخوته
وكان النفى إلى بابل
بعد النفى ببابل :
يكنيا ولد شالتيثيل
وشالتيثيل ولد زر بابل
وزر بابل ولد إبيهود
وإبيهود ولد الياقيم
والياقيم ولد صادوق
وصادوق ولد أخيم
وأكيم ولد اليهود
واليهود ولد العازار
والعازار ولد متان
ومتان ولد يعقوب
ويعقوب ولد يوسف
رجل مريم التى وُلد منها
عيسى الذى يُدْعَى المسيح

وعلى ذلك يكون العدد بالإجمال للأجيال هو أربعة عشر جيلاً من إبراهيم إلى داود ، وأربعة عشر جيلاً من داود إلى المنفى بابل ، وأربعة عشر جيلاً من المنفى بابل حتى المسيح .

أما لوقا (٣، ٢٣، ٢٨) فإنه يُعْطى المسيح نسبًا يختلف عن ذلك الذى فى إنجيل متى . ونقدمها فيما يلى حسب نفس الترجمة :

ولما ابتدا عيسى كان له نحو ثلاثين سنة . وهو كان على ما يظن ابن يوسف ابن هالى ، ابن متّتاب بن لاوى بن مَلَكى بن يَنّا بن يوسُف بن يهُوذا بن يُوحنًّا بن ريسا ابن زُرْبابِل بن شَألْتَيئيل بن نيرى بن ملكى بن إدى بن قصم بن الموادم بن عير، بن موسى ابن اليعازر بن يوريم ين متثاب بن لاوى ، بن شمعون بن يهوذا بن يوسف بن يونان ابن إلياقيم ، بن مليا بن مينان بن متاثا بن ناثان بن داود ، بن يسى بن عوبيد بن بوعز ابن شالح بن نحشون بن عميناراب بن أدمنى بن عرنى بن حصرون بن فارص ابن يهوذا، ابن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم بن تارح بن ناحور ، بن سروح بن رعو بن فالح بن عابر ابن شالح ، بن قينان بن أرفكشار بن سام بن نوح بن لامك ، بن متوشالح بن أخنوخ ابن يارد بن مهللئيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم بن الله » .

وتزداد هذه الأنساب وضوحًا (بوضعها) فى جدولين يعرض أولهما أنساب المسيح قبل داود ويعرض الآخر أنسابه بعد داود .

نسب المسيح ، قبل داود

حسب إنجيل متى

متى لا يذكر أى
اسم قبل إبراهيم

حسب إنجيل لوقا

١ آدم
٢ شيت
٣ أندش
٤ قينان
٥ مهلئيل
٦ يارد
٧ أخنوخ
٨ متوشالح
٩ لامك
١٠ نوح
١١ سام
١٢ أرفكشاد
١٣ قينان
١٤ شالح
١٥ عابر
١٦ فالج
١٧ راعو
١٨ سروج
١٩ ناحور

حسب إنجيل متى	حسب إنجيل لوقا
	٢٠ تارح
١ إبراهيم	٢١ إبراهيم
٢ إسحق	٢٢ إسحاق
٣ يعقوب	٢٣ يعقوب
٤ يهوذا	٢٤ يهوذا
٥ فارص	٢٥ فارص
٦ حصرون	٢٦ حصرون
٧ آرام	٢٧ عرنى
	٢٨ أدمنى
٨ عمينا راب	٢٩ عمينا راب
٩ نعشون	٣٠ نحشون
١٠ سليمان	٣١ شالح
١١ بوعز	٣٢ بوعز
١٢ عبيد	٣٣ عوبيد
١٣ يسى	٣٤ يسى
١٤ داود	٣٥ داود

نسب المسـيح بعد داود

حسب إنجيل متى	حسب إنجيل لوقا
١٥ سليمان	٣٦ ناثان
١٦ رحبعام	٣٧ متاثا
١٧ أبيا	٣٨ منا
١٨ أسا	٣٩ مليا
١٩ يوشافاط	٤٠ ألياقيم
٢٠ يورام	٤١ يونان
٢١ عزيا	٤٢ يوسف
٢٢ يوثام	٤٣ يهوذا
٢٣ أحاز	٤٤ شمعون
٢٤ حزقيا	٤٥ لاوى
٢٥ منسى	٤٦ متثات
٢٦ أمون	٤٧ يوريوم
٢٧ يوشيا	٢٨ عازر
٢٨ يكنيا	٤٩ يوسى
النفى إلى بابل	٥٠ عير
٢٩ شالتئيل	٥١ المودام
٣٠ زربابل	٥٢ قوسام
٣١ أبيهود	٥٣ آدى
٣٢ ألياقيم	٥٤ ملكى
٣٣ - عازور	٥٥ نيرى

حسب إنجيل متى

٣٤ صادوق

٣٥ أكيم

٣٦ اليهود

٣٧ ألعازار

٣٨ متان

٣٩ يعقوب

٤٠ يوسف

٤١ عيسى

حسب إنجيل لوقا

٥٦ شالتئيل

٥٧ زربابل

٥٨ ريسا

٥٩ يوحنا

٦٠ يهوذا

٦١ يوسف

٦٢ شمعى

٦٣ متتيا

٦٤ مآت

٦٥ نجاى

٦٦ حسلى

٦٧ ناحوم

٦٨ عاموس

٦٩ متتيا

٧٠ يوسف

٧١ ينا

٧٢ ملكى

٧٣ لاوى

٧٤ متات

٧٥ عالى

٧٦ يوسف

٧٧ عيسى

الفروق حسب المخطوطات
وبالنسبة إلى العهد القديم

إذا وضعنا جانبًا الاختلافات الإملائية فيجب أن نذكر :

(أ) إنجيل متى :

لقد زال نسب المسيح من النص المعروف ابسم Codex Bezae Cantabrigiensis وهى مخطوطة هامة جدًا ، ترجع إلى القرن السادس ، مزدوجة اللغة (يونانية ولاتينية) : وقد اختفى النص اليونانى تمامًا ، واختفت غالبية النص اللاتينى . وفيما يخص الجزء الضائع ربما الذى حدث هو مجرد ضياع الأوراق فقط . ولابد من الإشارة إلى الحرية الكبيرة جدًا التى اتخذها متى إزاء العهد القديم : فقد حذف الأنساب منه لاحتياجات تختص ببرهنة حسابية غريبة (وفى نهاية الأمر لا يعطى متى هذا البرهان كما سنرى فيما بعد) .

(ب) إنجيل لوقا :

١ - قبل إبراهيم : يذكر لوقا عشرين اسمًا ، أما العهد القديم فهو لا يذكر إلا تسعة عشر اسمًا فقط (انظر جدول أنسال آدم فى الجزء المكرس للعهد القديم) . وقد أضاف لوقا بعد أرفكشاد (رقم ١٢) رجلاً يدعى قينان (رقم ١٣) لا نجد له أى أثر فى سفر التكوين باعتباره ابن أرفكشاد .

٢ - من إبراهيم إلى داود : نجد عددًا يتراوح بين ١٤ ، ١٦ اسمًا وذلك حسب المخطوطات .

٣ - من داود إلى المسيح : ونقطة الاختلاف الهامة هى التى توجد فى النسخة المعروفة باسم Codex Bezae Cantabrigiensis التى تنسب إلى لوقا شجرة نسب وهمية صنعت من النسب عند متى ، والتى أضاف الناسخ إليها خمسة أسماء ، ومما يؤسف له أن الجزء الخاص بنسب المسيح من هذه المخطوطات قد اختفى ، وبهذا لم تعد المقارنة ممكنة .

دراسة نقدية للنصوص

يرى القارئ هنا شجرتى نسب المسيح والنقطة المشتركة الجوهرية هى المرور بإبراهيم وداود . ولتيسير هذه الدراسة سنتصدى للنقد بتقسيم المجموع إلى ثلاثة أجزاء.

- من آدم إلى إبراهيم .
- من إبراهيم إلى داود .
- من داود إلى المسيح .

١ - الفترة من آدم إلى إبراهيم

بما أن متى يبدأ شجرة نسب المسيح بإبراهيم ، فالأمر هنا لا يخصه . إن لوقا فقط هو الذى يعطى معلومات عن أسلاف إبراهيم حتى آدم : وهو يعطى عشرين اسمًا يوجد منها ، كما قلنا ، تسعة عشر اسمًا بسفر التكوين (الإصحاحات ٤ و٥ و١١) .

أيمكن تصور أنه لم يكن هناك إلا ١٩ أو ٢٠ جيلاً من الكائنات البشرية قبل إبراهيم ؟ لقد درست المشكلة فيما يختص بالعهد القديم . وإذا رجع القارئ إلى جدول أنسال آدم حسب سفر التكوين ، والذى يحتوى على الإحداثيات الحسابية الزمنية التى يمكن استنتاجها من نص التوراة ، فسنجد أنه قد مر حوالى ١٩ قرنًا فيما بين ظهور الإنسان على الأرض وميلاد إبراهيم . ولكن ، لما كان المتخصصون يقدرون حاليًا أن إبراهيم كان يعيش فى عام ١٨٥٠ ق. م. تقريبًا ، فإننا نستنتج أن الإحداثيات التى يعطيها سفر التكوين تحدد ظهور الإنسان على الأرض بحوالى ٣٨ قرنًا قبل المسيح . وبالطبع فقد استلهم لوقا هذه المعطيات ليحرر إنجيله . ولأنه نقل هذه المعطيات فقد وهم . ولقد رأى القارئ أعلاه الحجج التاريخية القاطعة التى أدت إلى هذه الدعوى .

وعلى هذا فإن تكوين معطيات العهد القديم غير مقبولة فى عصرنا . فذلك أمر يمكن تبريره : حيث إن هذه المعطيات تقع فى ميدان « البطلان » الذى تحدث عنه مجمع الفاتيكان الثانى . أما أن يأخذ المبشرون على عاتقهم بنفس هذه المعطيات التى

لا تتواءم مع العلم . فذلك تقرير بالغ الجسامة يتعارض مع الذين يدافعون عن الصحة التاريخية للنصوص الإنجيلية .

لقد أدرك المعلقون جيدًا خطورة هذا التقرير . وهم يحاولون تجنب هذه الصعوبة بقولهم : إنه ليس المقصود هو شجرة نسب المسيح بتمامها ، وإن المبشرين قد أسقطوا أسماء عن عمد ، وإن ما يجب أن يدخل فى الحسبان هو فقط « نية وضع الخطوط العريضة أو العناصر الجوهرية لنسب المسيح بالاعتماد على الواقع التاريخى »(١) . وليس فى النصوص ما يسمح بإقامة مثل هذا الفرض . فنصوص الأنساب تعين بالتحديد أن فلانًا ولد فلانًا ، وأن هذا ابن ذلك . وزيادة على ذلك ، وبالنسبة لما يسبق إبراهيم على وجه خاص ، فقد نهل المبشر من العهد القديم الذى يعرض الأنساب على الوجه التالى :

س .. فى سن كذا أنجب ص .. وعاش ص كمًا من الأعوام وأنجب ع .. إذن ليس هناك انقطاع فى التسلسل .

وعلى هذا فالجزء السابق على إبراهيم من نسب المسيح حسب إنجيل لوقا يصبح غير مقبول فى ضوء المعارف الحديثة .

٢ - الفترة من إبراهيم إلى داود

هنا ، تتفق شجرتا النسب أو تكادان ، بفرق يبلغ اسمًا أو اسمين : قد يمكن تسويغ هذا الفرق بأخطاء للناسخ غير إرادية .

ولكن هل احتمال الصدق هنا فى جانب المبشرين ؟

إن التاريخ يحدد عصر داود حول عام ١٠٠٠ ق. م ، وعصر إبراهيم تقريبًا حوالى ١٨٥٠ - ١٨٠٠ ق. م. أى ١٤ أو ١٦ جيلاً لثمانية قرون تقريبًا ... هل هذا معقول ؟ لنقل إذن إن النصوص الإنجيلية ، فيما يختص بتلك الفترة ، تقع على حدود الأمور المقبولة .

---

(١) A Tricot, Petit Dictionnaire du Nouveau Testament.

٢ - الفترة التالية لداود

للأسف ، لا تتفق النصوص بتاتًا فى تحديد السلف الداودى ليوسف ، أى أسلاف المسيح فى الإنجيل .

ولنضع جانبًا التزييف الصريح فى الوثيقة المعروفة باسم Codex Bezae Cantabrigiensis وفيما يختص بلوقا ، ولنقارن بين ما تأتينا به الوثيقتان الأكثر تمتعًا بالاحترام وهما الـ Codex Baticanus والـ Codex Sinaiticus .

تحتوى شجرة نسب المسيح عند لوقا على ٤٢ اسمًا بعد داود (رقم ٣٥) وحتى المسيح (رقم ٧٧) . أما إنجيل متى فيشير إلى ٢٧ اسمًا بعد داود (رقم ١٤) وحتى المسيح (رقم ٤١) . إذن فعدد أسلاف المسيح (الاعتباريين) بعد داود مختلف فى الإنجيلين . ويضاف إلى ذلك أن الأسماء نفسها مختلفة .

لكن هناك أكثر من ذلك :

يقول لنا متى إنه قد اكتشف أن أسلاف المسيح ينقسمون ابتداء من إبراهيم إلى ثلاث مجموعات . يحتوى كل منها على ١٤ اسمًا : المجموعة الأولى من إبراهيم إلى داود ، والمجموعة الثانية من داود إلى المنفى إلى بابل ، والمجموعة الثالثة من المنفى إلى بابل حتى المسيح . ويحتوى نص متى فعلاً على ١٤ اسمًا فى كل من المجموعتين الأوليين . ولكن المجموعة الثالثة – من النفى إلى بابل حتى المسيح – لا تحتوى إلا على ١٣ اسمًا ، وليس ١٤ كما كان ينتظر ، فالجدول يشير إلى أن رقم شالتئيل هو ٢٩ والمسيح ٤١ . وليست هناك أية نسخة مختلفة أخرى لمتى تحتوى على ١٤ اسمًا فى هذه المجموعة .

وحتى ينجح متى فى إدخال ١٤ اسمًا فى مجموعته الثانية فإنه يتصرف بحرية شديدة مع نص العهد القديم . وتتفق أسماء الأسلاف الستة الأولى لداود (من ١٥ إلى ٢٠) مع معطيات العهد القديم . ولكن متى يغفل أنسال يورام (رقم ٢٠) الذين تقول لنا أخبار الأيام الثانى إنهم أخاذياس ويواس وأماسيا . ويضاف إلى ذلك أن يكنيا

(رقم ٢٨) هو ابن يوشيا (رقم ٢٧) على حين يقول لنا كتاب الملوك الثانى إنه الياقيم ومكانه بين يوشيا ويكنيا .

بهذا يثبت أن متى قد عدل فى تسلسل النسب فى العهد القديم لكى يقدم مجموعة مصطنعة من ٤١ اسمًا بين داود والنفى إلى بابل .

أما أن ينقص المجموعة الثالثة اسمًا . حيث إنه ليس هناك أى نص حالى لهذا الإنجيل يحتوى على الـ ٤٢ اسمًا المشار إليها - فالدهشة لا ترجع إلى وجود الثغرة نفسها (فقد يكون تبرير ذلك هو خطأ قديم جدًا لأحد النساخ قد استمر حتى الآن) بقدر ما ترجع إلى الصمت شبه التام للمعلقين على هذا الموضوع . فكيف لا يرون الثغرة؟ لقد قطع و. ترلنج[1] W. Triling هذا الصمت الورع فى كتابه « إنجيل متى » بسطر واحد . لكن الأمر بعيد كل البعد عن أن يكون معدوم الأهمية ، فالمعلقون على هذا الإنجيل ، بما فى ذلك المعلقون على الترجمة المسكونية ، وآخرون مثل الكاردينال دانيلو Danielou يكشفون عن الأهمية الكبرى لرمز العدد ١٤ مضروبًا فى ٣ عند متى . أفلم يحذف هذا المبشر دون تردد أسماء جاءت فى التوراة لكى يوفق فى برهنته الحسابية ؟

هذا لا يهم فقد أقام المعلقون بناء على المديح والتبرير بعلل إسقاط الأسماء وبتجنب الثغرة ، وبذلك ينهار ما أراد المبشر إثباته .

تعليقات المفسرين المحدثين

فى كتاب « إنجيل الطفولة » Les Evangiles de l'enfance (١٩٦٧)[2] يعطى الكاردينال دانيلو قيمة رمزية ذات أهمية كبرى « للبيان الحسابى » فى إنجيل متى . فهذا البيان فى نظره هو الذى يحدد أسلاف المسيح الذين يؤكدهم لوقا أيضًا . إن لوقا ومتى فى نظر الكاردينال دانيلو ، «مؤرخان» قاما « بتحقيق تاريخى » ، بما أن نسب

(١) Desclee, Collection «Parole et Priere».

(٢) Editions du Seuil.

المسيح » مقتبس من أرشيف عائلة المسيح » . ولابد من تحديد أن هذا الأرشيف لم يعثر عليه قط[1] .

ويلقى الكاردينال دانيلو اللعنة على هؤلاء الذين ينتقدون وجهة نظره . يقول « إن العقلية الغربية ، والجهل باليهودية - المسيحية ، والافتقاد إلى الحس السامى ، كل هذا قد أضل كثيرًا من المفسرين فى تفسير الأناجيل . فقد أسقطوا قاطغورياتهم (كذا) الأفلاطونية والعقلانية والهيجلية والهيدجرية ، ولهذا أصاب الخلط فى نفوسهم » . وواضح تمامًا أن ليس لأفلاطون ، أو ديكارت أو هيجل ، أو هيدجر ناقة أو جمل فى هذا الموقف النقدى الذى قد يتخذه القارئ إزاء هذا النسب الوهمى للمسيح .

ويبحث المفسر عن معنى العدد ٣ مضروبًا فى ١٤ ويطنب فى افتراضات غريبة لا نفعل إلا ذكرها . يقول : « قد يكون المقصود هو الأسابيع العشرة الاعتيادية للرؤيا اليهودى ، مع طرح الأسابيع الثلاثة الأولى المناظرة للفترة الزمنية من آدم إلى إبراهيم : ويتبقى بعد ذلك الأسابيع السبعة السنوية ، التى تمثل الأسابيع الستة الأولى منها المجموعات الثلاث التى يتكون كل منها من ١٤ اسمًا باعتبار أن المسيح يفتتح الأسبوع السابع الذى ينفتح به العمر السابع للعالم » . مثل هذه الشروح لا تحتاج لأى تعليق !

والمعلقون على الترجمة المسكونية للعهد الجديد يقدمون هم أيضًا تنويعات تبريرية ومديحية محسوبة ، وهى لا تقل غرابة أيضًا . يقولون :

(أ) قد يكون العدد ١٤ هو المجموع الحسابى للحروف الساكنة الثلاثة التى يتكون منها اسم داود فى العبرية (د=٤ ، و=٦) ومن هنا : ٤ + ٦ + ٤ = ١٤ .

---

(١) بالرغم من أن المفسر يؤكد لنا أنه يعرف وجود هذه « الأرشيفات » العائلية المزعومة من خلال «كتاب تاريخ الكنيسة» اليوزيب السيزارى Eusebe de Cesarée وهو كتاب تدعو جديته إلى جدل كثير - فإن من العسير تخيل أن لعائلة المسيح شجرتى نسب تختلفان بالضرورة ، حيث إن كلاً من هذين «المؤرخين» يقدم نسبًا للمسيح يختلف معظمه عن الآخر بالنسبة للأسماء ، وبالنسبة لعدد الأسلاف أيضًا .

(ب) ٣ × ١٤ = ٦ × ٧ و « المسيح يأتى فى نهاية الأسبوع السادس من التاريخ المقدس الذى يبدأ بإبراهيم » . وتعطى هذه الترجمة المسكونية بالنسبة لإنجيل لوقا ٧٧ اسمًا من آدم إلى المسيح ، وذلك يدخل من جديد الرقم ٧ باعتباره قاسمًا العدد ٧٧ (٧ × ١١ = ٧٧) . ولكن عديدًا من النقاط المختلفة عند لوقا يسقط الأسماء ، ويضيف أسماء أخرى بحيث إن أية قائمة تتكون عنده من ٧٧ اسمًا هى قائمة مصطنعة ، حتى إن تمتعت بقابلية الدخول فى مثل هذه الألعاب الحسابية .

لا شك أن نسب المسيح فى الأناجيل موضوع قد دفع المعلقين المسيحيين إلى بهلوانيات جدلية متميزة صارخة تكافئ الوهم والهوى عند كل من لوقا ومتى .

تناقضات وأمور غير معقولة فى الروايات

يحتوى كل من الأناجيل الأربعة على عدد هام من الروايات التى تسرد أحداثًا قد تكون مذكورة فى إنجيل واحد فقط ، أو تذكر فى عدة أناجيل ، أو فيها كلها . فإذا كانت مذكورة فى إنجيل واحد فقط ، فإنها تطرح مشاكل هامة ، وعلى هذا ففى حالة ما يكون الحدث بعيد المرمى فإن القارئ يدهش أن مبشرًا واحدًا فقط قد ذكره : وعلى سبيل المثال صعود المسيح إلى السماء يوم القيامة . يضاف إلى ذلك أن كثيرًا من الأحداث مسرود بشكل مختلف ، وأحيانًا بشكل مختلف جدًا لدى اثنين أو أكثر من المبشرين . وكثيرًا ما يدهش المسيحيون عندما يكتشفون وجود هذه المتناقضات بين الأناجيل ، فقد كرر على مسمعهم ، وبكثير من التأكيد أن كتاب الأناجيل كانوا شهودًا معاينين للأحداث التى أخبروا بها .

ولقد أشرنا فى الفصول السابقة إلى بعض هذه الأمور غير المعقولة ، وهذه المتناقضات المثيرة للبلبلة . ولكن ما يشكل بوجه خاص موضوع الروايات المتضاربة أو المتناقضة هو الأحداث الأخيرة التى طبعت حياة المسيح والتى تلت آلامه .

روايات الآلام

ويلاحظ الأب روجى R.P. Roguet نفسه أن عيد الفصح معين بشكل مختلف زمنيًا بالنسبة إلى عشاء المسيح الأخير مع الحواريين فى الأناجيل الثلاثة المتوافقة . وفى الإنجيل الرابع . فيوحنا يقول بوقوع هذا العشاء « قبل عيد الفصح » . أما الأناجيل الأخرى فتقول إنه حدث فى أثناء عيد الفصح نفسه . ويؤدى هذا التضارب فضلاً عن ذلك إلى أمور واضحة فى عدم معقوليتها : إذ يستحيل تصور هذا الحدث أو ذاك بسبب موقع عيد الفصح الذى تحدد بهذا الشكل ، وبالنسبة إلى هذا الحدث . وعندما ندرك أهمية عيد الفصح فى الطقوس اليهودية والأهمية التى اكتسبها هذا العشاء الذى ودع فيه المسيح حوارييه ، فكيف يمكن تصور أن التراث الذى نقله المبشرون فيما بعدد قد نسى زمن هذا العشاء بالنسبة إلى عيد الفصح ؟

وبشكل أكثر عمومية فروايات الآلام تختلف بحسب الأناجيل . وهى تختلف بشكل خاص بين الأناجيل الثلاثة الأولى وبين إنجيل يوحنا . فالعشاء الأخير للمسيح والآلام يحتلان فى إنجيل يوحنا مساحة كبيرة تبلغ ضعف المساحة عند كل من مرقس ولوقا . ويزيد نص يوحنا بمقدار مرة ونصف مرة على نص متى . ويسرد يوحنا خطبة طويلة للمسيح نحو تلامذته ، ويحتل سرد هذه الخطبة أربع إصحاحات (من ١٤ إلى ١٧) فى إنجيله . وعبر هذا الحديث الأعظم يعطى المسيح آخر إرشاداته لتلامذته الذين سيتركهم ، كما يسلمهم وصيته الروحية . وليس هناك أى أثر من هذا فى الأناجيل الأخرى . وعلى العكس يسرد متى ولوقا ومرقس صلاة المسيح لجيتسمانى ، ولا يشير يوحنا إليها .

غياب رواية تأسيس القربان المقدس من إنجيل يوحنا

وأهم ما يلفت قارئ الآلام فى إنجيل يوحنا هو أنه لا يشير أية إشارة إلى تأسيس القربان المقدس فى أثناء عشاء المسيح الأخير مع الحواريين .

وليس هناك مسيحى لا يعرف أيقونة العشاء الأخير . حيث يجلس المسيح بين حوارييه للمرة الأخيرة . لقد صور أعظم المصورين هذا الاجتماع الأخير ، وفيه يجلس يوحنا إلى جانب المسيح ، يوحنا ... هذا الذى اعتدنا اعتباره مؤلف الإنجيل الذى يحمل اسمه .

ومهما كان فى ذلك دهشة للكثيرين فإن غالبية المتخصصين لا يعتبرون أن يوحنا الحوارى هو مؤلف الإنجيل الرابع ، وهذا الأخير لا يشير إلى تأسيس القربان المقدس . هذا على حين أن تقديس الخبز والخمر اللذين يصبحان جسد ودم المسيح هو الفعل الطقسى الكنسى الجوهرى للمسيحية . إن الأناجيل الثلاثة الأخرى تتحدث عن هذا الفعل ، وإن كان ذلك بألفاظ مختلفة كما أشرنا أعلاه . أما يوحنا ، فهو لا يقول عنه كلمة واحدة . روايات الأناجيل الأربعة تحتوى فقط على نقطتين مشتركتين : التنبؤ بإنكار بطرس وخيانة أحد الحواريين (ولا يشار إلى يهوذا الأسخربوطى باسمه إلا فى إنجيل متى ويوحنا) . إن إنجيل يوحنا وحده هو الذى يسرد غسل المسيح لأقدام تلامذته فى بداية العشاء .

كيف يمكن تفسير هذه الثغرة فى إنجيل يوحنا ؟

إذا أردنا التفكير بموضوعية فإن أول ما يرد على الخاطر - على افتراض أن رواية الأناجيل الثلاثة الأولى صحيحة - هو فرض ضياع هذه الفقرة من إنجيل يوحنا الذى يسرد نفس الحدث . ولكن هذا ما لم يتوقف عنده المعلقون المسيحيون .

ولندرس بعض مواقفهم .

ويقول أ . تريكو A. Tricot فى كتابه Petit Dictionnaire du Nouveau Testament تحت مقال بعنوان « العشاء الأخير » «Cene» ما يلى : « هو آخر عشاء تناوله المسيح مع الاثنى عشر حواريًا ، والذى أسس فيه القربان المقدس . ونحن نملك رواية هذا العشاء فى الأناجيل الثلاثة المتوافقة » . (مراجع متى ومرقس ولوقا) ، « ويعطينا الإنجيل الرابع تفاصيل تكميلية » (مراجع يوحنا) . وفى مقال « القربان المقدس » يقول نفس هذا الكاتب ما يلى : « تسرد الأناجيل الثلاثة الأولى بتأسيس القربان المقدس بشكل

مختصر ، وقد كانت تلك نقطة على أهمية كبرى فى التعليم المسيحى الرسولى . وقد أعطى القديس يوحنا تكملة ضرورية لهذه الروايات الوجيزة ، وذلك بسرد خطبة المسيح عن خبز الحياة (الإصحاح ٦ : ٣٢-٥٨) » . وبالتالى لا يشير المعلق إلى أن يوحنا لم يسرد تأسيس المسيح للقربان المقدس . المؤلف يتحدث عن تفاصيل تكميلية لتأسيس القربان المقدس (والواقع أن المقصود هو منسك غسل أقدام الحواريين) . أما فيما يخص « خبز الحياة » الذى يتحدث عنه المعلق فالمقصود هو ذكر المسيح - خارج العشاء الأخير - للمن الذى وهبه الله فى الصحراء ، فى عصر خروج اليهود الذين كان موسى قادهم ، ويوحنا هو الوحيد من بين المبشرين الذى يذكر بهذا الأمر . ولا شك فى أن يوحنا يشير ، فى الفقرة التالية فى إنجيله ، لإشارة المسيح للقربان المقدس ، وذلك فى شكل استطراد خاص بالخبز ، ولا يتحدث أى مبشر آخر عن هذا الحدث .

هكذا إذن يمكن أن ندهش لصمت يوحنا على ما يسرده المبشرون الثلاثة الآخرون، ولصمت هؤلاء على ما أعلن المسيح عنه فى قول يوحنا .

هذه الثغرة الكبيرة فى إنجيل يوحنا ... يعترف بها المعلقون على الترجمة المسكونية للعهد الجديد ، ولكنهم يقدمون التبرير التالى لعدم سرد يوحنا لتأسيس القربان المقدس . يقولون : « إن يوحنا عمومًا ، لا يكن أى اهتمام إزداء تقاليد ومؤسسات إسرائيل القديمة . وربما كان هذا هو الذى جعله يحيد عن الإشارة إلى تأصل القربان المقدس فى طقوس عيد الفصيح » . كيف يريدون أن نصدق أن عدم الاهتمام بالطقوس الفصحية اليهودية هو الذى قاد يوحنا إلى أن لا يتحدث عن تأسيس المنسك الرئيسى فى طقوس الدين الجديد ؟

إن المشكلة تحرج المفسرين إلى درجة أن علماء اللاهوت يحتالون فى البحث عن صور أولية أو معادلات للقربان المقدس فى أحداث حياة المسيح يسردها يوحنا . فهكذا يرى أ. كولمان فى كتابه « العهد الجديد » أن معجزة قانا وتكاثر الخبز هما بمثابة صورة مسبقة لسر العشاء المقدس (تناول القربان المقدس) . ولنذكر بأن ما حدث بقانا هو تحويل الماء إلى خمر فرغت عند عرس (وهى أول معجزة للمسيح ، ويذكرها يوحنا

وحده من بين كل المبشرين فى الإصحاح الثانى من إنجيله - الآيات من ١ إلى ١٢) . أما فيما يختص بتكاثر الأرغفة (يوحنا ، الإصحاح السادس - الآيات من ١ إلى ١٣) فقد أدى ذلك إلى إطعام خمسة آلاف شخص بخمسة أرغفة تكاثرت بمعجزة . عندما سرد يوحنا هذه الأحداث فإنه لم يضف أى تعليق خاص ، إن عملية تقريب هذه المعجزات من تأسيس القربان المقدس هى من وحى خيال المفسر الصرف . ولا يرى القارئ سبب هذا التقريب ، كما يظل مبلبلاً جدًا عندما يكتشف أن نفس هذا الكاتب يرى أن شفاء المشلول والأعمى يبشران بالتعميد وأن « الماء والدم الخارجين من صدر المسيح بعد موته يجمعان فى حدث واحد إحالة إلى التعميد والقربان المقدس » .

وهناك تقريب آخر خاص بالقربان المقدس عند نفس هذا المفسر ، ويذكره الأب روجى فى كتابه « مقدمة إلى الإنجيل » ، يقول : « يرى بعض علماء اللاهوت المتخصصين فى الكتاب المقدس ، أن حكاية غسل الأقدام قبل العشاء الأخير معادل رمزى لتأسيس القربان المقدس ... » .

ولا نرى جيدًا أساس كل هذه التقريبات الوهمية التى يقول بها المعلقون حتى يجعلوا الناس يقبلون بسهولة أكثر تلك الثغرة المحيرة فى إنجيل يوحنا .

ظهور المسيح بعد قيامته

أعطينا سابقًا مثالاً بارزًا على الخيال فى الرؤية بالنسبة لإنجيل متى ، وذلك فيما يخص وصفه لظاهرات غير طبيعية قد صاحبت موت المسيح . والأحداث التى تلت قيامته قد أعطت مادة لروايات متناقضة . بل غريبة عند كل المبشربن .

ويعطينا الأب روجى فى كتابه « مقدمة إلى الإنجيل » (ص ١٨٢) أمثلة على الاختلاط والفوضى والتناقض التى تسود هذه الروايات . فيقول :

« لا تتطابق تمامًا فى الأناجيل الثلاثة المتوافقة قائمة النساء اللاتى أتين إلى القبر . فليس هناك إلا امرأة واحدة فى إنجيل يوحنا وهى مريم المجدلية ، ولكنها تتحدث بضمير الجماعة - كما لو كانت لها رفيقات فهى تقول : «لا نعرف أين وضعوه».

أما فى إنجيل متى فملاك هو الذى يعلن للنساء أنهن سيرين المسيح بالجليل . ولكن المسيح بعد لحظة يقابلهن على مقربة من القبر . ولاشك أن لوقا قد شعر بهذه الصعوبة وعدل قليلاً فى مصدره ، يقول الملاك : « تذكرون كيف تحدث إليكن عندما كان بالجليل ... » والواقع أن لوقا لا يشير إلى ظهور المسيح ثلاث مرات بعد قيامته ... » - « أما يوحنا فيقول إنه ظهر مرتين على ثمانية أيام بمجمع بيت القدس ، ثم فى المرة الثالثة يظهر بالقرب من البحيرة .. إذن بالجليل . وأما متى فإنه يتحدث عن مرة واحدة لظهور المسيح بالجليل » . ويستبعد المعلق من هذه الدراسة خاتمة إنجيل مرقس ، التى تتحدث عن ظهور المسيح . لأنه يعتقد أنها « قد كتبت بقلم آخر » .

وكانت هذه الأمور تتناقض مع الإشارات إلى ظهور المسيح المحتواة فى رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس (١٥، ٥-٧) ، إذ يقول إنه قد ظهر لأكثر من خمسمائة شخص فى وقت واحد ، ولجاك ، ولكل الحواريين - دون أن ينسى نفسه .

وإنه لمما يثير الدهشة بعد ذلك أن يندد الأب روجى فى نفس هذا الكتاب «بالخوارق الطنانة والطفولية فى بعض الأناجيل المزورة» فيما يتعلق بقيامة المسيح : ألا تصلح هذه الأوصاف بشكل كامل لمتى وبولس نفسه الذى يتناقض تمامًا مع المبشرين الآخرين فيما يختص بظهور المسيح بعد قيامته ؟

يضاف إلى ذلك أن هناك تناقضًا بين رواية « أعمال الرسل » ، وهى من تأليف لوقا المبشر ، عن ظهور المسيح لبولس وبين ما يقوله لنا بولس عن ذلك بشكل موجز . لقد أدى هذا إلى أن يشير الأب كانينجسر R. P. Cannengiesser فى كتابه « الإيمان بالقيامة وبعث الإيمان «Foi en La Resurrection. Resurrection de la Foi» (١٩٤٧) إلى أن بولس ، هو الشاهد المعاين الوحيد على قيامة المسيح ، الذى يصل بصوته إلينا مباشرة عبر ما كتب[1] ، لكنه لا يتحدث أبدًا عن مقابلته الشخصية مع المسيح بعد قيامته - هذا إذا استثنينا ثلاث إشارات شديدة التحفظ ... » « بل أكثر من ذلك : أنه يمنع نفسه من وصف هذه المقابلة » .

(١) ليس هناك أى كاتب للعهد الجديد يستطيع أن ينسب لنفسه مثل هذه الصفة .

إن التناقض جلى بين بولس - وهو الشاهد المعاين الوحيد ، ولكنه مشكوك فيه - وبين الأناجيل .

ويلاحظ أ. كولمان فى كتابه « العهد الجديد » التناقضات بين لوقا ومتى : فالأول يقول بظهور المسيح فى الناصرة Judee ، أما الثانى فيقول إنه ظهر بالجليل .

أما فيما يخص التناقض بين لوقا ويوحنا فلنذكر أن الحدث الذى يرويه يوحنا (الإصحاح ٢١، الآيات من ١ إلى ١٤) عن ظهور المسيح للصيادين بعد قيامته على شاطئ بحيرة طبرية وحصولهم بعد ذلك على سمك كثير حتى إنهم لا يستطيعون حمله، ليس إلا رواية معادة لنفس حدث معجزة الصيد بنفس المكان فى حياة المسيح فى رواية لوقا (الإصحاح الخامس ، الآيات من ١ إلى ١١) .

ويؤكد لنا الأب روجى فى كتابه ، وفيما يتعلق بمرات ظهور المسيح « إن هذا التفكك ، هذا الغموض ، هذا الاختلال يبعث على الثقة عنده » ؛ فكل ذلك يثبت أن المبشرين لم يتشاوروا فيما بينهم ، وإلا أعوزهم أن يوفقوا بين ما كتبوا[1] . وهذا تفكير غريب . فالواقع أنهم قد استطاعوا أيضًا أن يوردوا - بإخلاص تام وعلى غير علم منهم- كل الأقوال الموروثة لطوائفهم ، وذلك فى قوالب روائية : كيف ننتهى إلى إقامة هذا الفرض فى مواجهة هذه الكثرة من التناقضات والأمور غير المعقولة فى رواية الأحداث ؟

صعود المسيح

تمتد المتناقضات حتى نهاية الروايات لأن يوحنا ومتى لا يشيران إلي صعود المسيح. فمرقس ولوقا يتحدثان عن هذا .

وبالنسبة لمرقس (١٦، ١٩) فإن المسيح « قد رفع إلى السماء وجلس على يمين الله» ، وهذا دون تحديد تاريخى بالنسبة لقيامته . ولكن لابد من ملاحظة أن نهاية إنجيل مرقس ، التى تحتوى على هذه الجملة ، ليست نصًا صحيحًا : وهى نص كتب وأضيف بعد ذلك ، فى رأى الأب روجى . حتى وإن كانت الكنيسة تعتبره قانونيًا .

(١) لا نتصور كيف كان يمكن لبعض المبشرين أن يفعل هذا .

يتبقى إنجيل لوقا فهو الوحيد الذي يذكر حدث الصعود ، وذلك فى نص لا يناقشه أحد . (٢٤، ٥١) يقول : « انفصل المسيح عنهم وحمل إلى السماء » . ويضع لوقا الحدث فى نهاية رواية قيامة المسيح ، وظهوره للأحد عشر حواريًا[1] : وتتضمن تفاصيل الرواية الإنجيلية أن الصعود قد حدث يوم القيامة . ولكن لوقا يصف فى « أعمال الرسل » ، والكل يعتقد أنه كاتبها ، مرات ظهور المسيح للحواريين بين الآلام والصعود بالألفاظ التالية : « وقد حصلوا منه على أكثر من آية . على حين أظهر نفسه لهم وحدثهم ، طيلة أربعين يومًا ، عن ملكوت الله » (١، ٢، ٣) . إن هذه الفقرة من « أعمال الرسل » ، هى الأصل فى تحديد العيد المسيحى للصعود بأربعين يومًا بعد الفصح ، وحيث يحتفل بالقيامة . التاريخ إذن محدد على عكس إنجيل لوقا ، ويضاف إلى ذلك أن ليس هناك أى نص إنجيلى آخر يبرر هذا التحديد التاريخى .

إن المسيحى وقد عرف بهذا الموقف يشعر بالحيرة : فالتناقض واضح . مع ذلك فالترجمة المسكونية للعهد الجديد تعترف بهذا الواقع ، ولكنها لا تفيض فى الحديث عن التناقض ، بل هى تكتفى بالإشارة إلى احتمال أهمية هذه الأربعين يومًا بالنسبة لرسالة المسيح .

إن المعلقين الذين يريدون شرح كل شىء والتوفيق بين ما لا يقبل التوفيق يعطوننا فى هذا الشأن تفسيرات شاذة .

فطبعة الأناجيل الأربعة المتوافقة Synopse des 4 Evangiles التى نشرتها مدرسة الكتاب المقدس بالقدس عام ١٩٧٢ تحتوى على تعلقيات شديدة الغرابة .

فحتى كلمة « صعود » موضوع للنقد التالى : « الواقع أنه لم يحدث صعود بالمعنى الفيزيقى نفسه ، فليس الله بأعلى أكثر مما هو بأسفل » (كذا !) . ولا يفهم القارئ جيدًا معنى تلك الملاحظة ، ويتساءل : كيف كان يمكن للوقا أن يصرح بهذا بشكل آخر .

---

(١) المقصود هو الأحد عشر حواريًا . حيث إن الثانى عشر ، وهو يهوذا ، قد مات .

ويضاف إلى ذلك أن كاتب التعليق يرى « حيلة أدبية » فى واقع أن « أعمال الرسل » تقول « إن الصعود قد حدث بعد أربعين يومًا من قيامة المسيح » ، و « الحيلة نفسها تهدف إلى التأكيد على أن فترة ظهور المسيح قد انتهت » . ولكنه يضيف أن إنجيل لوقا يحدد الحدث بمساء يوم الفصح ، حيث إن لوقا لا يضع أى فاصل بين مختلف الأحداث التى يسردها ، وبعد اكتشاف القبر فارغًا صباح القيامة » ... « أليس هذا أيضًا حيلة أدبية تهدف إلى ترك فترة من الزمن بما يسمح للمسيح بالظهور بعد قيامته ؟ » (كذا) .

إن الشعور بالحرج النابع من تفسيرات من هذا النوع يتضح أكثر فأكثر فى كتاب الأب روجى الذى يميز بين صعودين ! يقول :

« إذا كان الصعود ، من وجهة نظر المسيح ، يواكب القيامة ، فإنه لا يقع من وجهة نظر التلامذة إلا بعد أن يكف المسيح تمامًا عن الظهور لهم حتى يرسل لهم الروح ، وحتى يبدأ عصر الكنيسة » .

وإذا كان ثمة قارئ غير قادر على إدراك الدقة اللاهوتية فى تفكير الكاتب التى لم تكن تملك أى أساس من معرفة النصوص الإنجيلية ، فإن الكاتب يوجه إليه هذا التحذير العام ، وهو نموذج للإطناب فى اللغة المديحية .

وهنا كما فى كثير من الحالات المماثلة لا تبدو المشكلة بغير حل إلا إذا أخذنا حرفيًا وماديًا بدعاوى الكتاب المقدس مع تناسى معناها الدينى . وليس المقصود هو إذابة واقع الأشياء فى رمزية هلامية ، وإنما المقصود هو أن نبحث عن النية اللاهوتية لدى هؤلاء الذين يكشفون لنا الألغاز عندما يعطوننا - عن أمور محسوسة - علامات تختص بالجذور المادية لعقليتنا » .

أحاديث المسيح الأخيرة . الـ Paraclet فى إنجيل يوحنا

يوحنا هو المبشر الوحيد الذى سرد ما حدث فى نهاية العشاء الأخير للمسيح وقبل القبض عليه ، أى آخر أحاديثه مع الحواريين ، وينتهى هذا الحدث بخطبة طويلة .

فإنجيل يوحنا يفرد أربع إصحاحات (من ١٤ إلى ١٧) لتلك الرواية التى لا نجد لها أثرًا فى الأناجيل الأخرى . ومع ذلك فهذه الإصحاحات من إنجيل يوحنا تعالج مسائل أساسية وآفاق مستقبل ذات أهمية بالغة ، وهى معروضة بكامل العظمة والجلال اللذين يميزان هذا المشهد لوداع السيد لتلامذته .

كيف يمكن أن نشرح الغياب التام فى أناجيل متى ومرقس ولوقا لرواية الوداع المؤثر الذى يحتوى على الوصية الروحية للمسيح ؟ يمكن أن نطرح السؤال التالى : هل كان النص موجودًا أولاً عند المبشرين الثلاثة الأولين ؟ ألم يحذف فيما بعد ؟ ولماذا ؟ ولنقل فورًا إنه لا يمكن الإتيان بأية إجابة ، فاللغز مستغلق تمامًا بالنسبة لهذه الثغرة الكبيرة فى رواية المبشرين الثلاثة الأولين .

إن ما يسود الرواية - وهذا مفهوم فى حديث أخير - هو مستقبل البشر الذى يتحدث عنه المسيح ، واهتمام السيد بالتوجه إلى تلامذته وإلى الإنسانية برمتها عبرهم، معطيًا إرشاداته وأوامره ، ومحددًا بشكل نهائى المرشد الذى على الإنسانية أن تتبعه بعد اختفائه . إن نص إنجيل يوحنا - وهذا النص وحده - يسمى بشكل صريح هذا المرشد باسم يونانى هو Parakletos الذى أصبح فى الفرنسية Paraclet . وها هى ذى الفقرات الجوهرية من هذه الخطبة حسب الترجمة المسكونية للعهد الجديد :

« إذا كنتم تحبوننى فستعملون على اتباع أوامرى ، وسأصلى للأب الذى سيعطيكم Paraclet آخر » . (١، ١٥، ١٦) .

ما معنى هذه الكلمة Paraclet . إن النص الذى نملك حاليًا لإنجيل يوحنا يشرح معناها بالألفاظ التالية :

« الـ Paraclet ، الروح القدس ، الذى سيرسله الأب باسمى سيبلغكم كل شىء وسيجعلكم تتذكرون كل ما قلت لكم » (١٤، ٢٦) .

« هو نفسه سيشهد بى » (١٥، ٢٦) .

« رحيلى فائدة لكم ، لأننى إذا لم أرحل فالـ Paraclet لن يأتى إليكم ، وعلى العكس فإذا رحلت فسأبعث به إليكم . وهو بمجيئه سيذهل العالم فيما يخص الخطيئة والعدل والحكم ... » (١٦، ٧-٨) .

« عندما سيأتى روح الحقيقة ، فسيجعلكم ترقون إلى الحقيقة بكاملها ، لأنه لن يتكلم بإرادته ، وإنما سيقول ما يسمع ، وسيعرفكم بكل ما سيأتى . وسيمجدنى .. » (١٦، ١٢-١٤) . (ويلاحظ أن الفقرات التى لم تذكر هنا من الإصحاحات ١٤ إلى ١٧ من إنجيل يوحنا لا تعدل مطلقًا من المعنى العام للفقرات المذكورة) .

وإذا قرأنا بسرعة فإن النص الذى يثبت تطابق كلمة Parakletos اليونانية على الروح القدس لا يجذب الانتباه فى كثير من الأحيان ، وخاصة أن العناوين الثانوية للنص المستخدمة عمومًا فى الترجمات ، بالإضافة إلى ألفاظ التعليقات المقدمة فى كتب التعليم العام توجه القارئ نحو المعنى الذى تريد الروح التقليديه إعطاءه لهذه الفقرات . وإن حدث وصادف القارئ أقل صعوبة فى الفهم ، فالتحديدات موجودة كتلك التى يعطيها « المعجم الصغير للعهد الجديد » للأب تريكو A. Tricot وهى كل التوضيحات فتحت عنوان كتب المعلق ما يلى :

« هذا الاسم أو هذه الصفة المنقولة من اليونانية إلى الفرنسية غير مستخدم فى العهد الجديد إلا فى إنجيل يوحنا : فهو يذكر الكلمة أربع مرات عند سرده لخطاب المسيح بعغد العشاء الأخير[1] (١٤، ١٦ و ٢٦ ؛ ١٥، ٢٦؛ ١٦، ٧) ومرة واحدة فى رسالته الأولى (٢، ١) . إن الكلمة فى إنجيل يوحنا تنطبق على الروح القدس ، أما فى الرسالة فهى تنطبق على المسيح . لقد كانت كلمة Paraclet سائدة لدى اليهود الهللنستيين فى القرن الأول بمعنى الوسيط ، والمدافع (...) . فالمسيح يعلن أن الروح سيرسل بالأب والابن فى دوره الإنقاذى الذى يؤديه فى أثناء حياته الفانية على الأرض ، وذلك لصالح تلاميذه . إن الروح يتدخل ويعمل كبديل للمسيح باعتباره Paraclet أو وسيط قادر على كل شىء » .

إذن فهذا التعليق يجعل الروح القدس مرشدًا أسمى للبشر بعد اختفاء المسيح . فهل يتفق مع نص يوحنا ؟

---

(١) الواقع أن المسيح ، فى قول يوحنا ، يلقى خطابه الطويل فى أثناء نفس هذا العشاء ، وفيه يتحدث عن الـ Paraclet وهو خطاب لم يسرده المبشرون الآخرون .

لابد من طرح المشكلة ، فمبدئيًا يبدو غريبًا أن ننسب إلى الروح القدس الفقرة المذكورة أعلاه والتى تقول : « لن يتكلم بإرادته ، وإنما سيقول ما يسمع ، وسيعرفكم بكل ما سيأتى » .

يبدو أن من غير المعقول أن ننسب إلى الروح القدس سلطان أن يتحدث وأن يقول ما يسمع ... وفى علمى أن هذه المسألة التى يوصى المنطق بطرحها ليست عمومًا موضع أى تعليقات .

ولكى تكون لنا فكرة صحيحة عن المشكلة يجب الرجوع إلى النص اليونانى الأساسى ، وهذا أمر يساوى فى أهميته الاعتراف بأن يوحنا قد كتب باليونانية وليس بلغة أخرى. إن النص اليونانى الذى رجعنا إليه هو نص Novum Testamentum Graece، طبعة نستلى والأند Nestle et Aland (١٩٧١) .

إن أى نقد جاد للنصوص يبدأ بالبحث عن الاختلافات النصية . ويظهر هنا أن ليس فى مجموع المخطوطات المعروفة لإنجيل يوحنا نص آخر مختلف من شأنه أن يحرف المعنى سوى تلك الفقرة ١٤، ٢٦ من المخطوطة السريانية المسماة بـ Palimp-seste[(١)] والفقرة لا تشير إلى الروح فقط ، وإنما إلى الروح القدس . فهل هذا مجرد نسيان من قبل الناسخ ؟، أو أنه لم يجرؤ على كتابة ما بدا له أنه أمر غير معقول فى مواجهة نص يدعى أن الرروح القدس قد يسمع ويتكلم ؟ فيما عدا هذه الملاحظة ، وبعض الاختلافات النحوية التى لا تغير شيئًا من المعنى العام للنص ، وليس هناك مجال للإصرار على اختلافات نصية أخرى . وما يهم هو أن المعروض هنا عن الدلالة المحددة لفعلى « يسمع » و « يتحدث » يسرى على كل مخطوطات إنجيل يوحنا ، ومن ضمنها الحالة المعينة هنا .

---

(١) مخطوطة كتبت فى القرن الرابع أو الخامس ، واكتشفها أنيس س. لويس Agnés s. Lewis عام ١٨١٢ بدير سيناء ، وتحمل المخطوطة هذا الاسم . لأن النص الأول كان مغطى بنص آخر ، وعندما مسح هذا الأخير ظهر النص الأول .

وفعل يسمع Entendre فى الترجمة الفرنسية هو فعل Akouo باليونانية ، ويعنى استقبال أصوات . وقد أعطى الفعل اليونانى ، على سبيل المثال ، كلمة Acoustique بالفرنسية و Acoustics بالإنجليزية وتعنى علم الأصوات .

أما فعل « يتحدث Parler » فى الترجمة الفرنسية فهو فعل Laleo باليونانية ، ومعناه العام إصدار أصوات وخاصة صوت الكلام . ويتكرر هذا الفعل كثيرًا فى النص اليونانى. وذلك للإشارة إلى التصريح الجليل للمسيح فى أثناء تبشيره . يبدو إذن أن الاتصال بالناس المقصود هنا لا يكمن مطلقًا فى إلهام عمل الروح القدس . إنما هو اتصال ذو طابع مادى واضح ، وذلك بسبب مفهوم إصدار الصوت ، وهو المفهوم المرتبط بالكلمة اليونانية التى تعرفه .

الفعلان اليونانيات Akouo و Laleo يعنيان فعلين ماديين لا يمكن أن يخصا إلا كائنًا يتمتع بجهاز للسمع وآخر للكلام . وبالتالى فتطبيق هذين الفعلين على الروح القدس أمر غير ممكن . إن نص هذه الفقرة من إنجيل يوحنا ، كما تسلمه لنا المخطوطات اليونانية ، غير مفهوم بالمرة إذا ما قابلناه فى تمامه مع كلمتى « الروح القدس » فى الآية ٢٦ من الإصحاح ١٤ وهى : « Paraclet ، الروح القدس الذى سيرسله الأب باسمى ... » إلخ . إنها الجملة الوحيدة فى إنجيل يوحنا التى تثبت تطابقًا بين الـ Paraclet والروح القدس .

ولكن إذا حذفنا كلمتى الروح القدس (to pneuma to agion) من هذه الجملة فإن نص يوحنا يقدم عندئذ دلالة شديدة الوضوح . ويضاف إلى ذلك أن هذه الدلالة تتخذ شكلاً ماديًا ، وذلك من خلال نص آخر ليوحنا ، وهو نص الرسالة الأولى ، حيث يستخدم نفس هذه الكلمة Paraclet للإشارة ببساطة إلى المسيح باعتباره الوسيط لدى الله[1] .

---

(١) كثير من ترجمات الأناجيل والتعليقات عليها ، والقديمة منها على وجه خاص ، تترجم هذه الكلمات بالمعنى - وهذا خطأ تام .

وعندما يقول المسيح ، حسب إنجيل يوحنا (١٦، ١٤) : « سأصلى لله وسيرسل لكم Paraclet آخر » فهو يريد بالفعل أن يقول إنه سيرسل إلى البشر وسيطًا «آخر» كما كان هو وسيطًا لدى الله ، وفى صالح البشر فى أثناء حياته على الأرض .

ذلك يقودنا بمنتهى المنطق إلى أن نرى فى الـ Paraclet عند يوحنا كائنًا بشريًا مثل المسيح يتمتع بحاستى السمع والكلام ، وهما الحاستان اللتان يتضمنهما نص يوحنا بشكل قاطع . إذن فالمسيح يصرح بأن الله سيرسل فيما بعد كائنًا بشريًا على هذه الأرض ليؤدى الدور الذى عرفه يوحنا ، ولنقل باختصار إنه دور نبى يسمع صوت الله ويكرر على مسامع البشر رسالته . ذلك هو التفسير المنطقى لنص يوحنا الذى نملك اليوم قد يكون نابعًا من إضافة لاحقة إرادية تمامًا تهدف إلى تعديل المعنى الأول لفقرة تتناقض بإعلانها بمجئ نبى بعد المسيح ، مع تعاليم الكنائس المسيحية الوليدة التى أرادت أن يكون المسيح هو خاتم الأنبياء .

خـاتمة

إن الأمور التى وردت هنا ، والتعليقات المذكورة عن كثير من المفسرين المسيحيين البارزين تؤدى إلى رفض الدعاوى الشكلية - وذلك بالاعتماد على الخط الذى تبناه المجمع الأخير - التى تخص بالتاريخية المطلقة للأناجيل التى يدعى أنها نقلت بأمانة ما فعله المسيح حقًا وما علم .

والحجج التى أعطيت تنتمى إلى فئات عدة :

أولاً : أن هناك العبارات المذكورة من الأناجيل ، فهى نفسها تثبت تناقضات جلية . إذ لا يمكن الاعتقاد بوجود أمرين متناقضين . ولا يمكن قبول بعض الأمور غير المعقولة، أو دعاوى تتعارض مع المعطيات التى أثبتتها تمامًا المعارف الحديثة . إن شجرتى أنساب المسيح اللتين تقدمهما الأناجيل بالإضافة إلى ما تحتويان عليه من أمور صحيحة . تأتيان بالبرهان فى هذا الشأن .

وكثير من المسيحيين يجهلون هذه المتناقضات والأمور غير المعقولة أو التى لا تتفق مع العلم الحديث ، وهم يصابون بالذهول عندما يكتشفون كل هذا : فقد ظلوا دائمًا متأثرين بقراءة التعليقات التى تعطى توضيحات دقيقة تطمئنهم ، وتعين فى ذلك الغنائية المديحية . ولقد أعطينا أمثلة مميزة لحذق بعض المفسرين فى إخفاء ما يسمونه حياء « صعوبات » .

والواقع أن فقرات الأناجيل اعترف بعدم بعدم صحتها نادرة جدًا ، ومع ذلك أعلنت الكنيسة بقانونيتها .

لقد أوضحت دراسات نقد النصوص الحديث المعطيات التى تكون ، فى رأى الأديب كانتجسر . « ثورة فى مناهج التفسير » والتى تؤدى إلى « عدم الأخذ بحرفية » الأمور الواردة بشأن المسيح فى الأناجيل ، فهذه الأخيرة «كتابات ظرفية» أو «خصامية» . إن المعارف الحديثة ، وقد ألقت النور على تاريخ اليهودية - المسيحية ، والتنافس بين الطوائف توضح وجود أمور تحير قراء عصرنا .

لم يعد مفهوم المبشرين كشهود معاينين قابلاً للدفاع ، وإن ظل حتى يومنا هذا مفهوم كثير من المسيحيين . إن مؤلفات مدرسة الكتاب المقدس بالقدس (الأب بينوا والأب بومار) تثبت جيدًا أن الأناجيل قد كتبت ونقحت وصححت أكثر من مرة . ولهذا ينذر هذان الكاتبان قارئ الإنجيل بأن عليه أن يتخلى فى أكثر من حالة عن سماع صوت المسيح المباشر .

إن الطابع التاريخى للأناجيل لا يسمح بأى جدل ، لكن هذه الوثائق تعلمنا قبل كل شىء ، وعبر الروايات الخاصة بالمسيح ، بعقلية الكتاب المتحدثين باسم الطوائف المسيحية الأولى ، التى كانوا ينتمون إليها ، وتعرفنا بوجه خاص بالخصومات بين اليهود المسيحيين وبين بولس : إن دراسات الكاردينال دانيلو تعتبر حجة فى هذه النقاط .

فكيف ندهش إذن لتشويه المبشرين لبعض أحداث حياة المسيح ، هؤلاء الذين كانوا يهدفون إلى الدفاع عن وجهات نظر شخصية . كيف ندهش لحذف بعض الأحداث ، كيف ندهش للطابع الروائى فى بعض الأحداث الأخرى ؟

هذا يؤدى إلى مقارنة الإنجيل بالشعر الملحمى فى أدب القرون الوسطى . وإنها لموحية حقًا تلك المقارنة مع « ملحمة رولان » ، وهى أكثر الملاحم شهرة ، تلك التى تقص فى شكل روائى حدثًا وقع بالفعل . هل يعرف القارئ أن هذه الملحمة تقص حدثًا حقيقيًا : كمين وقع فيه ظهر جيش شارلمان الذى كان يقوده رولان بممر رنسفو Ronce-vaux ؟ إن هذا الحدث ذو أهمية ثانوية قد وقع فى الحولية التاريخية (إيجنهارد Egn-hord) فى ١٥ من أغسطس عام ٧٧٨م ، ولقد ضخم هذا الحدث حتى وصل إلى أبعاد أمر حربى ، معركة فى حرب مقدسة . إن الرواية خيالية ، لكن هذا الخيال لا يحجب حقيقة إحدى معارك شارلمان التى قام بها ليؤمن حدوده ضد تسلل الشعوب المجاورة : تلك هى الصحة ، والشكل الملحمى للرواية لا يمحوها .

ونفس الأمـر بالنسبـة للأناجيل : فـخـيـالات مـتى والمتناقـضـات الصـارخـة بين الأناجيل، والأمور غير المعقولة ، وعدم التوافق مع معطيات العلم الحديث ، والتحريفات المتوالية للنصوص ، كل هذا يجعل الأناجيل تحتوى على إصحاحات وفقرات تنبع من الخيال الإنسانى وحده . لكن هذه العيوب لا تضع فى موضع الشك وجود رسالة المسيح : فالشكوك تخيم فقط على الكيفية التى جرت بها .

* * *

القرآن والعلم الحديث



مفتتح

بداهة يثير الجمع بين القرآن والعلم والدهشة ، وخاصة أن المقصود فى علاقة الجمع هذه هو التواءم بين الاثنين وليس التنافر . ألا يرى الكثيرون فى مواجهة كتاب دينى بالمعطيات الوضعية التى ينتمى العلم إليها أمرًا بدعيًا فى عصرنا ... ؟ الواقع أننا إذا استثنينا بعض الحالات النادرة نجد أن غالبية العلماء ، وقد تشربوا النظريات المادية، لا يكنّون فى غالب الأحيان إلا عدم الاكتراث أو الاحتقار للمسائل الدينية ، وكثيرًا ما يعتبرونها مؤسسة على أساطير . وزيادة على ذلك فإننا ، عندما نتحدث فى بلادنا الغربية عن العلم والدين ، نغفل ضم الإسلام إلى اليهودية والمسيحية . فالأحكام غير الصحيحة المؤسسة على مفاهيم مغلوطة ، والتى صدرت ضد الإسلام . هى من الكثرة بحيث يصعب جدًا على المرء أن يكوّن فكرة سليمة عما عليه الإسلام فى الواقع .

لذلك فإذا أردنا اليوم أن نقدم لأية مواجهة بين الإسلام والمعارف فإنه يبدو لنا ضروريًا ولازمًا أن نقدم عن الإسلام لمحة عامة . ذلك الإسلام الذى طالما أسئ فهمه فى بلادنا .

إن الأحكام المغلوطة تمامًا التى تصدر فى الغرب عن الإسلام ناتجة عن الجهل حينًا ، وعن التسفيه العامد حينًا آخر . ولكن أخطر الأباطيل المنتشرة تلك التى تخص الأمور الفعلية ، وإذا كنا نستطيع أن نغفر لأخطاء خاصة بالتقدير ، فإننا لا نستطيع أن نغفر لتقديم الوقائع بشكل ينافى الحقيقة . بل إننا لنصاب بالذهول عندما نقرأ فى أكثر المؤلفات جدية أكاذيب صارخة . برغم أن مؤلفى هذه المؤلفات هم بالمبدأ مؤلفون أكفاء . وإليكم مثالاً على ذلك . فى دائرة المعارف أونيفرساليس Encyclopedia Universalis الجزء السادس ، تحت عنوان « الأناجيل » نجد إشارة لاختلاف الأناجيل عن القرآن يقول المؤلف : « إن المبشرين لا يدعون ، كما يفعل القرآن . نقل سيرة ذاتية أملاها الله بشكل معجز على محمد ﷺ . وحقيقة الأمر ألا صلة هناك بين القرآن

وما يسميه المؤلف « بالسيرة الذاتية » القرآن رسالة ، ولو كان المؤلف قد استعان حتى بنسخ ترجمة للقرآن لثبت له ذلك . إن الدعوى تنافى الواقع هى الأخرى تمامًا ، مثل الدعوى التى تعرف الإنجيل بإنه سيرة ذاتية مبشر ، إن المسئول عن هذه الأكذوبة الخاصة بالقرآن أستاذ بجامعة اليسوعيين اللاهوتية بمدينة ليون . إن نشر أكاذيب من هذا النوع يساهم فى إعطاء صورة زائفة عن القرآن والإسلام .

ومع ذلك فهناك أسباب تدعو للأمل ، لأن الأديان لم تعد اليوم منطوية على نفسها، وكثيرون يبحثون عن التفاهم المتبادل . وإنه لمما يبعث على التقدير ما يحدث اليوم على أعلى مستويات المناصب الرسمية . حيث يجتهد مسيحيون كاثوليكيون فى إرساء أواصر الصلة مع المسلمين ، ويحاولون مكافحة عدم الفهم ، ويبذلون ما فى وسعهم لتصحيح وجهات النظر غير الصحيحة المنتشرة عن الإسلام .

لقد تحدثت فى مقدمة هذا الكتاب عن التغيير العظيم الذى حدث فى السنوات الأخيرة . فذكرت وثيقة صادرة عن سكرتارية الفاتيكان لشئون غير المسيحيين وعنوانها « توجيهات لإقامة حوار بين المسيحيين والمسلمين »

Orientations Pour un dialogue entre Chretiens et Musulmans.

إنها وثيقة شديدة الدلالة على المواقف الجديدة التى تُبنيت إزاء الإسلام . ففى الطبعة الثالثة - عام ١٩٧٠ - من هذه الدراسة تطالب هذه التوجيهات « بمراجعة مواقفنا إزاء الإسلام وبنقد أحكامنا المسبقة » .. و « علينا أن نهتم أولاً بأن نغير تدريجيًا من عقلية إخواننا المسيحيين ، فذلك يهم قبل كل شىء » ... ويجب التخلى «عن الصورة البالية التى ورّثنا الماضى إياها ، أو شوهتها الفريات والأحكام المسبقة» ... كما « يجب الاعتراف بالمظالم التى ارتكبها الغرب المسيحى فى حق المسلمين »[1] . بهذا

(١) كان كل شكل من أشكال معاداة الإسلام ، حتى وإن صدر عن أعداء صريحين للكنيسة ، كان يتلقى فى فترة ما تأييدًا «حارًا» من كبار شخصيات الكنيسة الكاثوليكية ، فالبابا نينوا الرابع عشر Be-noit XIV الذى اشتهر بكونه أكبر حبر فى القرن الثامن عشر .. لم يتردد فى مباركة فولتير ، كان يريد بهذا أن يشكر فولتير لأنه أهداه مسرحيته التراجيدية . «محمد أو التعصب» (١٧٤١) وهى مسرحية هجائية فجة يستطيع أن يكتب مثلها . وفى أى موضوع أى محترف كتابة سئ الضمير - وقد لقيت المسرحية - برغم بدايتها العسيرة - صيتًا سمح لها بأن تسجل فى قائمة ملفات مسرح الكوميدى فرانسيز .

الشكل تقوم وثيقة الفاتيكان - التى تحتوى على مائة وخمسين صفحة تقريبًا - ببسط ودحض نظرات المسيحيين الكلاسيكية عن الإسلام ، كما أنها تقدم عرضًا لما عليه الإسلام فى الواقع .

وتحت عنوان « أن نتحرر من أكثر أحكامنا المسبقة جسامة » وجّه أيضًا مؤلفو هذه الوثيقة الدعوة التالية إلى المسيحيين : « هنا أيضًا علينا أن نتطهر وبعمق من عقلياتنا ، نقول ذلك ، ونحن نفكر بالذات فى بعض الأحكام المجهزة التى كثيرًا ما نصدرها باستخفاف على الإسلام . ويبدو لنا هامًا وأساسيًا أن نكف عن أن ننمى فى مكنون قلوبنا النظرات المتسرعة بل التحكمية ، تلك التى لا يتعرف فيها المسلم المخلص على نفسه » .

هناك واحدة من تلك النظرات التعسفية على قدر بالغ من الأهمية فهى تقود إلى الاستخدام المنهجى فى لغتنا لكلمة Allah للدلالة على إله المسلمين فى الفرنسية ، كما لو كان المسلمون يعبدون إلهًا غير إله المسيحيين . إن كلمة Dieu تعنى بالعربية الله تعالى ، والمقصود بها الله الواحد . ذلك يعنى أن النقل الصحيح للكلمة إلى الفرنسية لا يستقيم إلا بالاستعانة بكلمة Dieu . فالله عند المسلم ليس إلهًا آخر سوى رب موسى والمسيح .

إن وثيقة سكرتارية الفاتيكان لشئون غير المسيحيين تؤكد على هذه المعطية الأساسية بالألفاظ التالية :

« نرى باطلاً أن نتمسك مع بعض الغربيين بأن الله ليس هو إله حقيقة » .. ! ولقد أدانت نصوص مجمع أساقفة الفاتيكان الثانى مثل هذا الزعم . وإذا إردنا أن نلخص إيمان المسلمين بالله فلن نفعل بأحسن من تلك العبارات بكتاب[1] Lumen Gentium « إن المسلمين الذين يؤمنون بإبراهيم يعبدون معنا إلهًا واحدًا هو الرحيم ، ديان البشر فى اليوم الآخر .. »

(١) عنوان وثيقة مجمع أساقفة الفاتيكان الثانى (١٩٦٢ - ١٩٦٥) .

من هنا نفهم احتجاج المسلمين على العادة شديدة الشيوع ، وهى النقل الحرفى فى اللغات الأوربية للفظة الله Allah بدلاً من الترجمة بكلمة Dieu للفرنسية . لقد امتدح مثقفون مسلمون ترجمة د. ماسون للقرآن . لأنها كتبت أخيرًا Dieu بدلاً من كلمة Allah .

ويشير نص الفاتيكان إلى أن « الله هى الكلمة الوحيدة العربية عند المسيحيين المتحدثين بالعربية للدلالة على الله الواحد » .

إن المسلمين والمسيحيين يعبدون إلهًا واحدًا .

وتتناول وثيقة الفاتيكان بعد ذلك بالنقد الأحكام الأخرى الخاطئة الصادرة عن الإسلام :

« فجبرية الإسلام » ، ذلك الحكم المسبق واسع الانتشار ، تدرسه الوثيقة، وتستعين بذكر آيات من القرآن لتعارضه بمفهوم مسئولية الإنسان الذى سيحكم عليه بما فعل . وتبين الوثيقة خطأ المفهوم القائل بحرفية القواعد الإسلامية ، وتعارضه بالمفهوم القائل بالإخلاص فى الإيمان ، وذلك بذكر ما ظل يجهله الغربيون عن عبارتى القرآن .

﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ (البقرة - ٢٥٦) .

﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ (الحج - ٧٨) .

الوثيقة تعارض الفكرة الشائعة عن الإسلام كدين الخوف ، بالإسلام دين الحب ، حب الإنسان المتأصل فى الإيمان بالله . إنها تدحض الفكرة التى نشرت خطأ ، والتى تقول بعدم كفاية الأخلاق الإسلامية ، وتدحض أيضًا الأخرى التى نشرها كثير من اليهود والمسيحيين عن تعصب الإسلام ، وهى تعلق على ذلك بالألفاظ التالية : «الواقع أن الإسلام ، عبر التاريخ ، لم يكن أكثر تعصبًا من المدينة المسيحية عندما كانت المسيحية تكتسب ، بشكل أو بآخر ، فى هذه المدينة قيمة سياسية » . وهنا يستشهد المؤلفون بتعابير القرآن التى تبين أن ما يترجمه الغربيون خطأ « بالحرب

المقدسة »[1] La Guerre Saint يقال باللغة العربية « الجهاد فى سبيل الله » أى بذل الجهد لنشر الإسلام والذود عنه من المعتدين عليه » . وتتابع وثيقة الفاتيكان قائلة : «ليس الجهاد مطلقًا ما يعرف بالـ Kherem فى التوراة ، فالجهاد لا يسعى إلى الإبادة . بل يسعى لأن يمد إلى مناطق جديدة حقوق الله والإنسان » . « ولقد كانت أعمال العنف فى حروب الجهاد فى الماضى تخضع عمومًا لقوانين الحرب . وفى عصر الحروب الصليبية لم يكن المسلمون دائمًا هم الذين ارتكبوا أكبر المذابح » .

والوثيقة تعالج أخيرًا الحكم السابق القائل بأن الإسلام دين جامد يبقى أتباعه فى عصر وسيط بائد ، وبجعلهم غير آهلين للتكيف مع منجزات العصر الحديث التقنية » . وهى تقارن مواقف مماثلة لوحظت فى بعض البلاد المسيحية وتعلن « أننا نجد .. فى الفكر الإسلامى مبدأ لإمكانية تطور المجتمع المدنى » .

وإننى لعلى يقين من أن دفاع الفاتيكان عن الإسلام سيثير دهشة كثير من معاصرينا ، سواء كانوا مسلمين أو يهودًا أو مسيحيين ، فذلك إعلان يتميز بإخلاص ، وبروح انفتاح يتباينان بشكل فريد مع مواقف الماضى . ولكن كم هم قليلون حقًا الغربيون الذين عرفوا تلك المواقف الجديدة التى اتخذتها أعلى سلطات الكنيسة الكاثوليكية .

ولكن عندما يعرف هذا الحدث فإن الدهشة تقل خاصة حين نعلم الأفعال والأحداث الفعلية التى صكت هذا التقارب : فقد كانت هناك أولاً الزيارة الرسمية التى قام بها رئيس سكرتارية الفاتيكان لشئون غير المسيحيين إلى جلالة الملك فيصل عاهل

---

(١) هناك من المترجمين ، بل من أكثر من مترجمى القرآن شهرة ، من لم يفلت من تلك العادة التليدة ، عادة أن يضعوا فى ترجماتهم ما لا يوجد فى النص العربى . الحقيقة ، ودون تحريف للنص ، يمكن إضافة عناوين غير موجودة فى النص الأصلى ، من شأنها أن تعدل المعنى العام . فهكذا الحق ر. بلاشير R. Blachere فى ترجمته الشهيرة (الناشر Maisonneuve et Larose باريس ١٩٦٦ ، ص١١٥) عنوانًا غير موجود فى القرآن ، فقد وضع العنوان التالى « فروض الحرب المقدسة Obligations de La guerre sainte على رأس فقرة تدعو دون أى جدال إلى حمل السلاح ، وإن لم يكن لها ذلك الطابع الذى ينسب إليها كيف لا يقتنع القارئ الذى لا يقرأ القرآن إلا مترجمًا بأن على المسلم فرض أداء « الحرب المقدسة » .

المملكة العربية السعودية . ثم تلا ذلك استقبال البابا بولس السادس لكبار علماء العربية السعودية عام ١٩٧٤ استقبالاً رسميًا . هنا نرى بجلاء أكثر الدلالة الروحية العظيمة لاستقبال غبطة الأسقف الشنجر El Chonger للعلماء بكاتدرائية Strasbourg ، ففى تلك الزيارة دعا الحبر العلماء لأداء فريضة الصلاة ببهو كاتدرائيته ، وقد أدى هؤلاء الصلاة أمام المذبح متوجهين إلى القبلة .

وإذن فإذا كان ممثلو العالمين المسلم والمسيحى على أعلى المستويات يتفاهمون بهذه الكيفية فى إخلاصهم لرب واحد ، وفى احترامهم المتبادل لاختلافهم ، ويتفقون على إقامة حوار دينى . أليس طبيعيًا ، والحال هذه ، أن تقام المقابلات بين مختلف جوانب الكتب المقدسة . إن موضوع المقابلة هنا هو دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعطيات العلمية والمعلومات المتعلقة بصحة النصوص . ويجب أن تقام هذه الدراسة على القرآن مثلما تم ذلك بالنسبة للتوراة والإنجيل .

لم تكن العلاقات بين الأديان والعلوم متماثلة فى كل الأماكن ، وعبر مختلف الأزمنة، الأمر الذى لا جدال فيه هو أن ليست هناك أية إدانة للعلم فى أى كتاب مقدس من كتب أديان التوحيد . ولكن علميًا ، علينا أن نعترف بأن العلماء قد لاقوا مصاعب جمة من السلطات الدينية لبعض الأديان . ففى الوسط المسيحى ، وعبر قرون كثيرة بادرت سلطات مسئولة ، ودون الاعتماد على أى نصوص حقيقية للكتب المقدسة ، بمعارضة تطور العلوم . واتخذت هذه السلطات ضد العلماء الذين كانوا يحاولون تطوير العلوم والإجراءات التى نعرفها ، تلك التى دفعت بعض العلماء إلى المنفى تلافيًا للموت حرقًا أو إلى طلب المغفرة بتعديل مواقفهم وبالتماس العفو . وفى هذا الشأن تذكر دائمًا قضية جاليليو الذى حوكم لأنه استأنف مكتشفات قوبرنيق الخاصة بدوران الأرض . ولقد أدين جاليليو بسبب تفسير خاطئ للتوراة . لأنه ليس هناك نص مقدس يمكن الاستشهاد به بشكل له قيمة ضد جاليليو .

أما فى الإسلام فعمومًا كان الموقف إزاء العلم مختلفًا ، إذ ليس هناك أوضح من ذلك الحديث الشهير للنبى ﷺ الذى يقول : « **اطلبوا العلم ولو فى الصين** » . أو ذلك

الحديث الآخر الذى يقول إن طلب العلم فرض على كل مسلم وكل مسلمة . هناك أمر رئيسى : القرآن ، كما سنرى فيما بعد فى هذا الجزء من الكتاب ، إلى جانب أنه يدعو إلى المواظبة على الاشتغال بالعلم ، فإنه يحتوى أيضًا على تأملات عديدة خاصة بالظاهرات الطبيعية ، وبتفاصيل توضيحية تتفق تمامًا مع معطيات العلم الحديث . وليس هناك ما يعادل ذلك فى التوراة والإنجيل .

ومع ذلك فمن الخطأ أن نعتقد بأنه لم يكن هناك فى أى عصر من تاريخ الإسلام مسلمون اتخذوا موقفًا آخر إزاء العلم . فمن الثابت أنه قد أسئ فى بعض العصور فهم واجب التعليم وتعليم الآخرين ، وإن فى العالم الإسلامى ، وكما فى العوالم الأخرى ، حاول البعض إيقاف التطور العلمى . ولكن علينا أن نتذكر أن فى عصر عظمة الإسلام، أى بين القرن الثامن والقرن الثانى عشر من العصر المسيحى ، وعلى حين كانت تفرض القيود على التطور العلمى فى بلداننا المسيحية ، أنجزت كمية عظيمة من الأبحاث والمكتشفات بالجامعات الإسلامية .. فى ذلك العصر كان الباحث بهذه الجامعات يجد وسائل ثقافية عظيمة . ففى قرطبة كانت مكتبة الخليفة تحتوى على أربعمائة ألف مجلد . وكان ابن رشيد يعلّم بها . وبها أيضًا كان يتم تناقل العلم اليونانى ، والهندى والفارسى . لهذا السبب كان الكثيرون يسافرون من مختلف بلاد أوربا للدراسة بقرطبة مثلما يحدث فى عصرنا أن نسافر إلى الولايات المتحدة لتحسين وتكميل بعض الدراسات . ولكم هى كثيرة تلك المخطوطات القديمة التى وصلت إلينا بواسطة الأدباء العرب ناقلة بذلك الثقافة إلى البلاد المفتوحة ... ! ولكم نحن مدينون للثقافة العربية فى الرياضيات (فالجبر عربى) وعلم الفلك والفيزياء (بصريات) والجيولوجيا وعلم النباتات والطب (ابن سينا) إلى غير لذك . لقد اتخذ العلم لأول مرة صفة عالمية فى جامعات العصر الوسيط الإسلامية . فى ذلك العصر كان الناس أكثر تأثرًا بالروح الدينية ، مما هم عليه فى عصرنا ... ! ولكن ذلك لم يمنعهم من أن يكونوا فى آن واحد مؤمنين وعلماء . كان العلم الأخ التوأم للدين . لكن كان ينبغى على العلم ألا يكف عن أن يكون كذلك .

كانت البلاد المسيحية . فى تلك الفترة من القرون الوسطى . فى ركود وتزمت مطلق توقف البحث العلمى . ليس بسبب التوراة والإنجيل ، وإنما – وعلينا أن نكرر ذلك– بأيدى هؤلاء الذين كانوا يدعون أنهم خدام التوراة والإنجيل . وبعد عصر النهضة فى أوربا ، كان رد الفعل الطبيعى أن يأخذ العلماء بثأرهم من منافسى الأمس ، وهذا الثأر مستمر حتى اليوم ، لدرجة أن التحدث حاليًا فى الغرب عن الله فى الأوساط العلمية يعتبر فعلاً علامة على الرغبة فى التفرد . ولهذا الموقف تأثيره السيئ على العقول الشابة (والمسلمة منها أيضًا) ، التى تتلقى تعليمنا الجامعى .

وكيف لا يكون الأمر هكذا ، وخاصة عندما نعرف المواقف المتطرفة التى اتخذها أبرز علمائنا . لقد حاول عالم بارز – حصل على جائزة نوبل فى الطب فى السنوات الأخيرة – حاول أن يجعلنا نقبل فى كتاب له موجه للجمهور الواسع ، بأن المادة الحية قد استطاعت أن تخلق نفسها بنفسها ، وأن ابتداء من هذه المادة الحية الأولية ، تشكلت كائنات حية منظمة لتنتهى إلى ذلك النظام المعجز ، نظام الإنسان ، وكل ذلك تحت تأثير ظروف خارجية متنوعة .

ألا يجب على معجزات المعرفة العلمية المعاصرة فى ميدان الحياة أن تقود الإنسان الذى يتأمل إلى نتيجة عكسية تمامًا ... ؟ فذلك التنظيم الذى يتحكم فى ميلاد الحياة وفى الحفاظ عليها ، ألا يراه كل من يدرسه متزايدًا فى التعقد ... ؟ بل كلما ازدادت معرفة هذا التنظيم فى تفاصيله أثار الإعجاب والدهشة . ألا تقود المعرفة به إلى اعتبار جانب الصدفة فى ظاهرة الحياة أمرًا يتناقض الاعتقاد بصحته ... ؟ كلما تقدمنا فى امتلاك العلم – وخاصة فيما يتعلق بكل ما هو متناه فى الصغر – ازدادت الحجج القائلة بوجود الخالق بلاغة .. ولكن الإنسان بدلاً من أن يمتلئ بالتواضع أمام هذه الوقائع ينتفخ تكبرًا . هو يعتقد أن من سلطانه السخرية من فكرة الله ، كما يسخر بكل ما يجد على طريقه إذا حدث أن شكل هذا عقبة أمام متعته وشهيته للتمتع . ذلك هو المجتمع المادى فى تمام توسعه الآن فى الغرب .

ما هى إذن القوى الروحية التى يمكن دفعها لمجابهة تلويث كثير من العلماء المعاصرين للفكر ... ؟

فأمام هذه الموجة المادية وغزو الإلحاد للغرب يظهر عجز المسيحية واليهودية عن الصمود . كل منهما غارق فى الحيرة . ألا نرى من عقد لآخر تناقصًا خطيرًا فى مقاومة ذلك التيار الذى يهدد باجتراف الكل .. ؟ إن المادى الملحد لا يرى فى المسيحية الكلاسيكية إلا نظامًا ابتناه البشر منذ حوالى ألفى عام لإرساء سلطة لأقلية قليلة على بشر مثلها . ولن يجد فى الكتب المقدسة المسيحية لغة تتشابه مع لغته ولو من بعيد . فهذه الكتب تحتوى على كثرة من الأمور التى لا تتفق مع المعطيات العلمية الحديثة ، ومن المتناقضات والأمور غير المعقولة . بحيث إنه يرفض النظر بعين الاعتبار إلى نصوص تريد غالبية علماء اللاهوت أن تقبلها على أنها كل لا ينفصم .

وإذا ما حدثوه عن الإسلام فإنه يبتسم بغرور لا يماثله إلا جهلة بالموضوع . وكمعظم المثقفين الغربيين ، أيًا كانت معتقداتهم الدينية ، فإنه يملك عن الإسلام كمًا هائلاً من الأفكار الخاطئة .

ومن وجهة النظر هذه فعلينا أن نسمح له ببعض الأعذار ، أولاً ، وباستثناء المواقف التى اتخذتها أعلى سلطات الكاثوليكية منذ عهد قريب ، كان الإسلام فى بلادنا ، ومنذ عهد يعرف إلى أى حد شوه تاريخ الإسلام وعقيدته وأهدافه . ثم علينا أن ندخل فى حسابنا أن الوثائق المنشورة باللغات الغربية فى هذا الموضوع ، باستثناء الدراسات الشديدة التخصص ، لا تسهل مهمة البحث لمن يريد أن يتعلم .

الواقع أن معرفة ما أنزل على النبى ﷺ ، من وجهة النظر هذه ، أمر أساسى . ولكن الحادث هو أن هناك أجزاء من القرآن ، وخاصة ما كان لها ارتباط بمعطيات العلم ، قد ترجم بشكل سيئ ، أو علق عليها بحيث يكون من حق العالم أن يدفع - وهو على حق فى الظاهر - بانتقادات لا يستحقها القرآن فى الواقع . وهناك نقطة جزئية تجدر بنا الإشارة إليها فورًا ، هذه الأخطاء الراجعة إلى الترجمة أو تلك التعليقات المغلوطة (وكثيرًا ما يجتمع الاثنان) لم تكن تثير الدهشة منذ قرن أو اثنين ، ولكنها

اليوم تصدم رجل العلم ، فأمام جملة سيئة تحتوى الترجمة لهذا السبب على دعوى غير مقبولة علميًا ، ينقاد العالم إلى أن يرفض النظر إليها بشكل جاد . وسنعطى فى الفصل الخاص بالتناسل الإنسانى مثالاً مميزًا لهذا النوع من الخطأ .

ما سبب أخطاء الترجمة تلك ... ؟ إنها ترجع إلى أن المترجمين المحدثين يستعملون فى أحيان كثيرة ، ودون روح نقدية كافة تفسيرات منعلقين قدامى . وقد كان لهؤلاء فى عصرهم عذر إعطاء تعريف غير دقيق لكلمة قد تكون متعددة المعانى . لم يكن باستطاعتهم فهم المعنى الفعلى للكلمة أو للجملة . فهناك من المعانى ما لم يظهر إلا فى أيامنا فقط بفضل معارفنا العلمية ، بمعنى آخر إننا نطرح بهذا الشكلب مشكلة ضرورة مراجعة الترجمات والتعليقات التى لم يكونوا قادرين على إنجازها بشكل ملائم فى عصرها ، على حين نملك الآن العناصر التى تستطيع أن تعطى المعانى الحقيقية . أما فيما يتعلق بنصوص التوراة والإنجيل ، فليس هناك ترجمة من هذا النوع . فالحالة التى نستشهد بها هنا تخص القرآن وحده .

لقد أثارت هذه الجوانب العلمية التى يختص بها القرآن دهشتى العميقة فى البداية . فلم أكن أعتقد قط بإمكان اكتشاف عدد كبير إلى هذا الحد من الدعاوى الخاصة بموضوعات شديدة التنوع ، ومطابقة تمامًا للمعارف الحديثة ، وذلك فى نص كتب منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنًا . فى البداية لم يكن لى أى إيمان بالإسلام . وقد طرقت دراسة هذه النصوص بروح متحررة من كل حكم مسبق وبموضوعية تامة . وإذا كان هناك تأثير ما قد مورس فهو بالتأكيد تأثير التعاليم التى تلقيتها فى شبابى ، حيث لم تكن الغالبية تتحدث عن المسلمين ، وإنما عن المحمديين لتأكيد الإشارة إلى أن المعنى به دين أسسه رجل ، وبالتالى فهو دين عديم القيمة تمامًا إزاء الله . وككثيرين كان يمكن أن أظل محتفظًا بتلك الأفكار الخاطئة عن الإسلام ، وهى على درجة من الانتشار . بحيث إننى أدهش دائمًا حين ألتقى خارج المتخصصين ، بمحدثين مستنيرين فى هذه النقاط . أعترف إذن بأننى كنت جاهلاً قبل أن تعطى لى عن الإسلام صورة تختلف عن تلك التى تلقيناها فى الغرب .

وإذا كنت قد توصلت إلى إدراك زيف الأحكام الصادرة عامة فى الغرب عن الإسلام ، فإنى مدين بذلك إلى ظروف استثنائية . ففى المملكة العربية السعودية نفسها أعطيت عناصر التقييم التى أثبتت لى درجة الخطأ فى بلادنا عن الإسلام .

وسأظل مدينًا بالعرفان وبشكل لا حد له للمغفور له جلالة الملك فيصل الذى أحيى ذكراه باحترام عميق . سيظل محفورًا فى ذاكرتى دائمًا أن كان لى الشرف الأثير أن أستمع إليه يتحدث عن الإسلام ، وأن أذكر فى حضرته بعض مشاكل تفسير القرآن فى ارتباطها مع العلم الحديث . إن كونى قد تلقيت معلومات قيمة من جلالته نفسه ، ومن حاشيته ليشكل بالنسبة لى امتيازًا خاصًا .

وعندما استطعت قياس المسافة التى تفصل واقع الإسلام عن الصورة التى اختلقناها عنه فى بلادنا الغربية شعرت بالحاجة الملحة لتعلم اللغة العربية التى لم أكن أعرفها ، ذلك حتى أكون قادرًا على التقدم فى دراسة هذا الدين الذى يجهله الكثيرون . كان هدفى الأول هو قراءة القرآن ودراسة نصه جملة بجملة مستعينًا بمختلف التعليقات اللازمة للدراسة النقدية ، وتناولت القرآن منتبهًا بشكل خاص إلى الوصف الذى يعطيه عن حشد كبير من الظاهرات الطبيعية . لقد أذهلتنى دقة بعض التفاصيل الخاصة بهذه الظاهرات ، وهى تفاصيل لا يمكن أن تدرك إلا فى النص الأصلى ، أذهلتنى مطابقتها للمفاهيم التى نملكها اليوم عن نفس هذه الظاهرات ، والتى لم يكن ممكنًا لأى إنسان فى عصر محمد ﷺ أن يكوِّن عنها أدنى فكرة . ولقد قرأت إثر ذلك مؤلفات كثيرة خصصها كتاب مسلمون للجوانب العلمية فى نص القرآن ، ولقد أتت إلىَّ تلك المؤلفات بعناصر تقييم هامة ، ولكنى لم أكتشفه بعد إى دراسة شاملة منجزة فى الغرب فى هذا الموضوع .

إن أول ما يثير الدهشة فى روح من يواجه مثل هذا النص لأول مرة هو ثراء الموضوعات المعالجة ، فهناك الخلق وعلم الفلك ، وعرض لبعض الموضوعات الخاصة بالأرض ، وعالم الحيوان ، وعالم النبات ، والتناسل الإنسانى . وعلى حين نجد فى

التوراة أخطاء علمية ضخمة لا نكتشف فى القرآن أى خطأ . وقد دفعنى ذلك لأن أتساءل : لو كان كاتب القرآن إنسانًا ، كيف استطاع فى القرن السابع من العصر المسيحى أن يكتب ما اتضح أنه يتفق اليوم مع المعارف العلمية الحديثة ؟ ليس هناك أى مجال للشك، فنص القرآن الذى نملك اليوم هو فعلاً نفس النص الأول (سيعالج الفصل التالى من هذا الجزء الثالث المشكلة) . ما هو التعليل الإنسانى الذى يمكن أن نعطيه لتلك الملاحظة ... فى رأيى ليس هناك أى تعليل ، إذ ليس هناك سبب خاص يدعو للاعتقاد بأن أحد سكان شبه الجزيرة العربية فى العصر الذى كانت تخضع فيه فرنسا للملك داجوبير Dagobert استطاع أن يملك ثقافة علمية تسبق بحوالى عشرة قرون ثقافتنا العلمية فيما يخص بعض الموضوعات .

ومن الثابت فعلاً أن فى فترة تنزيل القرآن - أى تلك التى تمتد على عشرين عامًا تقريبًا قبل وبعد عام الهجراة (٦٢٢م) كانت المعارف العلمية فى مرحلة ركود منذ عدة قرون ، كما أن عصر الحضارة الإسلامية النشط مع الازدهار العلمى الذى واكبها كان لاحقًا لنهاية تنزيل القرآن . إن الجهل وحده بهذه المعطيات الدينية والدنيوية هو الذى يسمح بتقديم الاقتراح الغريب الذى سمعت بعضهم يصوغونه أحيانًا ، والذى يقول إنه إذا كان فى القرآن دعاوى ذات صفة علمية مثيرة للدهشة . فسبب ذلك هو تقدم العلماء العرب على عصرهم ، وأن محمدًا ﷺ بالتالى قد استلهم دراساتهم . إن من يعرف ، ولو يسيرًا ، تاريخ الإسلام ، ويعرف أيضًا أن عصر الازدهار الثقافى والعلم فى العالم العربى فى القرون الوسطى لا حق لمحمد ﷺ لن يسمح لنفسه بإقامة مثل هذه الدعاوى الوهمية . فلا محل لأفكار من هذا النوع ، وخاصة أن معظم الأمور العلمية الموحى بها أو المصاغة بشكل بين تمامًا فى القرآن لم تتلق التأييد إلا فى العصر الحديث .

من هنا ندرك كيف أن مفسرى القرآن (بما فى ذلك مفسرو عصر الحضارة الإسلامية العظيم) ، قد أخطأوا حتمًا وطيلة قرون ، فى تفسير بعض الآيات التى لم يكن باستطاعتهم أن يفطنوا إلى معناها الدقيق . إن ترجمة هذه الآيات وتفسيرها

بشكل صحيح لم يكن ممكنًا إلا بعد ذلك العصر بكثير - أى فى عصر قريب منا . ذلك يتضمن أن المعارف اللغوية المتبحرة لا تكفى وحدها لفهم هذه الآيات القرآنية . بل يجب ، بالإضافة إليها وامتلاك معارف علمية شديدة التنوع . إن دراسة كهذه هى دراسة انسيكوبيدية تقع على عاتق تخصصات عدة . وسندرك ، كلما تقدمنا فى عرض المسائل المثارة ، تنوع المعارف العلمية اللازمة لفهم معنى بعض آيات القرآن .

ومع ذلك فليس القرآن كتابًا يهدف إلى عرض بعض القوانين التى تتحكم فى الكون . إن له هدفًا دينيًا جوهريًا . وأوصاف القدرة الإلهية هى المناسبة الرئيسية فى توجيه الدعوات للبشر أن يتأملوا فى أعمال الخلق . وتصاحب هذه الدعوات إشارات إلى أمور يمكن للملاحظة الإنسانية أن تدركها ، أو قوانين عرّفها الله - تلك التى تسود انتظام الكون - فى ميدان علوم الطبيعة ، وفيما يخص الإنسان على حد سواء . وهناك جزء من هذه الأقوال يسير الفهم ، ولكن هناك جزءًا آخر لا يمكن إدراك دلالته إلا إذا كان المرء يملك معارف علمية لازمة لهذا . ذلك يعنى أن إنسان القرون السالفة لم يكن باستطاعته إلا أن يتبين فى هذا الجزء من الآيات معنى ظاهرًا قاده فى بعض الأحوال إلى استخراج نتائج غير صحيحة ، وذلك بسبب عدم كفاية معرفته فى العصر المعنى به.

وربما بدت الآيات القرآنية المنتقاة من أجل دراسة جوانبها العلمية محدودة أكثر مما ينبغى فى نظر الكتاب المسلمين الذين نبهوا من قبلى إلى هذه الأمور . ففى مجموع الأمر أعتقد أننى قد احتفظت بعدد من الآيات أقل قليلاً مما اختاروه . ولكن يبدو لى أننى فى مقابل هذا ، قد أبرزت بعض آيات لم تعط لها من قبل الأهمية التى تستحق من وجهة النظر العلمية . وإذا كنت قد أخطأت بأنى لم آخذ فى اعتبارى ، فى هذه الدراسة ، الآيات التى انتقوها فإننى أرجو ألا أكون محل قسوتهم . لقد وجدت أنا أيضًا فى بعض الأحيان ، وفى بعض الكتب تفسيرات علمية لا تبدو سديدة . وإننى أقدم لهذه الآيات تفسيرًا شخصيًا بروح متحررة تمامًا وبنية خالصة .

ولقد بحثت أيضًا عما إذا كان فى القرآن إشارات إلى ظاهرات يسهل على الإدراك البشري فهمها ، وإن ام تكن قد تلقت بعد توكيدًا من العلم الحديث . من هذه الناحية أعتقد بأن القرآن يحتوى على إشارات بوجود كواكب فى الكون تشبه الأرض ، وينبغى ألا ننسى أن كثيرًا من العلماء يرون هذا الأمر معقولاً تمامًا دون وجود معطيات حديثة قادرة على إعطاء أقل توكيد بهذا . لقد رأيت أن من واجبى ذكر هذا ، ولكن مع كل التحفظات اللازمة .

ولو كنت قد قمت بدراسة كهذه منذ ثلاثين عامًا ، لأضفت أمرًا آخر يصرح به القرآن إلى ذلك المذكور فيما يخص علم الفلك وهو غز الفضاء . ففى ذلك العصر ، وإثر أولى محاولات صواريخ الفضاء ، تنبأ البعض بأنه ذات يوم سيملك الإنسان الوسائل المادية التى ستسمح له بالإفلات من الطبقة الجوية المحيطة بالأرض وباستكشاف الفضاء . فى ذلك الوقت كان معروفًا أن هناك آية قرآنية تتنبأ بأن الإنسان ذات يوم سيحقق هذا النصر ، وقد تم الآن التأكد من هذا .

إن المقابلة بين الكتب المقدسة والعلم تستعين بمعلومات تتصل بالحقيقة العلمية ، وذلك بالنسبية للتوراة والإنجيل والقرآن . وحتى تكون هذه المقابلة ذات قيمة يجب أن تكون الحجة العلمية المعتمد عليها ثابتة تمامًا ، وألا تكون محل جدال . إن الذين يتذمرون ويماطلون فى قبول تدخل العلم فى عملية تقييم الكتب المقدسة ينكرون أن العلم يستطيع أن يشكل مقياسًا فى مقارنة ذات قيمة (سواء كان المعنى التوراة والإنجيل اللذين لا يحتملان المقارنة بلا خسارة - وقد رأينا دواعى هذا - أو القرآن الذى لا يخشى عليه منها) : فالعلم كما يزعمون متغير مع الزمن ، وما يمكن قبوله اليوم قد يرفض غدًا .

هذا الرأى يتطلب التعديل : يجب التفريق بين النظرية العلمية وبين الفعل موضوع الملاحظة ، والذى يمكن رصده بالشكل المطلوب . فغاية النظرية أن تشرح ظاهرة أو مجموعة من الظاهرات عسيرة الفهم . النظرية تتغير فى كثير من الأحوال ، هى قابلة للتعديل ، أو لأن تحل نظرية أخرى محلها عندما يسمح التقدم العلمى بتحليل أحسن

للأمور ، وبتصور شرح آخر أكثر قيمة ، أما الفعل موضوع الملاحظة فهو على عكس ذلك . إذ إنه غير قابل للتعديل : قد يمكن تعريف سماته بشكل أحسن ، ولكنه يظل على ما كان من قبل . فإثبات أن الأرض تدور حول الشمس والقمر حول الأرض . فهذا ما لن يرجع فيه أبدًا ، وقد يمكن فى المستقبل تحديد المدارات بشكل أحسن .

إن تبصرى بالطابع المتغير للنظريات هو الذى جعلنى أستبعد ، على سبيل المثال ، آية قرآنية ظن أحد علماء الفيزياء المسلمين أنها تعلن عن مفهوم « ضد المادة ، Antima-tiere » وتلك نظرية مثار جدال حاليًا . وعلى عكس هذا يمكن ، وعن حق ، منح كل الانتباه لآية قرآنية تذكر الأصل المائى للحياة ، وتلك ظاهرة ، وإن كنا لن نقدر أبدًا على التحقق منها ، فهناك برغم ذلك عدة حجج تشهد فى صالحها . أما فيما يتعلق بالأمور التى يمكن أن تخضع للملاحظة مثل تطور الجنين البشرى ، فيمكن تمامًا مقابلة المراحل الموصوفة فى القرآن مع معطيات علم الأجنة الحديث لنكتشف اتفاق الآيات القرآنية التام مع العلم .

ولقد اكتملت هذه المقابلة بين القرآن والعلم بمقارنتين أخريين : فمن ناحية هناك المواجهة بين المعارف الحديثة ومعطيات التوراة والإنجيل المنصبة على نفس الموضوعات، ومن ناحية أخرى هناك المقارنة بين نفس وجهة النظر العلمية لمعطيات القرآن - الكتاب الذى أنزله الله على النبى ﷺ - ومعطيات الأحاديث ، أى كتب أخبار وأقوال النبى ﷺ وهى مستقلة عن الكتاب المنزل .

وسيجد القارئ بالتفصيل فى نهاية هذا الجزء الثالث من الكتاب نتائج مقارنة روايات التوراة بروايات القرآن فيما يتعلق بحدث واحد ، وقد خضع الكل للنقد العلمى . وعلى سبيل المثال فقد تم اختيار مسألتى الخلق والطوفان . واتضح بالنسبة لكل منهما ، عدم اتفاق العلم مع أقوال التوراة ، ولكنا سنرى اتفاقًا كاملاً بين أقوال القرآن الخاصة بنفس المسائل وبين العلم الحديث . ومن ذلك يمكن ملاحظة الفروق التى تجعل بالدقّة أحد النصين مقبولاً علميًا فى العصر الحديث على حين تجعل الآخر غير مقبول .

هذه الملاحظة البينة ذات أهمية من الدرجة الأولى ، ذلك أن اليهود والمسيحيين والملحدين فى البلاد الغربية يجمعون على الزعم - وذلك دون أدنى دليل - بأن محمدًا ﷺ كتب أو استكتب القرآن محاكيًا التوراة ؛ ويزعم البعض أن هناك أقوالاً قرآنية فى التاريخ الدينى تعيد أقوال التوراة والإنجيل . مثل هذا الموقف لا يقل استخفافًا عن ذلك الذى يقود إلى القول بأن المسيح أيضًا قد خدع معاصريه باستلهامه للعهد القديم فى أثناء تبشيره . فكل إنجيل متى ، كما رأينا ، يعتمد على تلك الاستمرارية مع العهد القديم . أى مفسر هذا الذى تعن له فكرة أن ينزع عن المسيح صفته كرسول الله لذلك السبب ... ؟ ومع ذلك فهكذا فى الغرب يحكم على محمد ﷺ فى غالب الأحيان ، يزعمون أنه لم يفعل أكثر من أن نقل التوراة والإنجيل ، وذلك حكم بلا محاكمة لا يضع مطلقًا فى اعتباره أن القرآن والتوراة والإنجيل قد تعطى عن نفس الحدث روايات مختلفة . لكنهم يفضلون السكوت على اختلاف الروايات . ثم يعلنون أنها متماثلة ، وبالتالى يتحاشون عن تدخل المعارف العلمية . وسندرس هذه المسائل بالتفصيل فيما يتعلق بالخلق وبالطوفان .

إن مجموعات الأحاديث بالنسبة لمحمد ﷺ هى بمثابة الأناجيل بالنسبة للمسيح ، إنها أخبار أفعال وأقوال النبى ﷺ وكتابها ليسوا بشهود عيان ، وذلك على الأقل بالنسبة لمجموعات الأحاديث المشهورة بصحتها ، وهى لاحقة بشكل جلى لعصر محمد ﷺ . إنها لا تؤلف بأى شكل من الأشكال كتبًا تحتوى على تنزيل مكتوب . ليست الأحاديث قول الله ، ولكنها تقص أقوال النبى ﷺ . فى هذه الكتب المنتشرة جدًا دعاوى تحتوى على أخطاء من وجهة النظر العلمية ، وخاصة فيما يتعلق بالوصفات الطبية . ولكن من الذى يستطيع أن يجزم بصحة هذه التصريحات التى تنسب إلى النبى ﷺ ؟ وبالطبع فإننا نضع جانبًا كل ما يمكن أن يخص المشاكل ذات الصبغة الدينية ، والتى لم ينظر إليها هنا فيما يتعلق بالأحاديث . هناك أحاديث مظنون فى صحتها والعلماء المسلمون أنفسهم يناقشونها . وإذا كان الجانب العلمى لبعض هذه الأحاديث مذكورًا فى هذا الكتاب فذلك ، جوهرى ، لإبراز ما يفرقها من وجهة النظر هذه عن القرآن ، أى القرآن الذى لا يحتوى على أى دعوى علمية غير مقبولة . وكما سنوى فالفرق مذهل حقًا .

هذه الملاحظة الأخيرة تدحض فرض هؤلاء الذين يرون فى محمد ﷺ مؤلفًا للقرآن . كيف يمكن للإنسان - كان فى بداية أمره أميًا - ثم أصبح فضلاً عن ذلك سيد الأدب العربى على الإطلاق ، أن يصرح بحقائق ذات طابع علمى لم يكن فى مقدور أى إنسان فى ذلك العصر أن يكونها ، وذلك دون أن يكشف تصريحه عن أقل خطأ من هذه الوجهة .

إن الاعتبارات التى ستتناول بالتفصيل فى هذه الدراسة من وجهة النظر العلمية فقط ستقود إلى الحكم بعدم معقولية أن إنسانًا يعيش فى القرن السابع من العصر المسيحى قد استطاع أن يصدر عبر القرآن - وفيما يتعلق بموضوعات متعددة - أفكارًا لا تنتمى إلى أفكار عصره ، وتتفق مع ما أمكن إثباته بعد ذلك بقرون عديدة . فى رأيى ليس هناك تفسير وضعى للقرآن .

صحة القرآن
تاريخ تحريره

صحة القرآن التى لا تقبل الجدل تعطى النص مكانة خاصة بين كتب التنزيل ، ولا يشترك مع نص القرآن فى هذه الصحة لا العهد القديم ولا العهد الجديد . وقد عرضنا فى الجزأين الأولين من هذا الكتاب لتعديلات العهد القديم ، والأناجيل قبل أن تصل إلينا بالحالة التى هى عليها اليوم ، وليس الأمر كذلك بالنسبة للقرآن لسبب بسيط ، وهو أن القرآن قد ثبت فى عصر النبى ﷺ ، وسنرى كيف تمت عملية التثبيت هذه .

فيما يخص هذا الموضوع فالفروق التى تفصل القرآن عن الكتب المقدسة الأخرى لا ترجع مطلقًا - فى جوهر الموضوع - إلى مسائل خاصة بالتاريخ ، تلك التى يدفع بها البعض دائمًا دون أن يهتموا بالظروف التى سادت تأليف كل من النصوص اليهودية المسيحية ، ودون أن يهتموا بظروف تنزيل القرآن على النبى - ﷺ - ويزعم البعض أيضًا أن النص الذى يرجع إلى القرن السابع الميلادى يتمتع بفرص أكبر للوصول إلينا دون تحريف من نصوص أخرى قد يصل قدمها إلى خمسة عشر قرنًا إضافيًا . وإذا كانت الملاحظة سديدة فإنها لا تفى بالشرح ، فهى تهدف إلى إيجاد العذر للتعديلات التى طرأت على النصوص اليهودية المسيحية عبر السنين أكبر مما تهدف للتأكيد ؛ ولم يتعرض النص القرآنى ، لأى تحريف من يوم أن أنزل على الرسول ﷺ حتى يومنا هذا .

أما فيما يخص العهد القديم ، فإن تعدد كتاب نفس الرواية ، بالإضافة إلى تعدد المرجعات لبعض الكتب على عدة فترات قبل العصر المسيحى ، هو من أسباب الخطأ والتناقض ، وأما فيما يخص الأناجيل ، فلا يستطيع أحد أن يجزم بأنها تحتوى دائمًا على رواية أمينة لرسالة المسيح ، أو على رواية لأعماله تتفق بدقة تامة مع الواقع . إن عمليات التحرير المتوالية تبين كما رأينا ، افتقار هذه النصوص إلى الصحة . وزيادة على ذلك فليس كتّاب هذه النصوص شهود عيان .

وبالمثل لابد من التنويه إلى الفرق الواجب إقامته بين القرآن - أى كتاب التنزيل المكتوب ، وبين الأحاديث - أى مجموعات روايات أعمال وأقوال محمد ﷺ . لقد شرع بعض الصحابة فى كتابتها فور موت النبى ﷺ : وبالنظر إلى احتمال تسلل الخطأ البشرى إليها ، فقد أعيدت مراجعتها بعد ذلك . إن أكثر النصوص الموثوق بها الآن يرجع عهدها إلى ما بعد موت النبى ﷺ بكثير . ودرجة صحة الأحاديث ، مثل الأناجيل، متنوعة ، وكما لم يثبت أى إنجيل فى عصر المسيح (فقد كتبت كلها بعد انتهاء رسالته على الأرض) فليس هناك أية مجموعة أحاديث قد تثبت نصوصها فى عصر النبى ﷺ .

ويختلف الأمر بالنسبة للقرآن ، ففور تنزيله ، وأولاً بأول ، كان النبى ﷺ ، والمؤمنون من حوله يتلونه عن ظهر قلب ، وكان الكتبة من صحبه يدونونه . إذن فالقرآن يتمتع منذ البداية ، بعنصرى الصحة هذين اللذين لا تتمتع بهما الأناجيل ، وظل الأمر هكذا حتى موت النبى ﷺ . وفى عصر لا يستطيع فيه الكل أن يكتب ، وإن كان يستطيع أن يحفظ عن ظهر قلب ، تصبح التلاوة ذات فائدة لا تقدّر ، وذلك لإمكانياتها التحقيق العديدة التى تعطيها ساعة التثبيت النهائى للنص .

لقد نزل القرآن على محمد ﷺ . ويبدأ التنزيل بالآيات الأولى من سورة العلق (٩٦) ، وينقطع عندئذ لثلاث سنوات ليستأنف بعد ذلك طيلة عشرين عامًا حتى موت النبى ﷺ فى سنة ٦٣٢ ميلادية . أى قبل عشرة أعوام من الهجرة (٦٢٢) وعشرة أخرى بعدها .

كانت الأيات هى أول آيات نزلت عليه (سورة العلق ٩٦ الآيات من ١ إلى ٥)

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[1]

---

(١) أثارت هذه الآيات الاضطراب فى قلب محمد ﷺ . وسنعود فيما بعد إلى تفسيرها . خاصة فى علاقتها مع واقع أن محمداً ﷺ لم يكن يعرف لا القراءة ولا الكتابة فى تلك الفترة .

ويشير الأستاذ حميد الله فى مقدمج ترجمته للقرآن أن أحد موضوعات أول الآيات التى نزلت على محمد ﷺ هو « مدح القلم باعتباره وسيلة أساسية للمعرفة » ومن هنا يفهم « اهتمام النبى ﷺ بحفظ القرآن مكتوبًا » .

هناك نصوص تثبت صراحة أن ما قد أنزل على محمد ﷺ من القرآن قبل مغادرته مكة إلى المدينة (أى قبل عام الهجرة) كان مثبوتًا بالكتابة . وسنرى كيف أن القرآن نفسه يقرر هذا . فمن المعروف أن محمدًا ﷺ وصحبه من حوله قد اعتادوا تلاوة النص المنزّل ، إذن فمن غير المعقول أن يشير القرآن إلى أمور لا تتفق مع الواقع ، على حين يمكن التحقق منها لدى كتبة النص من صحب النبى ﷺ ، وهناك أربع سور تشير إلى تسجيل القرآن قبل أن يغادر النبى ﷺ مكة عام ٦٢٢ . وهى سورة عبس (٨٠) الآيات من ١١ إلى ١٦ :

﴿ كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ * فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ .

وقد كتب يوسف على فى التعليقات على ترجمته للقرآن عام ١٩٣٤ أنه كان يوجد ، ساعة تنزيل هذه السورة ، اثنان وأربعون أو خمس وأربعون سورة أخرى بين أيدى مسلمى مكة (من مجموع كلى قدره مائة وأربع عشرة سورة) .

سورة البروج ٨٥ الآيتان ٢١، ٢٢ :

﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ .

سورة الواقعة ٥٦ الآيات من ٧٧ إلى ٨٠ :

﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

سورة الفرقان ٢٥ الآية ٥ :

﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ .

والمقصود هنا الإشارة إلى اتهامات أعداء النبى ﷺ له بالكذب والادعاء . فقد كانوا يشيعون أن أساطير الأولين كانت تملى عليه ، وأنه بدوره اكتتبها (الكلمة مثار جدل ، ويمكن أن تعنى أنه كاتب يكتب أو يستكتب ، ولكن ينبغى أن نتذكر أن محمدًا ﷺ كان أميًا) .. وأياً كان الأمر فالآية تشير إلى هذا التسجيل بالكتابة الذى ينوه به حتى أعداء محمد ﷺ .

وهناك سورة نزلت بعد الهجرة تشير مرة أخيرة إلى تلك الصحائف التى كتبت عليها وصايا إلهية .

سورة البينة ٩٨ ، الآيتان ٢، ٣ :

﴿ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۞ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ .

هكذا يخبرنا القرآن نفسه بتسجيله فى حياة النبى ﷺ . ومن المعلوم أنه كان حول محمد ﷺ كتبة عديدون ، ومنهم زيد بن ثابت المشهور الذى خلد اسمه .

ويصف الأستاذ حميد الله جيدًا فى مقدمة ترجمته للقرآن (١٩٧١) الظروف التى تم فيها تسجل نص القرآن حتى وفاة النبى ﷺ يقول :

« تجمع المصادر على أن النبى ﷺ كان يدعو واحدًا من صحابته المتأدبين كلما نزل جزء من القرآن ليمليه ، ويحدد فى الوقت نفسه مكانة هذا الجزء الجديد فى مجموع ما نزل عليه سلفًا .. وتحدد الروايات أن النبى ﷺ كان يطلب إلى كاتبه بعد الإملاء أن يقرأ له ما كتب حتى يستطيع أن يصحح ما قد يكون ناقصًا .. وهناك رواية أخرى مشهورة تقول بأن النبى ﷺ كان يتلو أمام جبريل فى رمضان كل عام القرآن الذى أنزل عليه إلى حينذاك ، وأن جبريل قد استقرأ النبى ﷺ إياه مرتين فى شهر رمضان السابق على وفاته . ومعلوم أيضًا أن المسلمين فى عصر النبى ﷺ كانوا قد اعتادوا السهر فى رمضان يسمعون القرآن كله فى صلاة التراويح . وتضيف مصادر عديدة أن زيد بن ثابت ، كاتب النبى ﷺ كان حاضرًا عند آخر تجميع للنص ؛ وهناك مصادر تتحدث عن كتبة آخرين عديدين » .

وقد استخدمت أشياء متنوعة لإتمام أول تدوين للقرآن : مثل الرق والجلد والألواح الخشبية وعظام لوح البعير وأحجار الحفر الطريّة .

ولكن محمدًا ﷺ قد أوصى المؤمنين فى الوقت ذاته بحفظ القرآن عن ظهر قلب ؛ وذلك ما فعلوا بالنسبة لكل ما يتلى منه عند الصلاة أو بالنسبة لجزء منه . وهكذا ظهر الحافظون الذين كانوا يعرفون كل القرآن حفظًا وينشرونه . ولقد اتضحت القيمة الثمينة لذلك المنهج المزدوج فى حفظ النص بالكتابة وبالذاكرة .

وبعد موت النبى ﷺ بقليل (٦٣٢) طلب خليفته أبو بكر ، أول خليفة للمسلمين إلى زيد بن ثابت أول كاتب للنبى ﷺ أن يعد نسخة من القرآن ففعل . ثم قام زيد بن ثابت ، اتباعًا لمشورة عمر (ولم يكن خليفة بعد) باستشارة كل ما استطاع أن يجمع من وثائق بالمدينة . من شهادات الحافظين إلى نسخ الكتّاب المكتوبة على أشياء مختلفة وفى حوزة بعض الخاصة ، كل ذلك لتلافى أى خطأ ممكن فى التسجيل . وهكذا أمكن الحصول على نسخة أمينة للكتاب .

وتقول لنا المصادر أن عمر ، الذى ولى أبا بكر فى الخلافة سنة ٦٣٤ ، هو الذى جعل من القرآن مصحفًا واحدًا . وقد احتفظ به وأعطاه عند موته إلى ابنته حفصة زوج النبى ﷺ .

ثم كلف ثالث الخلفاء الراشدين ، عثمان ، الذى مارس الخلافة من ٦٤٤ إلى ٦٥٥ ميلادية ، لجنة من الخبراء بعمل المقابلة الكبيرة التى تحمل اسمه . لقد رصدت هذه المقابلة صحة الوثيقة المقامة فى عهد أبى بكر ، والتى كانت فى حوزة حفصة فى ذلك الوقت . وقد استشارت اللجنة مسلمين يعرفون النص عن ظهر قلب . وقد تمت عملية تحقيق صحة النص هذه بمنتهى الدقة . ورؤى ضروورة مطابقة الشهادات ، وذلك لضبط أقل آية تسمح بأى جدل : ومن المعلوم أن بعض آيات القرآن قد تنسخ آيات أخرى تخص الفروض ، وذلك أمر مفهوم تمامًا إذا تذكرنا أن رسالة محمد ﷺ تمتد على عشرين عامًا تقريبًا . هكذا إذن انتهى إلى نص تتبع السور فيه ، كما يعتقد اليوم ، نفس النظام الذى اتبعه النبى ﷺ فى تلاوته الكاملة له أيام شهر رمضان كما رأينا أعلاه .

ورب سائل عن الأسباب التى قادت الخلفاء الثلاثة الأول أبا بكر وعمر وعثمان بشكل خاص إلى القيام بتلك التجمعات والمقابلات . إنها أسباب بسيطة : فقد انتشر الإسلام بسرعة فائقة فى العقود الأولى التى تلت وفاة محمد ﷺ . وقد تم هذا الانتشار وسط شعوب كانت تتحدث بلغات غير العربية . وكان لابد من الاحتياطات اللازمة لضمان انتشار النص فى نقائه الأصلى . وكان ذلك هو هدف التحقيق الذى قام به عثمان .

وقد أرسل عثمان نسخًا من هذا النص المحقق إلى مراكز الإمبراطورية الإسلامية ؛ وهكذا ، كما يقول الأستاذ حميد الله ، توجد اليوم بطشقند واستانبول نسخ تنسب إلى عثمان . وإذا نحينا جانبًا ما قد يكون من أخطاء النسخ ، فإن أقدم الوثائق المعروفة فى أيامنا ، والتى وجدت فى كل العالم الإسلامى تطابق كل منها الأخرى تمامًا . كذلك الأمر أيضًا بالنسبة للمخطوطات التى فى حوزتنا فى أوربا (توجد بالمكتبة الوطنية بباريس قطع يرجع تاريخها - حسب تقدير الخبراء - إلى القرنين الثامن والتاسع الميلاديين أى إلى القرنين الثانى والثالث من الهجرة) . إن هذا الحشد من النصوص القديمة المعروفة متطابق كله فيما عدا بعض النقاط الطفيفة جدًا التى لا تغير شيئًا من المعنى العام للنص ، برغم أن السياق قد يقبل أحيانًا أكثر من إمكانية للقراءة ، وذلك يرجع إلى أن الكتابة القديمة أبسط من الكتابة الحالية[1] .

وقد رتبت السور ، وهى مائة وأربع عشرة سورة ، حسب تناقص طولها ، ولكن مع بعض الاستثناءات ، ولم يتقيد بالترتيب التاريخى للتنزيل ، غير أنه معروف فى غالب الأحوال ، ثم هناك عدد كبير من الروايات المذكورة عبر أماكن متعددة من النص ، وذلك ما يسبب بعض التكرار ، غير أن هذا التكرار يضيف فى أحيان كثيرة تفاصيل إلى رواية مذكورة بشكل غير كامل فى مكان آخر . وكل ما يمكن أن تكون له صلة بالعلم الحديث موزع فى الكتاب ، ككثير من الموضوعات التى يعالجها القرآن ، دون أى ترتيب واضح .

---

(١) إن عدم وجود نقاط الإعجاز كان يسمح مثلاً بقراءة فعل متعد كما لو كان مبنيًا للمجهول وفى بعض الحالات بقراءة المذكر مؤنثًا . ولكن فى غالب الأحيان ، لم يؤد هذا إلى أية نتائج هامة . فالسياق العام يثبت المعنى فى عديد من الحالات .

خلق السموات والأرض

نقاط الاختلاف والتجانس مع رواية التوراة[1]

يختلف القرآن عن العهد القديم من حيث إنه يقدم رواية كاملة عن الخلق . فبدلاً من الرواية الواحدة المستمرة نجد فى أماكن متعددة من القرآن فقرات تذكر بعض جوانب رواية الخلق . وهى تشتمل على كثير أو قليل من التفصيلات حول أحداث الخلق. ولكى تكون هناك فكرة واضحة عن الطريقة التى سيقت بها هذه الأحداث ، لابد من تجميع الفقرات المتناثرة فى عدد هام من السور .

وليس تناثر روايات متعددة تختص بموضوع واحد خاص بروايات الخلق فى القرآن. فالقرآن يعالج بهذا الشكل عديدًا من الموضوعات الهامة ، سواء أكان المقصود ظاهرات دنيوية ، أو سماوية، أو مسائل خاصة بالإنسان تهم رجل العلم، وسيجد القارئ فى الصفحات التالية مجموعات الآيات الخاصة بكل موضوع من هذه الموضوعات .

يدعى كثير من المؤلفين الأوربيين أن رواية القرآن عن الخلق قريبة إلى حد كبير من رواية التوراة ، وينشرحون لتقديم الروايتين بالتوازى . إنى أعتقد أن هذا مفهوم خاطئ ، فهناك اختلافات جلية . ففيما يتعلق بمسائل ليست ثانوية مطلقًا من وجهة النظر العلمية نكتشف فى القرآن دعاوى لا يجدى البحث عن معادل لها فى التوراة. كما أن التوراة ، من ناحية أخرى ، تحتوى على معالجات تفصيلية لا معادل لها فى القرآن .

إن التجانسات الظاهرية بين النصين معروفة جدًا ، فبين هذه التجانسات نجد فى الوهلة الأولى أن ترقيم مراحل الخلق المتعاقبة هو نفسه فى النصين ؛ فأيام الخلق الستة فى التوراة تعادل الأيام الستة فى القرآن . ولكن المشكلة ، فى الواقع ، أكثر تشابكًا وتستحق وقفة عندها .

(١) رواية التوراة المقصودة هنا هى الرواية المسماة بالكهنوتية التى تحدثنا عنها فى الجزء الأول من هذا الكتاب . أما الرواية المسماة باليهودية فهى شديدة الإيجاز فى نص التوراة الحالى . بحيث إنها لا تستحق الاعتبار فى هذا المقام .

مراحل الخلق الستة

تذكر رواية التوراة ودون أى غموض ، تمام الخلق فى ستة أيام يتبعها يوم الراحة ، يوم السبت ، وذلك بالتجانس مع أيام الأسبوع . ولقد رأينا أن هذه الطريقة فى السرد التى استخدمها كهنة القرن السادس قبل الميلاد تستجيب لنيات الحض على ممارسة سبت الراحة : فعلى كل يهودى أن يستريح يوم السبت[1] كما فعل الرب بعد أن عمل طيلة أيام الأسبوع الستة .

إن كلمة « يوم » كما يفهم من التوراة تعرف المسافة الزمنية بين إشراقين متواليين للشمس ، أو غروبين متواليين ، وذلك بالنسبة لسكان الأرض . إن اليوم ، وقد تحدد بهذا المعنى ، يرتبط وظيفيًا بدوران الأرض حول نفسها . وواضح تمامًا أنه من المستحيل منطقيًا أن نتحدث عن « الأيام » ، بهذا المعنى الذى تحدد ، على حين أن العملية المركبة التى ستؤدى إلى ظهورها ، أى وجود الأرض ودورانها حول الشمس ، لم تكن قد أنشئت بعد عند أول مراحل الخلق ، وذلك بحسب رواية التوراة . لقد أشرنا إلى هذه الاستحالة فى الجزء الأول من هذا الكتاب .

أما إذا رجعنا إلى نصوص غالبية ترجمات القرآن فإننا نقرأ فيها - بالتجانس مع ما تعلمنا التوراة به - أن القرآن يقول هو أيضًا بامتداد عملية الخلق على مدة ستة أيام. ولا يمكن بالطبع أن نعتب على المترجمين أنهم قد ترجموا كلمة « يوم » بالكلمة المعادلة لأكثر المعانى شيوعًا للكلمة العربية . وهكذا تعبر عنها الترجمات عادة ما دمنا نقرأ فى سورة الأعراف ٧ الآية ٥٤ : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ .

وقليلة حقًا ترجمات القرآن أو التعليقات التى انبه إلى أن كلمة أيام ، فى الواقع ، يجب أن تفهم على أنها تعنى « مراحل » . بل لقد ادعى البعض القول بأنه إذا كانت نصوص القرآن الخاصة بالخلق قد قسمت مراحل الخلق فى « أيام » فقد كان ذلك

(١) أتت كلمة « سبت » من فعل فى العبرية يعنى الارتياح .

يهدف عن قصد إلى استئناف ما كان الكل ، من يهود ومسيحيين فى فجر الإسلام ، يعتقد به ، وذلك تجنبًا لمجابهة اعتقاد منتشر .

الواقع - ودون أى رفض مطلق لهذه الطريقة فى الرؤية - ألا يمكن أن نرى المشكلة عن قرب أكثر ، وأن نفحص المعانى الممكنة فى القرآن نفسه ،. وفى لغة العصر عامة لتلك الكلمة التى يستمر عدد من المعلقين فى ترجمتها بـ « يوم » (الجمع أيام) .

إن الكلمة مفردة تنحو إلى الدلالة على النهار أكثر منها للدلالة على فترة زمنية بين غروب الشمس وغروبها فى اليوم التالى، أما إذا جمعت فلا تعنى فقط أيام- أى وحدات تتكون منها من أربع وعشرين ساعة ، بل تعنى أيضًا دهرًا طويلاً أو فترة من الزمن غير محدودة وإن طالت . ومن ناحية أخرى فمعنى « فترة زمنية » التى يمكن للكلمة أن تدل عليها موجودة أيضًا فى القرآن . ففى سورة السجدة ٣٢ الآية ٥ نقرأ ما يلى :

﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ .

ومما هو جدير بالملاحظة أن الآية السابقة على الآية ٥ تذكر بالتحديد الخلق فى ستة « أيام » .

﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ (المعارج - الآية ٤) .

وكون أن كلمة يوم كان يمكن أن تدل على فترة زمنية تختلف تمامًا عن تلك التى نعطيها لمعنى « اليوم » قد بهر كثيرًا من المفسرين القدامى الذين كانوا لا يملكون بالطبع أى معارف من تلك التى نملكها اليوم عن مدة مراحل تكون الكون . فهذا الشكل فى القرن السادس عشر الميلادى ، ظن أبو السعود ، الذى لم يكن يملك معرفة عن اليوم كما يحدده علم الفلك بالاستناد إلى دورة الأرض ، أن من الواجب تصور تقسيم «مراحل» ليس إلى أيام بالمعنى الذى نفهم عادة بل إلى « نوبات » .

وهناك مفسرون محدثون قد أخذوا بهذا التفسير . فيوسف على (١٩٣٤) فى تفسيره لكل آية تعالج مراحل الخلق يصر على ضرورة اعتبار أن الكلمات التى تفسر فى سياق آخر بمعنى أيام تفسر هنا فى الواقع بمعنى « فترات طويلة » أو « عصور » .

فمن حقنا إذن أن نقبل - فيما يتعلق بخلق العالم - بقول القرآن ضمنًا بفترات زمنية طويلة رقمها بالعدد ٦ . ولا شك أن العلم الحديث لم يسمح للناس بتقرير أن عدد المراحل المختلفة للعمليات المعقدة التى أدت إلى تشكل العالم هو ستة مراحل ، ولكنه قد أثبت بشكل قاطع أنها فترات زمنية طويلة جدًا ، تتضاءل إلى جانبها الأيام كما نفهمها وتصبح شيئًا تافهًا .

إن واحدة من أطول فقرات القرآن التى تتناول الخلق تذكر ذلك ، واضعة جنبًا إلى جنب رواية خاصة بأحداث دنيوية وأخرى سماوية . إنها الآيات من ٩ إلى ١٢ فى سورة فصّلت ٤١ :

(يقول الله للنبى ﷺ) :

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۞ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ۞ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۞ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ .

هذه الآيات الأربعة من سورة فصلت تقدم جوانب متعددة سنعود إليها : تعنى الحالة الغازية الأوّلية للمادة السماوية ، والتعريف الرمزى للسماوات بالعدد ٧ ، وسنرى معنى الرقم . ورمزى أيضًا الحوار بين الله من جانب السماء والأرض البدائيين من ناحية أخرى ، المقصود هنا هو التعبير عن خضوع السماوات والأرض للأوامر الإلهية بعد تشكلها .

لقد رأى بعض النقاد فى هذه الفقرة تناقضًا مع التصريح القائل بفترات الخلق الستة . ذلك أنه إذا جمعت فترتا تشكيل الأرض ، والفترات الأربع الخاصة بتوزيع أسباب الرزق لسكانها ، وفترتا تشكيل السماوات ننتهى إلى ثمانى فترات وهذا يناقض الفترات الست المعروفة أعلاه .

الواقع أن هذا النص الذى يدعو الإنسان لتأمل القدرة الإلهية ، ابتداء من الأرض ، وحتى يكمل تأمله الخاص بالسماوات ، يقدم جزأين معطوفين بكلمة « ثم » التى تعنى « زيادة على ذلك » وإن عنت أيضًا « من بعد » أو « ما يلى » كما قد تعنى « فضلاً عن ذلك » . الكلمة قد تتضمن إذن معنى ترتيب ينطبق على سلسلة متوالية من الأحداث ، أو على ترتيب فى تأمل الإنسان فى الأحداث المشار إليها هنا . وقد يكون المقصود أيضًا مجرد الإشارة إلى أحداث مرتبة جنبًا إلى جنب دون نية إدخال معنى التوالى على هذه الأحداث . وأيًا كان الأمر فتستطيع فترات خلق السماء أن تكون مصاحبة تمامًا لفترتى خلق الأرض . وسندرس فيما بعد كيف يذكر القرآن العملية البدائية لتشكيل الكون ، وسنرى كيف أن هذه العملية تنطبق معًا على السماوات والأرض بالاتفاق مع المفاهيم الحديثة . عندئذ يمكن إدراك الشرعية الكاملة لهذه الطريقة فى تصور معيّة الأحداث المذكورة هنا .

ولا يبدو أن هناك تعارضًا بين الفقرة المذكورة هنا والمفهوم النابع من نصوص أخرى للقرآن تخص تشكل الكون فى ست مراحل أو فترات .

القرآن لا يحدد ترتيبًا فى خلق السموات والأرض

فى الفقرتين المذكورتين فى القرآن تشير آية فى إحداهما إلى خلق السماوات والأرض (سورة الأعراف (٧) - الآية ٥٤) والأخرى إلى خلق السماوات (سورة فصلت ١ الآيات من ٩ إلى ١٢) . لا يبدو إذن أن القرآن يحدد ترتيبًا فى خلق السماوات والأرض .

هناك عدد صغير من الآيات تشير إلى الأرض أولاً ، كما هو الحال فى سورة البقرة ، الآية ٢٩ ، وسورة طه (٢٠) الآية ٤ التى تشير إلى « مِمَّن خَلَقَ الأرضَ والسموات » وعلى العكس من ذلك يوجد عدد أكبر من الآيات يشار فيها إلى السماوات قبل الأرض (سورة الأعراف ٧ - الآية ٥٤ ، وسورة يونس ١٠ الآية ٣ ، وسورة هود ١١ الآية ٧ ، وسورة الفرقان ٢٥ الآية ٥٩ ، وسورة السجدة ٣٢ الآية ٤٤ ، وسورة ق ٥٠ الآية

٣٨ ، وسورة الحديد ٥٧ الآية ٤ ، وسورة النازعات ٧٩ الآيات من ٢٧ إلى ٣٣ ، وسورة الشمس ٩١ الآيات من ٥ إلى ١٠) .

الحقيقة باستثناء سورة النازعات ٧٩ ، ليس فى القرآن أى فقرة تحدد بشكل قاطع أى ترتيب : فحرف العطف «و» هو الذى يربط طرفى الجملة ، أو كلمة « ثم » التى رأيناها فى الفقرة المذكورة أعلاه ، والتى قد تشير إلى التوالى أو إلى مجرد وضع عنصر بجانب آخر .

وقد بدا لى أن هناك فقرة واحدة فى القرآن تقرر بشكل واضح وجود ترتيب فى أحداث الخلق ، ونعنى بذلك الآيات من ٢٧ إلى ٣٣ من سورة النازعات ٧٩ :

﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ۞ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ۞ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ۞ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ۞ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ۞ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ۞ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ .

إن وصف نعم الله الدنيوية على الناس . ذلك الذى يعبر عنه القرآن ، فى لغة تناسب مزارعًا أو بدويًا من شبه الجزيرة العربية ، مسبوق بدعوة للتأمل فى خلق السماء . ولكن المرحلة التى مد فيها الله الأرض وأخصبها تأتى بالتحديد زمنيًا بعد إنجاز عملية توالى الليل والنهار . المذكور هنا إذن هو مجموعتان من الظاهرات جزء منهما أرضى والآخر سماوى ، وقد حدث كلاهما فى اتصال مع الآخر . وبالتالى فذكر هاتين المجموعتين من الظاهرات يعنى أن الأرض كانت بالضرورة موجودة قبل أن تمدّ ، وعليه فقد كانت موجودة حين بنى الله السماوات . وينتج من هذا فكرة المصاحبة الزمنية لنمو كل من السماوات والأرض بشكل تتداخل فيهما الظاهرتان . وبناء عليه فلا يجب أن نرى أى دلالة خاصة فى إشارة النص القرآنى إلى خلق الأرض قبل السماوات أو خلق السماوات قبل الأرض : فمواضع الكلمات لا تبين وجود ترتيب تحقق الخلق فى إطاره ، إلا أن تكون تفصيلات أخرى معطاة .

عملية تشكل الكون الأساسية وانتهاؤها إلى تكوين العالم

يقدم القرآن فى آيتين خلاصة مركبة ومختصرة للظاهرات التى كونت العملية الأساسية لتشكل الكون .

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنبياء - الآية ٣٠) .

سورة فُصِّلت ٤١ الآية ١١ ، وفيها يدعو الله إلى التأمل فى خلق الأرض ثم يأمر النبى بأن يقول :

﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ﴾ .

ويتبع ذلك الوصايا بالطاعة التى أشير إليها أعلاه .

وسنعود فيما بعد إلى الأصل المائى للحياة ، وسندرس ذلك مع مشاكل بيولوچية أخرى مذكورة فى القرآن . أما الآن فيجب الالتفات إلى ما يلى :

(أ) الدعوى بوجود كتلة غازية ذات جزيئات. فكذلك يجب تفسير كلمة « دخان ». إذ يتكون الدخان عمومًا من قوام غازى . حيث تعلق به بشكل أكثر أو أقل ثبوتًا جزيئات دقيقة قد تنتمى إلى حالات المواد الصلبة أو حتى السائلة مع درجة فى الحرارة قد تقل أو تكثر .

(ب) الإشارة إلى عملية الفتق للكتلة الفريدة الأولى التى كانت عناصرها فى البداية ملتحمة (يقول القرآن الرتق) . ولنحدد جيدًا أن « فتق » هو فعل القطع أو فك اللحام أو الفصل ، وأن « رتق » فعل اللحام ووصل العناصر بهدف تكوين كل .

هذا المفهوم فى تفصيل الكل إلى أجزاء يتحدد بشكل دقيق فى فقرات أخرى من القرآن ، وذلك بذكر عوالم متعددة . إن الآية الأولى من أول سورة فى القرآن وهى سورة فاتحة بعد بسم الله الرحمن الرحيم هى ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

ويتكرر تعبير « العالمين » عشرات من المرات فى القرآن . وكذلك السماوات فهى تذكر باعتبارها متعددة ، وليس ذلك فقط فى صيغة الجمع . بل تذكر أيضًا مع ترقيم رمزى ، وذلك بالاستعانة بالعدد «٧» .

الرقم ٧ مستخدم ٢٤ مرة فى كل القرآن لتعدادات مختلفة ، وكثيرًا ما يعنى التعدد دون أن نعرف بشكل محدد سبب هذا الاستخدام بذلك المعنى . إن الرقم ٧ يبدو عند اليونان والرومان وكان له نفس معنى التعدد غير المحدود . وفى القرآن يعود الرقم ٧ على السماوات بمعناها الصرف سبع مرات . كما يشير الرقم مرة واحدة بشكل ضمنى إلى السماوات . كما يشير مرة واحدة إلى طرق السماء السبعة .

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة - الآية ٢٩) .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴾ (المؤمنون - الآية ١٧) .

﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ﴾ (الملك - الآية ٣) .

﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ۞ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾[1] (نوح - الآيتان ١٥، ١٦) .

﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۞ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾ (النبأ - الآيتان ١٢، ١٣) .

السراج الوهاج هنا هو الشمس .

بالنسبة لكل هذه الآيات يجمع مفسرو القرآن على أن الرقم «٧» يشير إلى تعدد دون تحديد آخر[2] .

---

(١) يلاحظ أن القمر والشمس مذكورات دائمًا فى التوراة على أنهما منيران . أما القرآن فيشير إليهما دائمًا بشكل مختلف . إذ يصف الأول « بالنور» على حين يقارن الثانية فى الآية بالسراج الذى ينتج الضوء ، وسنرى فيما بعد تطبيقًا لصفات أخرى على الشمس .

(٢) إلى جانب القرآن ، وفى عصر عصر محمد ﷺ أو فى نصوص القرون الأولى التالية التى أوردت أحاديث محمد ﷺ نجد أن الرقم «٧» كثيرًا ما يستخدم لمجرد الدلالة على التعدد .

السماوات إذن متعددة، وكذلك الكواكب المشابهة للأرض. وليس أقل ما يثير دهشة قارئ القرآن فى العصر الحديث أن يجد فى نص من هذا العصر تصريحًا بإمكان وجود كواكب أخرى تشبه الأرض فى الكون ، وهذا ما لم يتحقق منه الناس بعد فى عصرنا .

تقول الآية ١٢ من سورة الطلاق ٦٥ :

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ .

وبما أن الرقم «٧» يشير إلى تعدد غير محدود ، فيمكن استنتاج أن النص القرآنى يشير بوضوح إلى أنه لا يوجد إلا الأرض فقط ، أرض البشر ، بل هناك فى الكون كواكب أخرى تشبه الأرض .

سبب آخر لإثارة دهشة قارئ القرآن فى القرن العشرين : تلك التى تشير إلى ثلاث مجموعات من المخلوقات وهى :

- تلك التى توجد فى السماء .
- تلك التى توجد على الأرض .
- تلك التى توجد بين السماوات والأرض .

وإليكم بعض هذه الآيات :

﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴾ (طه - الآية ٧) .

﴿ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ (الفرقان - الآية ٥٩) .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾(١) (ق - الآية ٣٨) .

---

(١) تبدو هذه المقولة التى تصرح بأن الخلق لم يتعب الله مطلقًا ، تبدو كأنها رد واضح على فقرة رواية التوراة التى ذكرناها فى بداية هذا الكتاب ، والتى تقول بأن الله قد استراح فى اليوم السابع بعد العمل الذى أنجز فى الأيام التى سبقت .

إن الإشارة فى القرآن ألى « ما بين السموات والأرض » موجودة فى الآيات التالية: سورة الأنبياء ٢١ - الآية ١٦ ، سورة الدخان ٤٤ - الآيتان ٣٧، ٣٨ ، سورة النبأ ٧٨ - الآية ٣٧ ، سورة الحجر ١٥ - الآية ٨٥ ، سورة الأحقاف ٤٦ - الآية ٣ ، سورة الزخرف ٤٣ - الآية ٨٥ .

بديهى قد يبدو هذا الخلق خارج السماوات وخارج الأرض ، والذى أشير إليه مرات عدة ، قد يبدو قليل التصور . ولكن ، لكى تفهم معانى تلك الآيات يجب الاستعانة بأحدث الملاحظات البشرية حول وجود مادة كونية « خارج المجرات » (Extra- galac- tique) كما يجب ، لنفس هذا السبب ، أن نتناول من جديد المعارف التى أثبتها العلم المعاصر حول تشكل الكون - منتقلين فى ذلك من الأبسط إلى الأعقد - وسيكون هذا موضوع الفقرة التالية .

ولكن ، قبل أن ننتقل إلى هذه التأملات العلمية الصرف يحسن أن نلخص النقاط الأساسية التى يعلمنا بها القرآن فيما يتعلق بالخلق . بالاستناد إلى ما سبق فهذه النقاط هى :

١ - وجود ست مراحل للخلق عمومًا .

٢ - تداخل مراحل خلق السماوات مع مراحل خلق الأرض .

٣ - خلق الكون ابتداء من كومة أولية فريدة كانت تشكل كتلة متماسكة تفصلت بعد ذلك .

٤ - تعدد السماوات وتعدد الكواكب التى تشبه الأرض .

٥ - وجود خلق وسيط « بين السماوات والأرض » .

بعض معطيات العلم الحديث عن تكوين الكون

النظام الشمسى

تكوّن الأرض والكواكب التى تدور حول الشمس عالمًا منظمًا تبدو أبعاده متناهية فى الكبر بالنسبة لمقياسنا الإنسانى . إن الأرض على سبيل المثال ، تبعد عن الشمس بمقدار ١٥٠,٠٠٠,٠٠٠ كم تقريبًا . تلك مسافة شاسعة بالنسبة إلى الكائن الإنسانى ، ولكنها تصغر جدًا إذا قورنت بمتوسط المسافة التى تفصل عن الشمس أكثر الكواكب بعدًا عنها فى المجموعة الشمسية - أى كوكب « بلوتون ». وتقدر هذه المسافة بما يساوى المسافة بين الأرض والشمس أربعين مرة تقريبًا ، أى ما يساوى ٦ مليارات كم بالتقريب . إن ضعف هذه المسافة ، أى ما يقارب ١٢ مليار كم ، يمثل أكبر مسافة فى النظام الشمسى . ويلزم الضوء الشمس ست ساعات تقريبًا لكى يصل إلى كوكب بلوتون برغم أن الضوء يقطع هذه الرحلة بسرعة رهيبة قدرها ٣٠٠,٠٠٠ كم / ثانية . أما النجوم الكائنة على حدود العالم السماوى المعروف فتلزمها مليارات من السنوات ، حتى يصل ضوءها إلينا .

المجرات

إن الشمس - التى تعد الأرض أحد كواكبها التابعة مثلما تتبعها الكواكب الأخرى المحيطة بها - ليست هى نفسها إلا عنصرًا ضئيلاً من بين حوالى مائة مليار من النجوم تكون مجموعة تسمى بالمجرة . وفى أمسيات الصيف الجميلة نستطيع أن نرى الفضاء مرصعًا بهذه النجوم التى تكون ما يسمى بمجرة اللبن . هذه المجموعة من النجوم تمثل أبعادًا عظيمة . إن الضوء يقطع كل المجموعة الشمسية فى وحدات تقريبية من الساعات . فى حين يتطلب زمنًا قد يصل إلى ٩٠,٠٠٠ سنة حتى يصل بين أقصى طرفى مجموعة النجوم الأكثر تكاثفًا التى تكون مجرتنا .

والمجرة هذه - برغم اتساعها العجيب - ليست إلا عنصرًا صغيرًا من السماء . إذ توجد خارج مجرتنا تكتلات ضخمة من النجوم مماثلة لمجرة اللبن . ولقد اكتشفت

هذه التكتلات منذ أكثر من خمسين عامًا تقريبًا - أى عندما استطاع الاستكشاف الفلكى أن ينتفع بأجهزة بصرية تساوى فى كمالها تلك التى سمحت بإنجاز تلسكوب جبل ويلسون بالولايات المتحدة . وبهذه الطريقة أمكن تمييز تكتلات من المجرات كبيرة العدد بشكل عجيب ، كما أمكن تمييز مجرات منعزلة تقع على مسافات هى من البعد بحيث استلزم ذلك خلق وحدة خاصة تتكون من سنوات ضوئية ، وتسمى هذه الوحدة « فرسخ نجمى » Parsee وتتكون من المسافة التى يقطعها الضوء فى ٣٢٦ سنة بسرعة ٣٠٠,٠٠٠ كم / ثانية .

تكوين وتطور المجرات والنجوم والنظم الكوكبية :

ماذا كان يوجد فى هذا الفضاء شاسع الاتساع الذى تحتله المجرات الآن ... ؟ لا يستطيع العلم الحديث الإجابة عن هذا السؤال إلا ابتداء من فترة ما فى تطور الكون، ولا يستطيع حساب المدة التى تفصلنا عنها .

وبالنسبة للأزمنة السحيقة التى يستطيع العلم الحديث أن يقول رأيه فيها ، فإنه له كل الأسباب التى تدفعه لاعتبار أن الكون قد تشكل من كتلة غازية تتكون رئيسيًا من غاز الهيدروجين، وثانويًا من غاز الهليوم بطئ الدورة . وقد انقسم هذا السديم بعد ذلك إلى أجزاء متعددة ذات أبعاد وكتل هى من الضخامة ، بحيث يقدرها علماء الفلك بما يزيد على الكتلة الحالية للشمس بمقدار يتراوح من مليار إلى ١٠٠ مليار مرة تقريبًا . (تقدر الكتلة الحالية للشمس بما يزيد على كتلة الأرض بـ ٣٠٠,٠٠٠ مرة) . وتعطى هذه الأرقام صورة لضخامة جزيئات هذه الكتلة الغازية الأولية التى ستولد منها المجرات .

ويجئ بعد ذلك تفتت آخر يكون النجوم . وعندئذ تظهر عملية التكثيف التى يدخل فيها تأثير كل من قوى التجاذب (فهذه الأجرام تتحرك كلما تتزايد دورتها سرعة) والضغوط والحقول المغناطيسية والإشعاعات. وتصبح النجوم براقة بانكماشها، وبتحويل قوى التجاذب فيها إلى طاقة حرارية . وتدخل بعد ذلك ردود الأفعال الحرارية - النووية

Thermo- nucleaires ، وبالامتزاج تتكون ذرات ثقيلة من الذرات الخفيفة ، وبهذا الشكل يتحول الهيدروچين إلى هليوم ثم إلى أوكسچين ، ثم فى النهاية إلى الفلزات واللافلزات - هكذا حياة النجوم - ويصنف علم الفلك الحديث النجوم بحسب مرحلة التطور ، والنجوم تموت أيضًا : فقد لوحظ فى آخر مرحلة تطور بعض النجوم انفجار إلى الداخل Implosion تتحول النجوم بعده بالفعل إلى « جثث » .

إن الكواكب - والأرض على وجه خاص - قد أتت أيضًا من عملية انفصال بدأت من المركب الأصلى أى السديم الأولى ، لقد بطل الجدال منذ ربع قرن فى المعطية التى تقول بأن الشمس قد تكثفت فى قلب السديم الفريد ، وبأن الكواكب قد فعلت نفس الشىء داخل الأسطوانة السديمية التى كانت تحيط بها . وهناك ملاحظة ذات أهمية رئيسية بالنسبة لموضوع دراستنا هنا : نعنى أن تكون العناصر السماوية مثل الشمس ، وتكون العنصر الأرضى لم يترادفا . هناك إذن تواز فى التطور مع وحدانية فى الأصل .

هنا يعطينا العلم معلومات عن العصر الذى وقعت فيه الأحداث التى ذكرناها . فإذا كنا نقدر بحوالى ١٠ مليارات من السنوات قدم مجرتنا . فإن تكون النظام الشمسى ، بهذا الفرض ، قد وقع بعد ذلك بأكثر قليلاً من ٥ مليارات سنة . إن دراسة الإشعاع الذاتى الطبيعى تسمح بتاريخ عمر الأرض ولحظة تكون الشمس بـ ٤,٥ مليار سنة بتحديد تقريبى يقل عن ١٠٠ مليون عام - حسب تقدير بعض العلماء ، ويثير هذا التعيين الإعجاب ، فإذا كانت المائة مليون من الأعوام تمثل زمنًا طويلاً جدًا ، فنسبة الخطأ الأقصى إلى الزمن الكلى هى $\frac{٠,١}{٤,٥}$ أى ٢,٢٪ .

هكذا وصل إذن علماء الفلك إلى درجة عالية من المعرفة عن التطور العام لتكون النظام الشمسى ، ويمكن تلخيصه كما يلى : تكثف وانكماش مادة غازية فى حالة دوران، انفصال إلى أجزاء وضع الشمس والكواكب ، ومنها الأرض[١] ، فى أماكنها . إن معطيات

---

(١) فيما يتعلق بالقمر فيعترف بمعقولية انفصاله التدريجى عن الأرض إثر تباطؤ دورانه .

العلم عن السديم ، وطريقة انقسامه إلى كمية لا حصر لها من نجوم مجتمعة فى مجرات لا يسمح بأقل شك فى شرعية المفهوم القائل بتعدد العوالم . لكن هذه المعلومات لا تأتى بأى نوع من أنواع اليقين بأنه قد يوجد فى الكون ما قد يشبه الأرض من قريب أو بعيد .

مفهوم تعدد العوالم

ومع ذلك فيرى علماء الفلك أن وجود كواكب تشبه الأرض أمر شديد الاحتمال . ذلك بالرغم من أنه لم يعد أحد يفكر بشكل معقول فى إمكانية وجود ظروف عامة مشابهة لظروف الأرض على كوكب آخر داخل إطار المجموعة الشمسية . وإذا كان علينا أن نبحث عن تلك الظروف فيجب أن نبحث عنها خارج النظام الشمسى . فهناك من يعتبر أن وجود هذه الظروف خارج هذا النظام ممكن للأسباب التالية .

يرى البعض أن النصف مائة مليار نجم من مجرتنا لابد أن يكون لها ، مثل الشمس، نظامها الكوكبى ، والحقيقة أن لهذه الخمسين مليارًا من النجوم دورتها البطيئة ، مثل الشمس ، وتلك خاصية تدعو إلى الاعتقاد بوجود كواكب تابعة فى فلكها. إن البعد عن هذه النجوم هو من الكبر بحيث إنه لا يمكن ملاحظة هذه الكواكب التابعة التى يفترض وجودها ، وإن كان احتمال وجودها شديدًا بالنظر إلى بعض صفات مدار يتميز بها أى نجم : إذ يدل التموج الخفيف فى خط مدار النجم على وجود تابع كوكبى مرافق . ولهذا السبب يعتقد بأن لنجمة بارنار Barnard رفيق كوكبى واحد ، على الأقل تفوق كتلة المشترى ، بل ربما كان بها تابعان . يقول ب. جيران P. Guerin . « كما هو واضح فالنظم الكوكبية منتشرة فى الكون بكثرة شديدة . وليس النظام الشمسى والأرض فريدين ... » . ويستتبع ذلك « أن الحياة ، مثل الكواكب التى تأويها ، ومنتشرة فى كل الكون ، فى كل مكان وجدت فيه الظروف الفيزيقية - الكيمائية اللازمة لتفتحها وتطورها » .

المادة الكونية المنتشرة بين النجوم

إن عملية تشكل الكون الأساسية من تكاثف للسديم الأولى ثم من انفصاله إلى أجزاء كوّنت فى الأصل كتلاً مجريّة . بدورها تجزأت هذه الأخيرة إلى نجوم صنعت منتجات ثانوية هى الكواكب . وقد تركت هذه الانفصالات المتعاقبة بين مجموعات العناصر الرئيسية ما يمكن تسميته بالبواقى . وهذه البواقى تسمى علميًا بالمادة الكونية المنتشرة بين النجوم . وقد وصفت هذه المادة بأشكال مختلفة : فمرة توصف على أنها سُدُم براقة تنشر ضوءًا استقبلته من نجوم أخرى ، وقد تتكون من « غبار » أو « أدخنة » على حساب تعبير علماء الفلك ، ومرة أخرى توصف على أنها سُدُم مظلمة ذات كثافة شديدة الضعف ، أو على أنها مادة كونية منتشرة بين النجوم تتميز بأنها شديدة الخفاء، وبأنها تعوق المقاييس الفوتومترية فى علم الفلك . إن وجود جسور من تلك المادة بين المجرات لا يشوبه أي شك . وبرغم ندرة هذه الغازات ، وبسبب الفضاء الهائل الذى تحتله- إذ إن الفضاء الذى يفصل بين المجرات متناه فى البعد - فإنها تستطيع أن تعادل كتلة قد تفوق مجموع كتل المجرات ، حتى وإن كانت هذه الغازات قليلة الكثافة . ويعلق أ. بواشو A. Boichot على وجود هذه الكتل المنتشرة بين المجرات أهمية أولى . فقد يكون من شأنها أن « تعدل إلى حد بعيد الأفكار الخاصة بتطور الكون » .

مقابلة مع المعطيات القرآنية عن الخلق

ولنفحص الآن النقاط الجوهرية الخمس التى يعين القرآن عليها معلومات دقيقة خاصة بالخلق .

١ - لقد تخطى المراحل الست لخلق السماوات والأرض ، فى قول القرآن ، تكوين الأجرام السماوية ، وتكوين الأرض ، والتطور الذى لحق بهذه الأخيرة بما جعلها بأقواتها قابلة لسكنى الإنسان . لقد وقعت الأحداث الخاصة بالأرض ، فى رواية القرآن ، على أربع مراحل . ترى أيجب أن نرى فى هذه المراحل معادلاً للعصور الچيولوچية التى

يصفها العلم الحديث ، والتى ظهر الإنسان فى الرابع منها كما نعلم ... ؟ ليس هذا إلا مجرد فرض . والله أعلم .

ولكن ينبغى ملاحظة أن تكوين الأجرام السماوية والأرض قد تطلب مرحلتين كما تشرح ذلك الآيات من ٩ إلى ١٢ من سورة فصلت ٤١ . ويعرفنا العلم بأننا إذا أخذنا كمثال (وهو المثال الوحيد الممكن) اعتبار تكوين الشمس ونتاجها الثانوى - أى الأرض نجد أن العملية قد تمت من خلال تكاثف السديم الأولى وانفصالهما . وذلك بالتحديد ما يعبر عنه القرآن بشكل صريح عندما يشير إلى العملية التى أنتجت ابتداء من «الدخان» السماوى « رتقًا ثم فتقًا » . إننا نسجل هنا التطابق الكامل بين المعطية القرآنية والمعطية العلمية .

٢ - أوضح العلم تشابك حدثى تكوين نجم (مثل الشمس) وتابعه ، أو واحد من توابعه (مثل الأرض) . ألا يتضح هذا التشابك فى النص القرآنى مثلما رأينا ... ؟

٣ - إن المطابقة واضحة بين مفهوم السديم الأولى فى العلم الحديث ، والدخان على حسب القرآن للدلالة على الحالة الغازية الغالبة للمادة التى كونت الكون فى هذه المرحلة .

٤ - إن تعدد السماوات ، الذى عبر عنه القرآن بالرقم الرمزى «٧» والذى رأينا دلالته ، يتلقى من العلم الحديث تأكيدًا له ، وذلك بفضل ملاحظات علماء الفلك عن نظم المجرات وعددها العظيم . وعلى العكس فإن تعدد الكواكب التى تشبه أرضنا - على الأقل فى بعض الجوانب - هو مفهوم مستخلص من النص القرآنى ، ولكن لم يثبت العلم وجوده حتى الآن . ومع ذلك فيرى المتخصصون أن هذا مفهوم معقول تمامًا .

٥ - يمكن التقريب بين وجود الخلق الوسط بين « السماوات » و « الأرض » المعبر عنه فى القرآن ، وبين اكتشاف جسور المادة التى توجد خارج النظم الفلكية المنظمة .

بناء على ذلك : فإذا كانت المسائل التى تطرحها رواية القرآن لم تتلق تمامًا حتى يومنا توكيدًا من المعطيات العلمية فإنه لا يوجد على أى حال أقل تعارض بين المعطيات

القـرآنيـة الخـاصـة بالخلق وبين المعارف الحـديثة عن تكوين الكون . ذلك أمـر يسـتحق الالتفات إليه فيما يخص القرآن . على حين قد ظهر بجلاء أن نص العهد القديم الذى نملك اليوم قد أعطى عن هذه الأحداث معلومات غير مقبولة من وجهة النظر العلمية . وكيف لا ندهش لذلك . خاصة إذا علمنا أن النص الأكثر تفصيلية عن رواية الخلق فى التـوراة[1] قد كتب بأقلام كهنة عصر النفى إلى بابل ، وقد كان لهؤلاء الكهنة الأهداف التشـريعيـة Legalistes التى حـددناها أعـلاه . فـاصطنعوا لتلك الأهداف رواية تتـفق ونظراتهم اللاهوتيـة . إن وجود هذا الاخـتلاف بين رواية التوراة والمعطيات القرآنيـة عن الخلق جدير بالتنويه أمام الاتهامات - وكلها عفوية - التى لم توفر على محمد ﷺ منذ بدايات الإسـلام . والتى تقـول بأن مـحـمـدًا ﷺ قـد نقل روايات التـوراة . فـيـمـا تـعلق بموضوع الخلق . فإن الاتهام لا يتمتع بأى أسـاس . كيف كان يمكن لإنسان ، منذ أربعة عشـر قرنًا تقـريبًا ، أن يصـحح إلى هذا الحد الرواية الشائعة فى ذلك العصـر ، وذلك باستبعاد أخطاء علمية ، وبالتصريح بمبادرته وحده بمعطيات أثبت العلم أخيرًا صحتها فى عصرنا ؟! هذا فرض لا يمكن الدفاع عنه . إن القرآن يعطى عن الخلق رواية تختلف تمامًا عن رواية التوراة .

ردود على بعض الاعتراضات

لا جدال فى وجـود نقـاط تشـابه بين روايات التـوراة والإنجيل وبين روايات القـرآن فيما يتعلق بموضـوعـات أخرى ، وخاصـة تلك التى تخص التاريخ الدينى ، ومن غـريب الأمـر أن نـلاحظ من وجهـة النظر هذه - إذا لـم يكن أحد قـد اتهم المسـيح بترديد ذكـر نفس الأمور - بالإضافة إلى تعاليم التوراة ، فعلى العكس ليس هناك مطلقًا من يتضايق فى بلادنا الـغـربيـة من مـعـاتبـة مـحـمـد ﷺ ، لأنه ذكرهـا فى رسـالته ، وذلك يوحى بأن محمدًا ﷺ دجال بما أنه يقدم هذه الأمور ، وتلك التعاليم على أنها وحى منزَّل . أين الدليل بأن محمدًا ﷺ قد نقل فى القرآن ما علمه الربانية إياه أو أملوه عليه ... ؟ ليس

(١) يحـجب نص الكهنة هـذه السطور القليلة من الرواية الأخـرى المسماة باليهـودية فهى من الإيجاز والغموض بما لا يسمح لعقل علمى أن يأخذها فى اعتباره .

هناك دليل على ذلك . كما أنه ليس هناك أى سند للدعوى القائلة بأن راهبًا مسيحيًا قد علمه تعليمًا دينيًا متينًا . ولنقرأ ما يقول ر. بلاشير عن هذه الأكذوبة فى كتابه « مشكلة محمد »[1] .

وهناك أيضًا من يدفع بوجود ما يشبه التطابق بين بعض المقولات القرآنية وبين معتقدات يرجع عهدها إلى أزمنة سحيقة قد تسبق التوراة احتمالاً .

وبشكل أكثر عمومية : فقد أراد البعض أن يشتم فى الكتب المقدسة رائحة لبعض أساطير نشوء الكون ، ومن تلك على سبيل المثال : اعتقاد البولينزيين Polynesiens بوجود سوائل أولى غائصة فى الظلمات التى انفصلت عن ظهور النور ، وبالتالى تكونت الأرض والسماء . فإذا قارنا الأسطورة برواية الخلق فى التواراة لوجدنا بالتأكيد تشابهًا ما ، ولكن من الاستخفاف الذهاب إلى اتهام التوراة بأنها قد أخذت لعاتقها أسطورة نشوء الكون هذه .

وإنه من الاستخفاف القول بأن مفهوم القرآن عن انقسام المادة الأولى التى كونت الكون فى المرحلة الأولى - وهذا هو نفس مفهوم العلم الحديث - فهو مفهوم ينبع من أساطير نشوء الكون المختلفة التى تعبر عن شىء مشابه بشكل أو بآخر .

ومن الطريف أن نحلل عن قرب هذه المعتقدات والروايات الأسطورية . إذ كثيرًا ما تظهر بدايتها فكرة معقولة ، بل تطابقًا فى بعض الحالات واقع ما نعرف اليوم ، أو ما تفترض أننا نعرفه ، ولكن الأوصاف الخرافية تضيف إلى الفكرة فى الأسطورة . ذلك هو المفهوم الواسع الانتشار الذى يقول بأن السماء والأرض كانتا متحدتين فى البداية ثم انفصلتا بعد ذلك .

وفى اليابان على سبيل المثال ، فقد صورت الأساطير الكون الأول فى حالة اختلاط وفوضى ، ثم أضافت إلى هذه الصورة البيضة المحتوية على بذرة فى داخلها ، كما هو الحال فى أى بيضة ، وبهذا الشكل أفقدت الإضافة الحالية الأسطورة جدية المفهوم .

(١) R. Blachere. Le Probleme de Mohomet, Presses Universitaires de France, 1952.

وفى بلاد أخرى تضاف إليه فكرة النبت الذى ينمو فيرفع السماء ويفصلها عن الأرض ، هنا أيضًا نجد وهم التفاصيل المضافة التى تعطى سمتها الخاص . ومع ذلك فيظل قائمًا أن السمة المشتركة فى كل هذا هى مفهوم وجود كتلة واحدة فى بداية نشوء وتطور الكون أدت بانقسامها إلى « العوالم » المختلفة التى نعرفها اليوم .

وإذا كنا نذكر هنا أساطير نشوء الكون . فذلك لكى ننوه إلى الزخرف الذى يضيفه وهم التخيل عند الإنسان، ولكى نؤكد على الاختلاف العميق لتصريحات القرآن فى هذا الموضوع ، فهى خالية من التفاصيل الوهمية المصاحبة لهذه المعتقدات . إن تصريحات القرآن على العكس مطبوعة بالإيجاز فى القول ، وبالاتفاق مع المعطيات الحديثة للعلم.

فإذا كانت هذه هى صفات مقولات القرآن ، ولأنه قد صرح بها من أربعة عشر قرنًا . فلا يبدو أن بالإمكان إعطاء هذه المقولات تفسيرًا وضعيًا .

علم الفلك فى القرآن

يحتوى القرآن على كثير من التأملات فى السماوات . وقد رأينا ، فى الفصل السابق الخاص بالخلق ، الإشارة إلى تعدد السماوات والكواكب التى قد تشبه الأرض ، وكذلك وجود ما يعرفه القرآن بأنه خلق وسط « بين السماوات والأرض » ، وذلك ما دل العلم الحديث على وجوده . الآيات الخاصة بالخلق إذن قد أعطت بشكل ما فكرة عامة عن محتوى السماوات - أى كل ما هو خارج كوكبنا .

وبالإضافة إلى الآيات التى تصف الخلق بشكل خاص ، فهناك حوالى أربعين آية أخرى تأتى بإيضاحات تكميلية من هذه المعطيات عن علم الفلك . وليس بعض هذه الآيات إلا تأملات فى عظمة الخالق ، الذى رتب كل نظم النجوم والكواكب ، تلك التى نعرف أنها موضوعة فى مراكز توازن ، وقد شرح نيوتن الثبوت الدائم لهذا التوازن بقانونه عن جاذبية الأجرام .

والآيات الأولى المذكورة هنا لا تعطى مادة للتأمل العلمى ، فهى ببساطة ، تهدف إلى جذب الانتباه إلى قدرة الخالق . ومع ذلك فلابد من الإشارة إليها لإعطاء فكرة صحيحة عن الطريقة التى عرض بها نص القرآن ، منذ حوالى ما يقرب من أربعة عشر قرنًا ، لتنظيم الكون .

وتكون هذه الإشارات حدثًا جديدًا فى التنزيل الإلهى . فلا الإنجيل ولا العهد القديم يعالجان ترتيب الكون (باستثناء المفاهيم التى رأينا مجموع عدم صحتها فى رواية التوراة عن الخلق) . أما القرآن فهو ينظر طويلاً فى هذا الموضوع . فما يحتويه هام ، وما لا يحتويه هام أيضًا . فهو لا يحتوى فى الواقع على ذكر النظريات السائدة فى عصر تنزيله عن تنظيم العالم السماوى ، تلك النظريات التى أثبت العلم فيما بعد

عدم صحتها . وسنعطى على ذلك مثالاً فى الصفحات التالية . ولابد من التنويه بهذا الجانب ذى الطابع السلبى[1] .

(أ) تأملات عامة فى السماء

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ (ق٥٠ الآية ٦).

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ... ﴾ (لقمان ٣١ الآية ١٠) .

﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ... ﴾ (الرعد ١٣ الآية ٢) .

وتدحض الآيتان الأخيرتان الاعتقاد القائل بعدم إطباق السماء على الأرض لقيام الأولى على عمد .

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا ... ﴾ (الرحمن ٥٥ الآية ٧) .

﴿ ... وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ... ﴾ (الحج ٢٢ الآية ٦٥) .

ومعروف أن ابتعاد الأجرام السماوية على مسافات عظيمة ومتناسبة طرديًا مع الكتل نفسها يشكل أساس توازنها . فكلما تباعدت الأجرام وهنت قوة جذب كل منها للأخرى . وكلما تقاربت كان لكل منها تأثير على الأخرى ، تلك حالة القمر - فهو، لقربه من الأرض (ذلك بالطبع فى سياق علم الفلك) ، يؤثر بقانون الجاذبية على موقع الماء فى البحار ، ومن هنا تجىء ظاهرة المد والجزر . إن التقارب الشديد بين جرمين

(١) كثيرًا ما سمعت من هؤلاء الذين يحتالون فى البحث من تفسير وضعى - وتفسير وضعى فقط - لكل مشكلة يطرحها القرآن ، بأنه إذا كان يحتوى على إيضاحات مدهشة فى علم الفلك ، فذلك لأن العرب كانوا علماء فى هذا الميدان ، ذلك يعنى أنهم ينسون ببساطة أن تطور العلم عامة فى البلاد الإسلامية قد جاء بعد نزول القرآن ، وأن المعارف العلمية ، على أى حال لم تكن لتسمح فى ذلك العصر العظيم لكائن بشرى بأن يكتب بعض آيات فى علم الفلك التى نجدها فى الكتاب . وسنقدم الدليل على ذلك فى الفقرات التالية .

سماويين يؤدى لا محالة إلى اصطدامهما . إن الخضوع للتوازن هو الاشرط الأساسى لعدم وجود اضطرابات .

ومن ثم فالقرآن كثيرًا ما يذكر خضوع السماوات لأمر الله :

سورة المؤمنون ٢٣ - الآية ٨٦ يقول الله للنبى ﷺ :

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ .

وقد رأينا كيف يجب أن نفهم أن السماوات السبع تعنى سماوات متعددة وليس سماوات محدودة بعدد .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الجاثية ٤٥ الآية ١٣) .

﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ (الرحمن ٥٥ الآية ٥) .

﴿ ... وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ... ﴾ (الأنعام ٦ الآية ٩٦) .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ (إبراهيم١٤ الآية ٣٣).

هنا تكمل الآية الأخرى : فنتيجة الحسابات المذكورة هى انتظام رحلة الأجرام السماوية ، والقرآن يعبر عن هذا الانتظام بكلمة « دأب » وهى فى النص على شكل اسم فاعل لفعل معناه الأول العمل بهمة وبلا انقطاع. وقد أعطى هنا المعنى التالى: «الاجتهاد فى عمل شىء ما بعناية ، وبشكل دائن لا يتغير ، وبحسب عادة ثابتة » . (انظر الزمخشرى - الجزء الثانى ، ص ٣٠٣ فى ترجمة حمزة أبى بكر للقرآن ١٩٧٢) .

﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ (يس ٣٦ الآية ٣٩) .

هذه إشارة إلى تقوس عرجون النخل الذى يتخذ شكل الهلال عندما يجف . وسنكمل التفسير فيما بعد .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (النحل ١٦ الآية ١٢) .

ويشير القرآن إلى النتيجة العلمية للبنية السماوية مع التأكيد على أهميتها فى تسهيل انتقالات الإنسان على الأرض وفى البحر وفى حساب الزمن . وتتضح هذه الملاحظة عندما نتذكر أن القرآن فى الأصل كان رسالة موجهة إلى أناس لم يكن فى مقدورهم أن يفهموا إلا اللغة السهلة ، لغتهم اليومية . وذلك هو سبب وجود تأملات كالتالية :

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (الأنعام ٦ الآية ٩٧) .

﴿ وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ (النحل ١٦ الآية ١٦) .

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (يونس ١٠ الآية ٥) .

وهنا تحق ملاحظة : على حين وصفت التوراة الشمس والقمر بمنيرين ، مضيفة صفة الكبر إلى الأولى والصغر إلى الثانى ، يخص القرآن كلاً منهما بفروق غير تلك التى تتعلق بالحجم . ولا شك أن الفرق فى القول فقط ، ولكن كيف كان يمكن مخاطبة الناس فى ذلك العصر دون بلبلتهم مع التعبير فى الوقت ذاته عن فكرة أن الشمس والقمر ليسا كوكبين منيرين من طبيعة واحدة ... ؟

(ب) طبيعة الأجرام السماوية

الشمس والقمر

تسمى الشمس فى القرآن بالضياء ، ويسمى القمر بالنور . وإذا شئنا الحقيقة ، ففرق المعنى بين الاثنين ضئيل حتى وإن كان أصل ضياء « ضوءًا » ويعنى برق ولمع (ويقال ذلك عن النار ... إلخ) .

ولكن القرآن يحدد الفرق بين الشمس والقمر عبر مقارنات أخرى .

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴾ (الفرقان ٢٥ الآية ٦١) .

﴿ ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا ۞ وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا ﴾ (نوح ٧١ الآيتان ١٥، ١٦) .

﴿ وبنينا فوقكم سبعا شدادا ۞ وجعلنا سراجا وهاجا ﴾ (النبأ ٧٨ الآيتان ١٢، ١٣) .

وأوضح تمامًا أن السراج الوهاج هو الشمس ، ويعرف القمر عنا باعتباره جرمًا منيرًا ، وأصل الكلمة « نور » (وهى صفة القمر) . أما الشمس فيقارنها القرآن (بالسراج) أو بسراج وهّاج .

وبالتأكيد فإن الإنسان فى عصر محمد ﷺ كان يستطيع التفريق بين الشمس الجرم السماوى الملهب الذى يعرفه جيدًا سكان الصحراء ، وبين القمر وهو جرم طراوة الليالى . إذن فالمقارنات الخاصة بهذا الموضوع ، والتى نجدها فى القرآن طبيعية تمامًا . وما تهم الإشارة إليه هنا هو ذلك الإيجاز فى المقارنات . بالإضافة إلى عدم احتواء نص القرآن على أى عنصر مقارن كان سائدًا فى ذلك العصر ، وأصبح اليوم وهمًا .

المعروف أن الشمس نجم ينتج باحتراقه الداخلى حرارة شديدة وضوءًا ، على حين أن ليس القمر مضيئًا بذاته . بل هو يعكس الضوء الذى يستقبله من الشمس . كما أنه كوكب خامل (ذلك على الأقل بالنسبة لقشرته الخارجية) . لا شىء إذن فى القرآن يناقض كل ما نعرف اليوم عن هذين الجرمين السماويين .

النجــوم

كما نعرف – فالنجوم أجرام سماوية مثل الشمس ، وهى محل ظاهرات فيزيقية مختلفة . وأسهل ما يمكن مشاهدته من هذه الأجرام هى ظاهرة إنتاج الضوء . فتلك أجرام لها بريقها الخاص بها .

وتظهر كلمة نجم (الجمع : نجوم) ثلاث عشرة مرة فى القرآن . ويعنى مصدر كلمة نجم : ظهر ، أمكن رؤيته . وهى تشير إلى جرم سماوى مرئى دون تحديد لطبيعته: أى ما إذا كان مصدرًا للضوء ، أو كان مجرد عاكس لضوء يستقبله ، وتضاف للكلمة صفة تحدد أن المعنى به هو ما نسميه اليوم بالنجم . نرى ذلك فى :

(١) يستشهد هنا بالسماء وبنجم للتأكيد على أهمية ما يلى ذلك فى النص .

﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾[1] (الطارق ٨٦ الآيات من ١-٣) .

ويوصف نجم السماء فى القرآن بكلمة « ثاقب » أى ما يلتهب ويحترق وينفذ عبر شىء (المعنى هنا ظلمات الليل) . ونجد نفس الكلمة أيضًا للدلالة على النيازك Etoiles filantes فى سورة الصافات ٣٧ - الآية ١٠ : ﴿ ... فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ .

وهذه النيازك (أو النجوم الثاقبة) هى ناتج عملية احتراق .

الكواكب

يصعب القول بأن الكواكب مذكورة فى القرآن بالمعنى المحدد الذى نعطيه اليوم لهذه الأجرام السماوية .

فليست الكواكب منيرة بذاتها . إنها تدور حول الشمس ، وأرضنا جزء منها . وإذا فرضنا بإمكانية وجود مثل هذه الكواكب فى مكان آخر فإننا لا نعرف لهذه الكواكب وجودًا خارج النظام الشمسى .

وغير الأرض كان العصر القديم يعرف خمسة كواكب هى عطارد وفينوس والمريخ والمشترى وزحل. وهناك ثلاثة كواكب حديثة الاكتشاف وهى أورانوس ونبتون وبلوتون .

ويبدو أن القرآن يشير إليها باسم كواكب (الإفراد كوكب) دون أن يحدد عددها وتشير رؤيا يوسف إلى أحد عشر كوكبًا :

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا ... ﴾ (يوسف ١٢ الآية ٤) .

المقصود هنا منطقيًا هو الرواية الخيالية . ولكن يبدو أن هناك تعريفًا صحيحًا لدلالة الكلمة فى القرآن ، وهو تعريف تعطيه آية شهيرة ، وإن كان معناها العميق روحيًا. ومع ذلك فهذه الآية محل جدل كثير من المفسرين . غير أنها على قدر كبير من الأهمية ، وسبب ذلك ما جاء فيها من مقارنة خاصة بكلمة يبدو أنها تشير إلى كوكب . والآية التى نعنى هى الآية التالية :

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ... ﴾ (النور ٢٤ الآية ٣٥) .

المقصود هنا فعلاً سقوط ضوء على جسم يعكسه (الزجاج) ويعطيه بريق الدر ، مثل الكوكب الذى تضيئه الشمس . وذلك هو التفصيل التوضيحى الوحيد الخاص بالكلمة ، والذى يمكن أن نجده فى القرآن .

والكلمة مذكورة فى آيات أخرى . وفى بعضها لا يمكن تحديد أى الأجرام السماوية هو المقصود .

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا ... ﴾ (الأنعام ٦ الآية ٧٦) .

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ۞ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ﴾ (الانفطار ٨٢ الآيتان ١، ٢) .

ومع ذلك ففى إحدى الآيات وعلى ضوء المعارف الحديثة نجد مستحيلاً أن يكون المقصود به إلا الأجرام السماوية التى نعرف أنها كواكب . إذ تقول الآية ٦ من سورة الصافات ٣٧ :

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴾ .

ترى أيشير تعبير القرآن « السماء الدنيا » إلى النظام الشمسى ... ؟ المعروف أنه ليس هناك بين العناصر السماوية الأكثر قربًا منا عناصر أخرى دائمة سوى الكواكب . والشمس هى النجم الوحيد فى ذلك النظام الذى يحمل اسمها . إننا لا نرى أى أجرام سماوية أخرى يقصد بها هنا ، اللهم أن يكون المقصود الكواكب . وعلى ذلك فالتفسير المعطى يبدو صحيحًا ، كما يبدو أيضًا أن القرآن يذكر وجود الكواكب على حسب التعريف الحديث .

---

(١) معروف أن النيزك يستطيع أن يثير ظاهرة النجم الضوئية ، وذلك عند وصوله إلى طبقات الجو العليا .

السماء الدنيا

يشير القرآن فى مرات كثيرة إلى السماء الدنيا والأجرام السماوية التى كونها ، وفى أولها الكواكب ، فيما يبدو - وكما رأينا توًا . ولكن المعنى يصبح مبهمًا عندما يشرك القرآن اعتبارات ذات طابع روحى صرف بمفاهيم مادية يسيرة على فهمنا ، وقد استنرنا اليوم بالعلم الحديث .

وعلى ذلك فقد كان يمكن فهم الآية الأخيرة المذكورة أعلاه دون عناء ، ولكن عندما تقول الآية التى تعقبها (الآية ٧ من سورة الصافات ٣٧) « وحفظًا من كل شيطان مارد » فتلك مقولات ذات طابع آخر . « الحفظ » مذكور أيضًا فى سورة الأنبياء ٢١ - الآية ٣٢ :

﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ... ﴾ .

وفى سورة فصلت ٤١ - الآية ١٢ :

﴿ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ... ﴾ .

وبالمثل أى معنى يمكن إعطاؤه لتلك الأحجار .. « رجومًا للشياطين » التى تضعها الآية ٥ من سورة الملك ٦٧ فى السماء الدنيا ... ؟ ترى أترجع المصابيح المذكورة فى نفس هذه الآية على النيازك[1] التى رأينا ذكرها أعلاه ... ؟

كل هذه التأملات تبدو خارج موضوع هذه الدراسة . إنما أشير إليها هنا للإحاطة الكاملة ... ولا يبدو أن المعطيات العلمية تستطيع فى الحالة الراهنة أن تلقى أى ضوء على موضوع يفوق الإدراك الإنسانى .

(جـ) البنية السماوية

ما نجد عن هذه المسألة فى القرآن يخص النظام الشمسى بشكل رئيسى ، غير أن هناك أيضًا إشارات إلى ظاهرات تفوق النظام الشمسى نفسه ، ولقد اكتشفت هذه الظاهرات فى العصر الحديث .

وهناك آيتان ، غاية في الأهمية ، تخصان مدارى الشمس والقمر :

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (الأنبياء ٢١ الآية ٣٣) .

﴿ لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (يس ٣٦ الآية ٤٠) .

القرآن يذكر بوضوح أمرًا جوهريًا . ألا وهو وجود مدار لكل من الشمس والقمر ، كما يشير إلى تنقل هذين الجرمين فى الفضاء كل بحركة خاصة .

وبالإضافة إلى ذلك فقراءة هاتين الآيتين تظهر بالسلب أمرًا آخر ، وهو الإشارة إلى تنقل الشمس على مدار دون تفصيل عن هذا المدار بالنسبة إلى الأرض ، فهذا المدار ظاهرى فقط بالنسبة للملاحظ . وقد كان يعتقد فى عصر تنزيل القرآن أن الشمس تنتقل مع الأرض كنقطة ثابتة . كان ذلك هو نظام المركزية الأرضية السائد منذ بطليموس Ptolemee ، أى منذ القرن الثانى قبل الميلاد ، والذى ظل يحظى بالتأكيد حتى قوبرنيق Copernic فى القرن السادس عشر . هذا المفهوم ، برغم التشيع له فى عصر محمد ﷺ لا يظهر فى أى موضوع من القرآن - لا فى الآيات الكونية ولا فى مواضع أخرى .

وجود مدارين للقمر والشمس

ما يفسر هنا بمدار هو فلك فى نص القرآن ، وهى كلمة عربية قديمة . وكثير من المترجمين ومن المعلقين يعطون لكلمة «فلك» معنى كرة ويترجمها حميد الله بمدار .

ولقد حيرت الكلمة قدامى مفسرى القرآن ، إذ لم يكن بمقدورهم أن يتخيلوا الرحلة الدائرية للقمر والشمس فى الفضاء ، وعليه فقد تمثلوا عن مسيرتى هذين الجرمين صورًا مغلوطة تمامًا ، أو على درجات مختلفة من الصحة . ويذكر حمزة أبو بكر فى ترجمة القرآن بتنوع التفسيرات المعطاة لكلمة الفلك منها : « هو كهيئة

حديد الرحى ، كرة سماوية ، مدار ، بروج ، جرى ، سرعة ، موج مكفوف ... » ولكنه يضيف هذه الكلمة الحكيمة التى قالها الطبرى مفسر القرن العاشر الشهير : « ... ونسكت عما لا علم لنا فيه » . (تفسير الطبرى الجزء ١٧ صفحات ١٥، ١٦) ، وذلك يوضح لنا إلى أى حد كان الناس عاجزين عن تمثل فكرة المدار الشمسى والمدار القمرى . ويتضح من هذا أنه إذا كانت كلمة فلك تعنى مفهومًا سائدًا فى عصر محمد ﷺ ، لما لقى تفسير هذه الآيات مثل هذه المصاعب . وعليه فقد قدم القرآن فى ذلك العصر مفهومًا جديدًا لم يتضح إلا بعد قرون عدة .

فيما يختص بالقمر :

ينتشر فى عصرنا مفهوم أن القمر يدور حول الأرض باعتباره تابعًا لها ، وأن مقدار دورته الزمنية تسعة وعشرون يومًا . ومع ذلك فيجب تصحيح فكرة الاستدارة المطلقة لمدار القمر : فعلم الفلك الحديث قد أثبت أن المدار ليس دائريًا بالدقة ، بحيث إن المسافة بين الأرض والقمر تقدر تقديرًا متوسطًا يبلغ ٣٨٤,٠٠٠ كم .

وقد رأينا أعلاه أن القرآن قد أبرز فائدة ملاحظة حركات القمر فى قياس الزمن (سورة يونس ١٠ - الآية ٥ - انظر بداية هذا الفصل) .

لقد انتقد كثيرًا ما منهج حساب الزمن هذا . فهو قديم بالغ القدم ، غير عملى ولا علمى بالمقارنة مع منهجنا الذى يعتمد على دوران الأرض حول الشمس ، والذى يعرف اليوم فى تقويم جوليان السنوى .

ويتطلب هذا النقد ملاحظتين :

(أ) توجه القرآن منذ أربعة عشر قرنا تقريبًا ، إلى سكان شبه الجزيرة العربية الذين كانوا يستخدمون الحساب القمرى للزمن . إذن فقد كان من المناسب مخاطبتهم بالخطاب الوحيد الذى كانوا يستطيعون فهمه ، وألا تبلبل عادتهم فى اتخاذ الإرشادات المكانية والزمانية ، فقد كانت عادة فعالة تمامًا . فمعروف أن سكان الصحراء خبيرون

بتفرس السماء ، وفى الاستدلال بالنجوم ، وتحديد الزمن على حسب مراحل القمر ، وقد كانت كل هذه أبسط الوسائل وأكثرها فعالية بالنسبة لهم .

(ب) إذا وضعنا جانبًا المتخصصين فى هذه المسائل ، فإننا ، عامة نجهل الصلة الكاملة بين التقويم القمرى وبين تقويم جوليان الذى تتكون فيه السنة من ٣٦٥ يومًا وربع يوم ، إن طول السنة التى تتكون من ٣٦٥ يومًا فقط ليس كاملاً ، فهى تحتاج إلى تصحيح كل أربع سنوات (وهو ما يعرف بالسنوات الكبيسة) . أما فى التقويم القمرى فإن نفس الظاهرات تتكرر كل ١٩ سنة من تقويم جوليان . وذلك ما يسمى بدورة ميتون - عالم الفلم اليونانى - الذى قام فى القرن الخامس قبل الميلاد باكتشاف التطابق الدقيق بين الزمنين الشمسى والقمرى[١] .

فيما يختص بالشمس :

إن تصور وجود مدار للشمس أمر أكثر عسرًا ، فنحن معتادون على اعتبار أن نظامنا الشمسى مرتب حولها . ولكى نفهم الآية القرآنية فيجب علينا النظر فى موقع الشمس داخل مجرتنا ، وأن نستعين - بالتالى - بمعارف من العلم الحديث .

تتكون مجرتنا من عدد هائل من النجوم موزعة على أسطوانة أكثر سمكًا فى المركز منها على المحيط . وتحتل موقعًا يبعد عن مركز الأسطوانة . وبما أن المجرة تدور حول نفسها ، وكان محورها مركزها ، فإن ناتج ذلك هو أن الشمس تدور حول نفس هذا المركز على حسب مدار دائرى . وقد حسب علم الفلك الحديث عناصر هذا المدار ، وقد قدر شابلى Shapley فى عام ١٩١٧ بعد الشمس عن مركز المجرة بـ ١٠ كيلو فرسخ Parsec أى بالكيلومترات ما يعادل تقريبًا الرقم ٣ وعلى يمينه سبعة عشر صفرًا . ولكى تدور المجرة حول نفسها دورة كاملة والشمس معها فيلزمها ما يقرب من ٢٥٠ مليون سنة ، وتسير الشمس فى هذه الحركة بسرعة تقريبية قدرها ٢٥٠ كم فى الثانية .

تلك هى الحركة المدارية للشمس التى صرح بها القرآن منذ أربعة عشر قرنًا تقريبًا ، إن وجود هذه الحركة وعلامتها هى الآن من مكتشفات علم الفلك الحديث .

---

(١) ٢٣٥ شهر قمرى لـ ١٩ سنة من تقويم جوليان .

الإشارة إلى تنقل القمر
والشمس فى الفضاء بحركة خاصة

لا وجود لهذا المفهوم فى ترجمات وتفسيرات القرآن التى قام بها أدباء ، ولجهلهم بعلم الفلك فإنهم قد فسروا من الكلمة العربية التى تعبر عن هذه الحركة معنى واحدًا من معانيها وهو « عام - يعوم » : نجد ذلك فى التفسيرات الفرنسية والتفسير الإنجليزى سواء ، وهذا الأخير الذى قام به يوسف على فى ترجمته الإنجليزية يستحق التقدير .

إن الكلمة العربية التى تشير إلى تنقل بحركة خاصة هى سبح (وفى الآيتين : «يسبحون») . إن كل معانى الكلمة تتضمن التنقل بحركة يتميز بها الجرم الذى يتنقل . ويكون المعنى سبح إذا كان هذا التنقل فى الماء ، ويكون كذلك أيضًا إذا كان التنقل على الأرض بالأقدام . وفيما يتعلق بالحركة فى الفضاء فمن العسير التعبير عن هذه الفكرة المتضمنة فى الكلمة إلا باستخدام معناها الأولى . بهذا الشكل لا يبدو أنه قد وقع خطأ باستخدام معنى أصلى ، وذلك للأسباب التالية :

- يؤدى القمر دورته حول نفسه فى نفس الوقت الذى يتم فيه دورته حول الأرض ، أى فيما يقارب ٢٩ يومًا ونصف يوم ، وبحيث إن وجهه هو دائمًا نفس الوجه أمام ناظرينا .

- تدور الشمس حول نفسها فى ٢٥ يومًا تقريبًا ، وهناك بعض صفات خاصة فى الدورة بالنسبة لخط الاستواء والقطبين ، ولن نصر على هذه الخواص ، ولكنها مدفوعة بحركة دورية فى المجمل العام .

ويظهر إذن أن هناك فرقًا كلاميًا دقيقًا يشير فيه القرآن إلى الحركات الخاصة لكل من الشمس والقمر . ولقد أكد العلم الحديث حركات هذين الجرمين السماويين ، ولا يمكن تصور أن رجلاً فى القرن السابع من عصرنا قد استطاع تخيل هذا مهما يكن عالمًا فى عصره ، وليس ذلك حال محمد ﷺ .

ويدفع أحيانًا ضد هذه الرؤية بحالات لمفكرين كبار من العصر القديم كانوا قد صرحوا دون أى جدال ببعض الأمور التى اعترف العلم الحديث بصحتها . ومع ذلك فلم يكن باستطاعة هؤلاء المفكرين الاعتماد على الاستنتاج العلمى ، بل كانوا يعتمدون أكثر ما يعتمدون على التعقل الفلسفى . يدفع كثيرًا على سبيل المثال بحالة الفيثاغورثيين الذين كانوا يدافعون فى القرن السادس قبل الميلاد عن نظرية دوران الأرض حول نفسها ، وجرى الكواكب حول الشمس ، وهى النظرية التى أكد صحتها العلم الحديث . فإذا قمنا بالتقريب بين حالة الفيثاغورثيين والحالة التى تعنينا ، يصبح من اليسير الدفع بالفرض القائل بأن محمدًا ﷺ كان مفكرًا عبقريًا ، وقد تخيل وحده ما اكتشفه العلم الحديث بعده بقرون . وببساطة فهؤلاء النقاد بتفكيرهم هذا ، ينسون ذكر الجوانب الأخرى للإنتاج العقلى عند عباقرة التفكير الفلسفى ، كما ينسون ذكر الأخطاء الجسيمة التى تشين مؤلفاتهم . على سبيل المثال يجب ألا ننسى أن الفيثاغورثيين كانوا يدافعون أيضًا عن نظريات ثبات الشمس فى الفضاء ، وأنهم جعلوها مركز العالم غير متصورين وجود بنية سماوية إلا حول الشمس . الواقع أن وجود خليط من الأفكار الصحيحة والخاطئة عن الكون أمر جار عند كبار الفلاسفة القدامى . ويجب ألا يبهرنا بريق المفاهيم المتقدمة فى هذه المؤلفات الإنسانية ، وينسينا المفاهيم المغلوطة التى خلقتها أيضًا . ذلك ما يفصلها ، من وجهة النظر العلمية - والعلمية فقط ، عن القرآن الذى نجد فيه ذكر عديد من الموضوعات المتعلقة بالمعارف الحديثة دون أن تكون به أى دعوى مناقضة لما أثبته العلم فى عصرنا .

تعاقب النهار والليل

من الإنسان من لم يكن ليتحدث عن حركة الشمس فيما يتعلق بتعاقب النهار والليل ، فى عصرو كانوا يعتبرون فيه الأرض مركز العالم ، وأن الشمس متحركة بالنسبة إلى الأرض ؟ وبرغم ذلك فهذا الأمر لا يظهر فى القرآن الذى يعالج الموضوع كما يلى :

﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ... ﴾ (الأعراف ٧ الآية ٥٤) .

﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُظْلِمُونَ ﴾ (يس ٣٦ الآية ٣٧) .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ (لقمان ٣١ الآية ٢٩) .

﴿ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ﴾ (الزمر ٣٩ الآية ٥) .

لا تحتاج الآية الأولى إلى تعليق . والآية الثانية تريد فقط أن تعطى صورة .

أما الآيتان الثالثة والرابعة فيمكن - بشكل رئيسى - أن يمثلا أهمية بالنسبة إلى عملية تداخل ، وبالذات تكور الليل على النهار والنهار على الليل (سورة الزمر ٣٩ - الآية ٥) .

كور يعنى لف ، كما يقول ر. بلاشير R. Blachere فى ترجمته القرآن . والمعنى الأولى لهذا الفعل هو كور على الرأس عمامة على هيئة حلزونية . وتحتفظ كل المعانى الأخرى للكلمة بمفوم التكور .

وعليه ، فماذا يحدث إذن فى الفضاء ... ؟ إن الشمس تضىء بشكل دائم (فيما عدا فترات الخسوف) نصف الكرة الأرضية التى تقع أمامها ، على حين يظل النصف الآخر مظلمًا . وقد رأى رواد الفضاء الأمريكيون هذا وصوروه من مركباهم الفضائية، وخاصة على بعد بعيد عن الأرض ... من على القمر مثلاً . وبدوران الأرض حول نفسها على حين تظل الإضاءة ثابتة ، فإن المنطقة المضاءة منها - وهى على شكل نصف كروى- تؤدى فى أربع وعشرين ساعة دورتها حول الأرض ، على حين يتم النصف الآخر المظلم فى نفس الوقت نفس الرحلة . والقرآن يصف بشكل كامل هذه الدورة التى لا تكف أبدًا للنهار والليل . وهى اليوم يسيرة على الإدراك الإنسانى . فنحن نملك اليوم خبرة فكرية عن ثبوت الشمس[١] وعن دورة الأرض . هذه العملية الدائمة فى التكور مع الولوج المستمر لقطاع فى آخر يعبر القرآن عنها ، وكأن اكتشاف استدارة الأرض كان قد تم فى عصر تنزيل القرآن ، وبالطبع لم يكن هذا قد حدث بعد .

---

(١) فهو ثبوت نسبى .

ويجب أن نربط بهذه الاعتبارات الخاصة بتعاقب انهار والليل إشارات بعض الآيات القرآنية عن تعدد المشارق والمغارب . وأهمية هذه الإشارات وصفية فقط ، وملاحظتها أمر شائع . ولا يشار إليها هنا إلا بهدف النقل الكامل ما أمكن من كمال لما يحتويه القرآن عن هذا الموضوع . وعلى سبيل المثال فمن هذه الآيات ما يلى :

﴿ ... بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ... ﴾ (المعارج ٧٠ الآية ٤٠) .

﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾ (الرحمن ٥٥ الآية ١٧) .

﴿ ... بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ ... ﴾ (الزخرف ٤٣ الآية ٤٣) . وهى صورة تعبر عن اتساع المسافة بين نقطتين .

إن الملاحظ لشروقات الشمس وغروباتها يعرف جيدًا أن الشمس تشرق من نقاط مختلفة من الشرق ، وتغرب على نقاط مختلفة فى الغرب ، وذلك حسب الفصول . إن العلامات التى تتخذ على كل من الأفقين تحدد نقاطًا قصوى تشير إلى مشرقين ومغربين ، توجد بينهما نقاط وسيطة على مدار السنة . ولا شىء غير عادى فى هذه الظاهرة . ولكن ما ينبغى للنظر أن يلتفت إليه هو ما يرجع على موضوعات أخرى محل للبحث فى هذا الفصل ، ونجد فيها وصف الظاهرات الفلكية المذكورة فى القرآن ، وهذا الوصف يبدو متاطابقًا مع المفاهيم الحديثة .

(د) تطور العالم السماوى

بتذكيرنا للأفكار الحديثة عن تشكل الكون عرضنا للتطور الذى حدث من السديم الأولى إلى تشكل المجرات والنجوم فيما يخص النظام الشمسى إلى ظهور الكواكب انطلاقًا من الشمس فى مرحلة ما من تطورها . وتسمح المعطيات الحديثة بالتفكير فى وجود تطور مستمر حتى الآن للنظام الشمسى ، وللكون بشكل عام .

كيف لا نقوم بالتقريب ، عندما نكون عارفين بهذه المفاهيم ، بين بعض المقولات التى نجدها فى القرآن عندما نذكر شواهد القدرة الإلهية ... ؟

القرآن يذكر على مرات متعددة أن الله ﴿ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ .

هذه الجملة نجدها في سورة الرعد ١٣ - الآية ٢ ، وسورة لقمان ٣١ - الآية ٢٩، وسورة فاطر ٣٥ - الآية ١٣ ، وسورة الزمر ٣٩ - الآية ٥ .

أكثر من ذلك ففكرة الأجل المسمى مشتركة بفكرة مكان للوصول إليه محدد ، نجد هذا في :

﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ (يس ٣٦ الآية ٣٨) .

والمكان المحدد هو تفسير الكلمة « مستقر » . وليس هناك أدنى شك في أن فكرة المكان المحدد مرتبطة بهذه الكلمة .

كيف تبدو المقابلة بين هذه الدعاوى والمعطيات التي أقرها العلم الحديث ... ؟ يعطي القرآن حدًا لتطور الشمس ومكانًا لوصولها ، وهو حدد أيضًا نهاية شوط القمر . ولكي نفهم المعنى الممكن لهذه المقولات ، يجب التذكير بالمعارف الحديثة عن تطور النجوم عامة والشمس خاصة ، وبالتالي عن المشكلات السماوية التي تتبع بالضرورة حركة الشمس في الفضاء التي يعد القمر جزءًا منها .

الشمس نجم يقدر علماء الفلك عمره بحوالي ٤,٥ مليار سنة . وكما هو الحال بالنسبة لكل النجوم فيمكن تحديد مرحلة تطوره . الشمس حاليًا في مرحلة أولى تتسم بتحول ذرات الهيدروچين إلى ذرات الهليوم : نظريًا يمكن أن تدوم هذه المرحلة ٥,٥ مليار سنة على حسب الحسابات التي أنجزت ، والتي تقدر لهذه المرحلة الأولى لنجم من نمط الشمس ديمومة زمنية قدرها ١٠ مليارات سنة . تلي هذه المرحلة - كما لوحظ ذلك بالنسبة إلى نجوم أخرى ، من نفس النمط - فترة ثانية تتميز بتمام تحول الهيدروچين إلى هليوم ، وتكون نتيجة هذا التحول تمدد الطبقات الخارجية وبرود الشمس النهائية تتناقص ضوئية الشمس بشدة وترتفع كثافتها بشدة أيضًا : ذلك ما يلاحظ في أنماط النجوم المسماة بالأقزام البيضاء .

مـا يجب الالتـفـات إليـه فـى كل هـذا ، ليس التواريخ فـهى لا تهم إلا من حيث إنهـا تعطى تقديرًا تقـريبيًا لعـامل الزمن ، فـمـا يتضح أسـاسًـا هو فكرة التطور . إن المعطيـات الحـديثـة تسـمح بالتنبـؤ بأنه بعـد عـدة مليـارات من السنوات لن تكون ظروف النظام الشـمسى على مـا هى عليه اليوم . وكمـا حدث بالنسبـة لنجوم أخرى سـجلت تحـولاتها حتى المرحلة الأخيرة فيمكن توقع نهاية للشمس .

تحدثت الآية الثانية المذكورة هنا (الآية ٣٨ من سورة يس ٣٦) عن الشـمس جارية نحو مكان خاص بها « لمستقرها » .

ويحـدد علم الفلك الحـديث بشكل كامل هذا المكان ، بل لقـد أعطاه اسم (مـسـتقـر الشـمس) Apex Solaire . الواقع أن النظام الشمسى يتحـرك فـى الفضاء نحو نقطة فى فـلـك Constellation هرقل مجـاورة لنجـمـة فـيـجـا Vega a Lyrae التى تحـددت تمـامًـا إحداثيتها ، ولقد أمكن تحديد سرعة هذه الحركة تقريبًا ١٩ كم ثانية .

لقد كان من الواجب ذكر مـعطيـات علم الفلك هذه بمناسـبـة تفـسيـر آيتى القـرآن اللتين نسـتطيع أن نقـول إنهـمـا تتطابقـان تمامًـا فـيـمـا يتـضح مع المـعـطيـات العلميـة الحديثة .

توسع الكون

توسع الكون هو أعظم ظاهرة اكتشفها العلم الحـديث . ذلك مفهوم قد ثبت تمامًا ، ولا تعالج المناقشات إلا النموذج الذى يتم به هذا التوسع .

وإذا كانت النسبيـة العامـة هى التى أوحت به ، فإن توسع الكون مفهوم يعتمد على معطيـات مادية ، وذلك من خـلال دراسـات طيف المجـرات ، فالانتقـال المنهجى نحو اللون الأحـمـر من الطيف يجـد تعليـلاً له فى تنحى المجـرات كل عن الأخـرى . وعلى ذلك فامتداد الكون لا يكف عن الكبر . وهـذا الاتسـاع على أهمية أكثر . خاصة وإن المجرات تبتـعـد عنا . إن السـرعـات التـى تنتقل بهـا الأجـرام السـمـاوية قد تـراوح من أجـزاء من سرعة الضوء إلى مقادير سرعته .

ترى أيمكن أن نقابل الآية التالية ، التى يتحدث فيها الله ، بهذه المفاهيم الحديثة ؟

﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ (الذاريات ٥١ الآية ٤٧) .

ألا تعنى السماء بالتحديد الكون خارج الأرض ؟ « وموسعون » اسم فاعل لفعل «أوسع» ويعنى عرض وجعل الشىء شاسعًا وأكثر رحابة .

وبعض المفسرين ممن لم يقدروا على إدراك معنى الكلمة الأخيرة أعطوها دلالات تبدو لى مغلوطة كقول ر. بلاشير « كنا رحابة » . وبعض كتاب آخرين يحدسون المعنى دون أن يجرؤوا على التصريح به : فحميد الله يتحدث فى ترجمته للقرآن عن اتساع السماء والفضاء ، ولكن مع علامة استفهام . من المفسرين ممن يحتاطون لتفسيراتهم برأى العلماء ، ويعطون التفسير الذى قدمنا . وذلك حال من وضعوا تفسير المنتخب الذى طبعه المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة . إنهم يتحدثون دون أدنى غموض عن توسع الكون .

غزو الفضاء

من وجهة النظر هذه فتوجد ثلاث آيات قرآنية تستحق كل الانتباه . تتحدث إحداها - وبشكل لا لبس فيه - عما على البشر أن ينجزوا فى هذا الميدان وما سينجزونه بالفعل . فى الآيتين الأخيرتين يستحضر الله مثالاً يتوجه به إلى كفار مكة ليقول لهم كم تكون دهشتهم لو استطاعوا أن يرتفعوا نحو السماء ، ويشير بذلك إلى فرض لن يتحقق .

أما الآية الأولى فهى الآية ٣٣ من سورة الرحمن ٥٥ :

١ - ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ ﴾ .

ويتطلب تفسير هذه الآية بعض تفصيلات :

(أ) إن اللغة العربية قادرة على تمييز الظرف بشكل أكثر صراحة ووضوحًا عما هو الحال فى لغات أخرى . فهناك حرف للتعبير عن الاحتمال وهو « إذا » وحرف آخر

للتعبير عن الفرض الجائز وهو « إن » وحرف آخر للتعبير عن الامتناع وهو « لو » . وتقول الآية المعنية بفرض جائز معبر عنه بحرف « إن » . القرآن إذن يتحدث عن إمكانية مادية لإنجاز ملموس . وهذا التمييز اللغوى ينحى بشكل حاسم التفسير الصوفى الذى أراد البعض خطأ إعطاءه لهذه الآية .

(ب) يخاطب الله الجن والإنس جوهريًا ، ليس فى هذا التعبير استعارة رمزية .

(جـ) « نفذ من » ، كما يقول قاموس كازميرسكى ، تعنى عبر من جهة إلى جهة وخرج من الناحية الأخرى لجسم ما (ويقال ذلك عن السهم الذى خرج من الجهة المعاكسة مثلاً) .

تشير الآية إذن إلى ولوج عميق وخروج من جهة معاكسة للمناطق المعنية .

(د) السلطان الذى سيكون للبشر فى تحقيق هذات المشروع يبدو سلطانًا نابعًا من الله القدير[1] .

وليس من شك فى أن هذه الآية تشير إلى إمكانية البشر ذات يوم بأن يحققوا ما نسميه فى عصرنا - ربما بشكل غير مخصص - بغزو الفضاء . ويجب ملاحظة أن النص القرآنى لا يتنبأ فقط بالنفاذ عبر مناطق السماوات ، وإنما يتحدث أيضًا عن النفاذ عبر مناطق الأرض ، أى استكشاف الأعماق .

٢ - أما الآيتان الأخيرتان فهما من سورة الحجر ١٥ والآيتان هما ١٤ و ١٥ : وفيهما يحدث الله كفار مكة كما يشير إلى ذلك سياق السورة ، يقول تعالى :

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ۞ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ .

ذلك تعبير الدهشة أمام مشهد غير منتظر يختلف عن ذلك الذى ما كان يمكن للإنسان أن يتخيله .

---

(١) تلى هذه الآية دعوة إلى الاعتراف بخيرات الله ، وذلك هو موضوع كل السورة .

ويعبر الامكتناع بحرف « لو » الذى يدخل على فرض لن يتبعه أى إنجاز بالنسبة إلى هؤلاء الذين تعنيهم هذه الآية .

وعليه . وفيما يخص غزو الفضاء ، فإننا نجد أنفسنا فى مواجهة فقرتين من القرآن تشير إحداهما إلى ما سيتحقق يومًا بفضل السلطات التى سيخولها الله للفطنة والعبقرية البشريتين . فى حين تشير الفقرة الثانية إلى حدث لن يشهده من كفر بمكة ، ومن هنا كانت سمة هذا الفرض الذى لن يتحقق . ولكن هناك آخرين سيعيشون هذا الحدث ، كما تترك الآية الأولى ذلك للفرض . إنها تصف رد الفعل الإنسانى أمام المشهد غير المنتظر الذى سيوهب لمسافرى الفضاء : نظرات مضطربة وشعور بالانسحار .

كذلك تمامًا عاش رواد الفضاء تلك المغامرة الخارقة منذ عام ١٩٦١ ، وهو تاريخ أول طيران للإنسان حول الأرض . ومعروف فى الواقع أننا عندما نكون خارج طبقة الجو المحيطة بالأرض لا تبدو السماء مطلقًا فى صورتها اللازوردية الموهوبة لسكان الأرض ، وذلك نتيجة لظاهرات امتصاص طبقات الجو للضوء الشمسى . إن الإنسان المشاهد الموجود فى الفضاء أبعد من الطبقة الجوية المحيطة بالأرض يرى السماء سوداء ، وتبدو له الأرض محاطة بهالة لونية زرقاوية ، وذلك لنفس سبب ظاهرات الامتصاص الضوئى لطبقة الجو الأرضية على حين القمر الذى لا يحيط به جو، فإنه يبدو فى ألوانه الخاصة به على خلفية سوداء من السماء . هو إذن مشهد جديد تمامًا - وذلك الذى يراه الإنسان فى الفضاء ، مشهد أصبح صورة كلاسيكية بالنسبة للناس فى عصرنا .

هنا أيضًا ، عندما نقابل نص القرآن بالمعطيات الحديثة ، كيف لا ننبهر بتلك التحديدات الدقيقة التى لا يمكن افتراض أنها صدرت عن فكر إنسان عاش منذ أربعة عشر قرنًا تقريبًا ... ؟

الأرض

تتوزع الآيات الواردة عن الأرض فى كل القرآن ، مثلما هو الحال بالنسبة للموضوعات التى عالجنا من قبل . ويصعب ترتيبها . فالتصنيف الذى نقدم هنا شخصى تمامًا .

وحتى يكون العرض واضحًا يمكن - بادئ ذى بدء - استخراج عدد من الآيات التى كثيرًا ما تعالج موضوعات كثيرة وترمى - فوق كل شىء - إلى مرمى عام ، وهى تدعو الإنسان لأن يتأمل فى إحسان الله ، وذلك من خلال الأمثلة المقدمة .

توجد أيضًا مجموعات أخرى من الآيات يمكن عزلها ، فهى تعود على موضوعات أكثر تخصصًا وهى :

- دورة الماء والبحر .
- تضاريبس الأرض .
- الطبقة الجوية المحيطة بالأرض .

(أ) آيات ذات مرمى عام

فى نفس الوقت الذى تهب فيه هذه الآيات حججًا من شأنها أن تقود الناس إلى التأمل فى خير الله على مخلوقاته فإنها تحتوى - هنا وهناك - على دعاوى من المهم مقابلتها بمعطيات العلم . ومن وجهة النظر هذه فربما كانت هذه الآيات أكثر أهمية . حيث إنها لا تعبر عن كل أنواع المعتقدات الخاصة ببعض الظاهرات الطبيعية ، والتى كانت تحظى بالتأييد بين الناس فى عصر تنزيل القرآن ، إنها معتقدات متنوعة أثبتت المعرفة العلمية فيما بعد خطأها .

وتعبر هذه الآيات من ناحية عن أفكار بسيطة يسهل إدراكها على فهم هؤلاء الذين كان القرآن موجهًا إليهم لأسباب جغرافية ، أى سكان مكة والمدينة وبدو شبه الجزيرة العربية ، ومن ناحية أخرى فهى تعبر عن تأملات عامة يستطيع الجمهور الأكثر ثقافة

فى كل مكان وزمان أن يستخرج منها تعاليم إذا ما كبد نفسه عناء التأمل ، تلك هى السمة الكونية الشاملة للقرآن .

وبما أنه ليس فى القرآن أى ترتيب ظاهر لهذه الآيات ، فإننا نقدمها هنا على حسب الترتيب العددى للسور .

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة ٢ الآية ٢٢) .

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة ٢ الآية ٢٦٤) .

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الرعد ١٣ الآية ٣) .

﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ * وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ * وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ (الحجر ١٥ الآيات من ١٩ إلى ٢١) .

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى * كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُولِي النُّهَى ﴾ (طه ٢٠ الآيتان ٥٣، ٥٤) .

﴿ أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (النمل ٢٧ الآية ٦١) .

المشار إليه هنا هو الاستقرار العام الذى تتسم به القشرة الأرضية . فمن المعروف أن القشرة السطحية للأرض لم تكن مستقرة فى عصورها الأولى قبل أن تبرد . ومع ذلك فليس استقرار القشرة الأرضية مطلقًا بالتدقيق ، إذ توجد مناطق تحدث بها زلازل بشكل متقطع . أما فيما يخص الحاجز بين البحرين فتلك صورة لتبيين عدم اختلاط مياه الأنهار بماء البحر فى بعض كبار مصاب الأنهار كما سنرى فيما بعد .

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ (الملك ٦٧ الآية ١٥) .

﴿ وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ۞ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ۞ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ۞ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾ (النازعات ٧٩ الآيات من ٣٠ إلى ٣٣) .

وفى كثير من هذه الآيات نرى تأكيدًا على أهمية الماء والنتيجة العلمية لوجوده على تربة الأرض - أى خصوبة التربة . ولا شك أن الماء فى البلاد الصحراوية يمثل العنصر الأول الذى عليه بقاء الإنسان . ولكن ذكر القرآن لهذا يتخطى تلك الخاصية الجغرافية . إن الآية تبرز ميزة ثراء الكوكب بالماء ، تلك الميزة الفريدة فى النظام الشمسى على حسب أحسن معطيات المعارف الحديثة ثبوتًا . فلولا الماء لكانت الأرض كوكبًا مثل القمر . إن القرآن يعطى الماء الأهمية الأولى فى ذكر الظاهرات الطبيعية للأرض . ودورة الماء موصوفة بدقة محكمة .

(ب) دورة الماء والبحار

فى عصرنا ، عندما نقرأ ، المرة بعد الأخرى ، الآيات القرآنية بدور المياه فى حياة الإنسان ، فإنها تبدو لنا معبرة عن أفكار واضحة تمامًا . والسبب فى ذلك بسيط : ففى عصرنا نعرف كلنا - بدقة تقل أو تكثر - كيف تتم دورة الماء فى الطبيعة .

أما إذا أخذنا فى اعتبارنا ما كان عليه مختلف المفاهيم القديمة فى هذا الموضوع ، فإننا ندرك أن المعطيات القرآنية لا تحتوى على عناصر نابعة من المفاهيم الأسطورية التى كانت سائدة فى ذلك العصر ، والتى كان للتفكير النظرى فيها دور أكبر من

معطيات الملاحظة ، وإذا كان الناس قد نجحوا بالتجربة فى اكتساب معارف علمية مفيدة على مستوى محدود لتحسين رى الأراضى ، فعلى العكس فإن مفاهيمهم عن دورة الماء عمومًا غير مقبولة فى عصرنا .

وقد كان يمكن تخيل أن المياه الجوفية تأتى من تسرب مياه الأمطار داخل الأرض . ولكن ذلك لم يحدث ، والمذكور كاستثناء فى تلك العصور القديمة هو مفهوم رجل يدعى فيتروف Vitruve أيد هذه الفكرة فى روما فى القرن الأول قبل الميلاد . وعلى هذا وطيلة قرون طويلة ، يقع بينها عصر تنزيل القرآن ، كان للناس مفاهيم مغلوطة تمامًا عن جريان المياه فى الطبيعة .

وفى مثال الهيدوچيولوچى Hydrogeologie بدائرة معارف أونيفرساليس Encyclo- pedia Universalis ، و ج. كاستانى Castany G. ، و ب. بلافو B. Blavoux وهما كاتبان متخصصان فى هذه المسائل ، يقدمان عن هذه المسألة اللمحة التاريخية المعبرة التالية :

عند تاليس دى ميلات Thales de Milet وكان ذلك فى القرن السابع قبل الميلاد ، كانت النظرية هى اندفاع مياه المحيطات بتأثير الرياح إلى داخل القارات ثم سقوطها على الأرض ثم ولوجها إلى التربة . وكان أفلاطون يقاسم هذه الأفكار ، ويعتقد أن عودة المياه إلى المحيط تتم بواسطة هوة سحيقة اسمها تاتار Tatare . وقد كان لهذه النظرية أتباع عديدون حتى القرن الثامن عشر ؛ ومنهم ديكارت Descartes أما أرسطو فقد افترض أن بخار ماء التربة يتكاثف فى التجاويف الباردة للجبال ويشكل بحيرات تحت الأرض تغذى الينابيع . وقد تبعه سنيكا Seneque (القرن الأول الميلادى) فى ذلك الرأى ، وكان له أتباع كثيرون حتى عام ١٨٧٧ ، ومنهم أ. فولجر O. Volger ويعود أول مفهوم صحيح عن دورة الماء إلى برنارد باليسى Barnard Palissy عام ١٥٨٠ ، الذى أكد أن المياه الجوفية تأتى من تشرب ماء المطر فى التربة . وقد صادق أ. ماريوت E. Mari- otte ، و ب. بيرو P. Perraut فى القرن السابع عشر هذا الرأى .

أما المفاهيم غير الصحيحة السائدة فى عصر محمد ﷺ فإننا لا نجد لها أى صدى فى عبارات القرآن التالية ، ولا فى أى موضع آخر .

﴿ ونَزَّلْنَا من السَّماء ماءً مُباركًا فأَنبَتْنا به جَنَّات وحَبَّ الْحَصيد ۞ والنَّخْلَ باسقات لَّها طَلْعٌ نَّضيدٌ ۞ رزْقًا لِّلْعباد وأَحْيَيْنا به بَلْدَةً مَّيْتًا كذَلك الْخُرُوجُ ﴾ (ق ٥٠ الآيات من ٩ إلى ١١) .

﴿ وأنزلْنا من السَّماء ماءً بقَدر فأَسْكَنَّاهُ في الأَرْض وإنَّا علَىٰ ذَهاب به لَقادرُون ۞ فأَنشَأْنَا لَكُم به جَنَّات مّن نَّخيل وأَعْناب لَّكُمْ فيها فواكهُ كَثيرَةٌ ومنْها تأْكُلُون ﴾ (المؤمنون ٢٣ الآيتان ١٨، ١٩) .

﴿ وأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لواقحَ فأَنزَلْنا من السَّماء ماءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وما أَنتُمْ لَهُ بخازنين ﴾ (الحجر ١٥ الآية ٢٢) .

بالنسبة لهذه الآية الأخيرة فهناك إمكانيتان للتفسير : يمكن اعتبار الرياح مخصبة للنباتات بواسطة نقل اللقاح ، ولكن قد يكون المقصود هو صورة تعبيرية تذكر قياسًا دور الريح الذى يجعل من سحابة لا تعطى مطرًا سحابة تفك المطرة الفجائية ، وكثيرًا ما يذكر هذا الدور مثلما نرى فى الآيات التالية :

﴿ واللَّهُ الَّذي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إلَىٰ بَلَد مَّيِّت فَأَحْيَيْنَا به الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾ (فاطر ٣٥ الآية ٩) .

ويلاحظ أن الأسلوب فى الجزء الأول من الآية هو أسلوب القصة ، ويليه دون تمهيد تصريح من الله . وهذه التعديلات الفجائية فى شكل الخطاب تتردد كثيرًا فى القرآن .

﴿ اللَّهُ الَّذي يُرْسلُ الرِّيَاحَ فَتُثيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ في السَّمَاء كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ منْ خلاله فإذَا أَصَابَ به من يَشَاءُ منْ عباده إذَا هُمْ يَسْتَبْشرُونَ ﴾ (الروم ٣٠ الآية ٤٨) .

﴿ وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ﴾ (الأعراف ٧ الآية ٥٧) .

﴿ وهو الذي جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا * وهو الذي أرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهورا * لنحيي به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسي كثيرا ﴾ (الفرقان ٢٥ الآيتان ٤٨، ٤٩) .

﴿ ... وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون ﴾ (الجاثية ٤٥ الآية ٥) .

والرزق المقصود فى الآية الأخيرة هو الماء الذى ينزل من السماء كما يشير السياق إلى ذلك . ثم إن نبرة الآية تؤكد على تغير الرياح. فهى التى تعدل نظام سقوط الأمطار.

﴿ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا ... ﴾ (الرعد ١٣ الآية ١٧) .

﴿ قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين ﴾ (الملك ٦٧ الآية ٣٠) .

﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه ﴾ (الزمر ٣٩ الآية ٢١) .

﴿ وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ﴾ (يس ٣٦ الآية ٣٤) .

تؤكد الآيات الثلاث الأخيرة على أهمية العيون المائية وتموينها بماء المطر الذى يتجه إليها . ويستحق الأمر وقفة لنذكر بتسلط بعض المفاهيم فى القرون الوسطى كمفهوم أرسطو الذى كان يرى أن الينابيع المائية تتمون بواسطة بحيرات جوفية . ويصف ر. آمينيراس الأستاذ بالمدرسة الوطنية للهندسة الزراعية والمياه والغابات فى مقاله « الهيدرولوچيا » بدائرة معارف أونيفرساليس ، يصف المراحل الرئيسية فى علم

المياه ، ويستشهد بأعمال الرى القديمة الرائعة ، وخاصة تلك التى أنجزت فى الشرق الأوسط ، وهو يلاحظ أن المعرفة العملية قد سادت كل هذه الإنجازات ، على حين كانت الأفكار صادرة عن مفاهيم مغلوطة . ويردف المؤلف قائلاً : « ويجب أن ننتظر حتى عصر النهضة (ما بين ١٤٠٠ و ١٦٠٠ تقريبًا) حتى تخلى المفاهيم الفلسفية الصرف المكان لأبحاث تعتمد على الملاحظة الموضوعية للظاهرات الهيدولوچية . فقد ثار ليوناردو دافنشى Leonard de Vinici (١٤٥٢ - ١٥١٩) على دعاوى أرسطو . ويعطى برنارد باليسى Bernard Palissy فى بحث له بعنوان « خطاب فى روعة طبيعة المياه والعيون الطبيعية منها والصناعية «Discours admirable de la nature des eaux fon-taines fant naturelles qu'artificielles» (باريس ١٥٧٠) . يعطى تفسيرًا صحيحًا عن دورة الماء ، وخاصة عن تموين الأمطار للينابيع » .

أليست هذه بالتحديد هى الإشارة التى نجدها فى الآية ٢١ من سورة الزمر التى تذكر اتجاه مياه الأمطار نحو الينابيع فى الأرض ...

إن المطر والبرد موضوعا الآية ٤٣ من سورة النور ٤٢ :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴾ .

وتستحق العبارة التالية تعليقًا (سورة الواقعة ٥٦ - الآيات من ٦٨ إلى ٧٠) :

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ .

الاستشهاد بأن الله كان يستطيع أن يجعل الماء الطيب بطبيعته مالحًا شديد الملوحة هو طريقة فى التعبير عن القدرة الإلهية . وطريقة أخرى فى التعبير عن هذه المقدرة نفسها : تحدى الإنسان أن ينزل الماء من السحاب . ولكن ، إذا كانت الطريقة

الأولى مجرد قول بديهى ، أفلا تكون الثانية كذلك فى العصر الحديث - حيث سمحت التكنولوچيا بإطلاق المطر صناعيًا ... ؟ أيمكن معارضة دعوى القرآن بطاقة البشر على إنتاج المطر ... ؟

ليس الأمر كذلك ، إذ يبدو أنه لابد من الأخذ فى الاعتبار بحدود إمكانيات الإنسان فى هذا الميدان . وقد كتب م. أ. فاسى M. A. facy مهندس عام الأرصاد الجوية الوطنية ، فى مقاله « الهواطل » بدائرة معارف أونيفرساليس ما يلى : لن يمكن أبدًا إسقاط المطر من سحابة لا تحتوى على سمات السحابة القابلة للهطول ، أو من سحابة لم تصل إلى درجة مناسبة من التطور (أو النضج) ، وبالتالى فإن الإنسان لا يستطيع إلا أن يعجل بعملية الهطول مستعينًا فى ذلك بالوسائل التقنية الملائمة ، على شرط أن تكون الظروف الطبيعية لذلك جاهزة سلفًا . ولو كان الأمر غير ذلك لما كان الجفاف عمليًا ، وهذا غير حادث . كما هو واضح التحكم فى المطر والطقس الجميل مازال حتى اليوم حلمًا .

لا يستطيع الإنسان أن يقطع كيفما يشاء الدورة الثابتة التى تضمن حركة المياه فى الطبيعة ، وعلى حسب تعليمات الهيدرولوچيا الحديثة فيمكن تلخيص هذه الدورة كما يلى :

يثير الإشعاع الحرارى للشمس تبخر الماء فى المحيطات وكل السطوح الأرضية المغطاة أو المشبعة بالماء . يتصاعد بخار الماء بهذا الشكل نحو الجو ، ويشكل سحبًا عن طريق تكاثفه . عندئذ تدخل الرياح لتؤدى دورها فى نقل السحب بعد تشكيلها إلى مسافات متنوعة . وقد تختفى السحب دون أن تعطى مطرًا . كما يمكن أن تلتقى كتل السحاب مع كتل أخرى لتعطى بذلك سحبًا ذات كثافة كبرى ، وقد تتجزء لتعطى مطرًا فى مرحلة من تطورها . وسرعان ما تتم الدورة بوصول المطر إلى البحار (التى تشكل ٧٠٪ من سطح الكرة الأرضية) . أما المطر الذى يصل إلى الأرض فقد يمتص جزئيًا بواسطة النباتات ، مساهمًا بذلك فى نموها ، وهذه بدورها تقوم من خلال ترشحها بإعطاء جزء من الماء إلى الجو . أما الجزء الآخر فإنه يتسلل بمقدار قد يقل أو يكثر إلى التربة ليتجه نحو المحيطات عبر مجارى الماء ، أو قد يتسرب فى التربة ليعود نحو

الشبكة السطحية عن طريق الينابيع أو الأماكن الأخرى التى يخرج منها الماء إلى السطح .

ولنقارن معطيات علم الهيدرولوجيا الحديث بتلك التى نجدها فى كثير من الآيات القرآنية المذكوراة فى هذه الفقرة ، سنلاحظ وجود توافق بين الاثنين .

البحـــار

إذا كانت الآيات القرآنية تعطى بهذا الشكل مادة للمقارنة مع المعارف الحديثة فيما يخص دورة الماء فى الطبيعة عامة ، فليس الأمر كذلك فيما يخص البحار . إذ ليس هناك جملة قرآنية واحدة عائدة على البحار تدعو إلى المقابلة مع المعطيات العلمية بحصر المعنى . ومع ذلك فلا يقلل هذا من ضرورة التأكيد على أنه ليس فى القرآن أية جملة عن البحار تحتوى على مرجع إلى معتقدات أو أساطير أو خرافات كانت سائدة فى عصره .

وهناك عدد من الآيات ، تتصل بالمحيطات وبالملاحة ، وتقدم للتأمل علامات للقدرة الإلهية ، تنبع من أمور الملاحظة العامة ، وهذه الآيات هى :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ﴾ (إبراهيم ١٤ الآية ٣٢) .

﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (النحل ١٦ الآية ١٤) .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ (لقمان ٣١ الآية ٣١) .

﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ ﴾ (الرحمن ٥٥ الآية ٢٤) .

﴿ وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ۞ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ۞ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنقَذُونَ ۞ إِلاَّ رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ﴾ (يس ٣٦ الآيات من ٤١ إلى ٤٤) .

وكما هو واضح فالمقصود هنا السفينة التى تحمل الناس على البحر كما حمل الفلك من قبل نوحا والركاب بما سمح لهم بالوصول إلى البر .

وهناك أمر آخر للملاحظة خاص بالبحر يمكن فصله عن كل آيات القرآن الخاصة بهذا الموضوع ، وذلك لأن له صفة خاصة . فهناك ثلاث آيات تشير إلى بعض صفات الأنهار الكبيرة عندما تصب فى المحيطات .

فمعروفة تمامًا تلك الظاهرة ، التى كثيرًا ما تشاهد عن عدم الاختلاط الفورى لمياه البحر المالحة بالمياه العذبة للأنهار الكبيرة . ويرى البعض أن القرآن يشير إليها لعلاقتها بمصب نهرى دجلة والفرات اللذين يشكلان بالتقائهما بحرًا ، إذا جاز القول ، طوله أكثر من ١٥٠ كم ، هو شط العرب . وفى الخليج ينتج تأثير المد ظاهرة طيبة هى انحسار الماء العذب إلى داخل الأراضى ، وذلك يضمن ريًا طيبًا . وحتى يفهم النص جيدًا لابد من معرفة أن كلمة بحر تعنى كمًا كبيرًا من الماء ، وتنطبق على المحيطات كما تنطبق على الأنهار الكبيرة مثل النيل ودجلة والفرات .

وهذه هى الآيات التى تتحدث عن تلك الظاهرة :

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴾ (الفرقان ٢٥ الآية ٥٣) .

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا . . . ﴾ (فاطر ٣٥ الآية ١٢) .

﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ ﴾ ... ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ (الرحمن - الآيات ١٩، ٢٠، ٢٢) .

وبالإضافة إلى ذكر الأمر الرئيسى تشير هذه الآيات إلى الثروات المستخرجة من المياه العذبة والمياه المالحة . أى الأسماك وحلى الملبس من مرجان ولآلئ . أما عن ظاهرة عدم اختلاط المياه النهرية بماء البحر عند المصب فيجب أن تعرف أن هذا لا يخص دجلة والفرات وحدهما اللذين لا يذكرهما النص، وإن كان من المعتقد أنه يشير

إليهما . إن بعض المجارى النهرية التى تتميز بمخزون مائى كبير مثل المسيسيبى ونهر يانج تسى تتميز أيضًا بهذه الخاصية ، فاختلاط المياه لا يتم أحيانًا إلا فى عرض البحر .

(جـ) تضاريس الأرض

تركيب الأرض معقد . وبشكل فج يمكن تخيلها متكونة من طبقة عميقة تسودها درجات حرارية مرتفعة جدًا مع جزء مركزى منها تتصهر فيه الصخور على وجه خاص وطبقة سطحية - أى القشرة الأرضية ، باردة وصلبة . وهذه القشرة رقيقة جدًا فسمكها يتراوح من عدة كيلومترات إلى عدة عشرات من الكيلومترات على أقصى تقدير ، على حين يزيد نصف قطر الأرض بقليل على ٦٠٠٠ كم ، وذلك يعنى أن متوسط قشرة الأرض لا يمثل واحدًا من مائة من نصف قطر الأرض . لقد وقعت الظاهرات الچيولوچية على هذه القشرة الرقيقة - إن جاز القول - وأساس هذه الظاهرات هو التعرجات ، وهى أصل سلسلة الجبال ، ويسمى تشكلها فى علم الچيولوچيا بالـ Oroge-nese (أى تكون الجبال) . ولهذه العملية أهمية بالغة ، لظهور البروز الذى سيشكل جبلاً مرتبطًا به فى العمق بانغراز نسبى للقشرة الأرضية التى تؤكد قاعدة للطبقة التحتية .

إن تاريخ توزع البحار والأراضى على سطح الكرة لم يعرف إلا حديثًا ، وعو غير كامل حتى بالنسبة إلى العصور الأقل قدمًا التى تعرف أحسن من غيرها . ويحتمل أن يرجع ظهور المحيطات المشكلة للسطح المائى للكرة Hydrosphere إلى نصف مليار سنة تقريبًا . أما القارات التى كانت تشكل كتلة واحدة فى نهاية العصر الأول تفرقت بعد ذلك . فإن القارات أو قطعًا من القارات قد ظهرت بواسطة عملية تشكل الجبال فى المنطقة المحيطية (حالة قارة شمال الأطلنطى ، وجزء من أوربا مثلاً) .

وعلى حسب الأفكار الحديثة فإن ظهور سلاسل الجبال هو الذى يسود تاريخ تشكل الأراضى التى برزت . ويصنف كل تطور الأرض من العصر الأول إلى العصر الرابع على حسب مراحل تكون الجبال Phases Orogeniques ، وتجمع هذه فى دورات

لها نفس الاسم كى تشكل لبروز جبلى كان له رد فعل على التوازن بين البحار والقارات . ففى عملية التطور هذه اختفى بعض أجزاء من الأرض كانت قد ظهرت من قبل ، وظهرت أجزاء أخرى . وقد تعدل منذ مئات من ملايين السنين توزيع المناطق القارية والمحيطية :

ولا تحتل المناطق القارية الآن إلا ثلاثة أعشار الكرة الأرضية .

هكذا تتلخص بشكل غير كامل وغير مكتمل التحولات التى حدثت فى مئات ملايين السنوات الماضية .

فيما يخص تضاريس الأرض فلا يكاد القرآن يتحدث إلا عن تشكل الجبال . فالواقع ليس هناك الكثير مما يمكن أن يقال من وجهة النظر التى تهمنا عن الآيات التى تعبر فقط عن عناية الله بالإنسان ، وذلك بالنسبة لتشكل الأرض كما فى الآيات التالية :

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا ۝ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا ﴾ (نوح ٧١ الآيتان ١٩، ٢٠).

﴿ وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴾ (الذاريات ٥١ الآية ٤٨) .

هذا البساط الذى مد وفرش هو القشرة الأرضية ، أى تلك الصدفة التى تصلبت، والتى نستطيع الحياة عليها ، أما الطبقات التحتية للكرة فهى ساخنة جدًا وسائلة وغير صالحة لأى نوع من أنواع الحياة .

مهمة جدًا تلك الجمل القرآنية الخاصة بالجبال ، وإشارتها إلى ثباتها نتيجة لظاهرات التعرج .

﴿ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ (الغاشية ٨٨ الآيتان ١٩، ٢٠) .

ويدعو السياق هنا الكافرين لأن ينظروا نحن بعض الظاهرات الطبيعية . وتتضح بجلاء فى هذه الآية فكرة الحذر الكائن داخل الأرض ، وتحدد الآيات التالية أيضًا هذا المعنى :

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۞ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ (النبأ ٧٨ الآية ٦، ٧) .

والأوتاد المشار إليها هنا هى تلك التى تستخدم فى تثبيت الخيام فى الأرض (أوتاد والمفرد : وتد) .

ويصف علماء الچيولوچيا الحديثون تعرجات الأرض بأنها تثبت الأجزاء البارزة التى تتنوع أبعادها من الكيلومتر إلى عشرة الكيلومترات ، ومن ظاهرة التعرج هذه ينتج ثبات القشرة الأرضية .

وعليه فإننا نقرأ فى بعض عبارات القرآن بعض تأملات عن الجبال مثل العبارات التالية :

﴿ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴾ (النازعات ٧٩ الآية ٣٢) .

﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ (لقمان ٣١ الآية ١٠) .

وتتكرر نفس الجملة فى الآية ١٥ من سورة النحل ونفس الفكرة معبر عنها بشكل لا يختلف كثيرًا فى الآية ٣١ من سورة الأنبياء ٢١ :

﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ ﴾ .

وتقول هذه الآيات إن الطريقة التى خلقت بها الجبال موائمة للثبات ، وذلك يتفق تمامًا مع معطيات علم الچيولوچيا .

(د) الجـو الأرضى

إلى جانب بعض الجوانب التى تخص السماء بالتحديد ، والتى درست فى الفصل السابق ، فإن القرآن يحتوى على بعض عبارات متعلقة بالظاهرات التى تحدث فى الجو . أما فيما يخص مقابلتها بمعطيات العلم الحديث فسنلاحظ فقط أن هذا أيضًا لا يوجد تناقضًا مع المعارف الحديثة التى نملكها اليوم عن الظاهرات المذكورة .

الارتفاع

الواقع أن الآية ١٢٥ من سورة الأنعام ٦ تعبر عن فكرة عادية تمامًا عن الضيق الذى نشعر به فى الأماكن المرتفعة ، والذى يزداد كلما ارتفعنا فى الجو ، تقول الآية :

﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ .

ويدعى البعض أن فكرة ضيق التنفس كانت غير معروفة عند العرب فى عصر محمد ﷺ ولكن يبدو أن الأمر غير ذلك : فوجود مرتفعات عالية تربو على ٢٥٠٠م فى شبه الجزيرة العربية يجعل من غير المنطقى القول بجهل صعوبة التنفس عن الارتفاع[1]. كما أن هناك من المعلقين من أراد أن يرى فى تلك الآية بشارة بغزو الفضاء، ولكن يبدو أنه لابد من استبعاد هذا تمامًا ، على الأقل فيما يتعلق بهذه الآية .

الكهرباء الجوية

الكهرباء الجوية ونتائجها الصواعق والبرد مشار إليها فى الآيات التالية :

﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ * وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾ (الرعد ١٣ الآيتان ١٢، ١٣) .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ ﴾ (النور ٢٤ الآية ٤٣) (وقد ذكرت فى هذا الفصل) .

---

(١) تقع مدينة صنعاء عاصمة اليمن التى كانت مأهولة بالسكان فى عصر محمد ﷺ على ارتفاع قدره ٢٤٠٠م تقريبًا .

وفى هاتين الآيتين تعبير عن علاقة واضحة بين تشكل سحب المطر الثقيلة أو البرد ووقوع الصاعقة : فالأولى موضوع اشتهاء لما تمثله من خير ، على حين تخشى الثانية وهى خاضعة لقرار القادر تعالى . إن العلاقة بين الظاهرتين تتفق مع المعارف التى نملكها اليوم عن الكهرباء الجوية .

الظل

أما ظاهرة الظل وانتقاله ، تلك التى نجد تعليلها عاديًا فى عصرنا ، فإنها موضوع تأملات فى الآيات التالية :

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلالاً ﴾ (النحل ١٦- الآية ٨١) .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ (النحل ١٦ الآية ٤٨) .

وفى سورة الفرقان ٢٥ الآيتان ٤٥، ٤٦) ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً * ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ .

فهذه الآيات تتحدث ععن الظل وأن حركته التى بيد الله وحده دليل على إعجاز الله وقدرته .

عالم النبات وعالم الحيوان

(أ) أصل الحياة

شغلت هذه المسألة فى كل العصور الإنسان . سواء ما كان يخصه منها أو ما يخص الكائنات الحية المحيطة به . وسندرسها هنا من وجهة نظر عامة . أما الفصل التالى فسيعالج حالة الإنسان الذى يشكل وصوله على الأرض وتناسله موضوع دراسات مستفيضة على جانب كبير من الأهمية .

وعندما يواجه القرآن أصل الحياة على مستوى عام تمامًا ، فإنه يذكر ذلك بإيجاز بالغ فى آية تخص أيضًا عملية تشكل الكون التى ذكرناها وعلقنا عليها سابقًا .

١ - سورة الأنبياء ٢١ - الآية ٣٠ :

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

ليس هناك شك فى مفهوم المصدر . فالعبارة يمكن أن تعنى أن كل شىء مصدره الماء كمادة جوهرية ، أو أن أصل كل شىء حى هو الماء . ويتفق هذان المعنيان تمامًا مع العلمية : فالثابت بالتحديد أن أصل الحياة مائى ، وأن الماء هو العنصر الأول المكون لكل خلية حية ، فلا حياة ممكنة بلا ماء ؛ وإذا ما نوقشت إمكانية الحياة على كوكب ما فإن أول سؤال يطرح هو : أيحتوى هذا الكوكب على كمية كافية للحياة عليه ... ؟

وتسمح المعطيات الحديثة بالاعتقاد بأن أقدم الكائنات الحية كانت تنتمى إلى عالم النبات : فقد اكتشفت طحالب ترجع إلى ما قبل العصر الكمبرى Preambnen أى فى أقدم الأراضى المعروفة . ولابد أن عناصر عالم الحيوان قد ظهرت بعد ذلك بقليل : وقد أتت أيضًا من المحيطات .

وتشير كلمة ماء إلى ماء السماء . كما تعنى ماء المحيطات أو أى سائل آخر . وبالمعنى الأول فالماء هو العنصر اللازم لأى حياة نباتية .

﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾ (طه ٢٠ الآية ٥٣) .

وتلك أول عبارة عن « الزوجية » فى النباتات ، وسنعود فيما بعد إلى هذا المفهوم . إن الكلمة بمعناها الثانى - أى ذلك الذى يعنى « سائل » دون أى تحديد ، مستخدمة فى شكلها غير المحدد للدلالة على ما هو أصل تشكل أى حيوان .

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ ﴾ (النور ٢٤ الآية ٤٥) .

وسنرى فيما بعد أن الكلمة تنطبق أيضًا على السائل المنوى[1] .

وإذن فسواء كان المقصود هو أصل الحياة عمومًا ، أو العنصر الذى يجعل النباتات تولد فى التربة ، أو كان المقصود هو بذرة الحيوان فإن كل عبارات القرآن تتفق تمامًا مع المعطيات العلمية الحديثة ، ولا مكان مطلقًا فى نص القرآن لأى خرافة من الخرافات التى كانت منتشرة فى عصر تنزيل القرآن .

(ب) عالم النبات

لا نستطيع هنا أن نذكر بشكل كلى العبارات الكثيرة فى القرآن التى تتحدث عن نعم الله فيما يتعلق بالطابع النفعى للمطر الذى ينبت النبات . لنختار إذن ثلاث آيات من هذا الموضوع .

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۞ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (النحل ١٦ الآيتان ١٠، ١١) .

---

(١) سائل مفروز بواسطة الغدد الخاصة بالتناسل ، وهو يحتوى على الحيوانات المنوية .

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنعام ٦ الآية ٩٩) .

﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ * رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ (ق - الآيات من ٩ إلى ١١) .

ويضيف القرآن إلى هذه الاعتبارات العامة اعتبارات أخرى تنصب على جوانب أكثر تحديدًا .

التوازن الذى يتحكم فى عالم النبات

﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ (الحجر ١٥ الآية ١٩) .

تنوع المأكل

﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (الرعد ١٣ الآية ٤) .

ومما هو جدير بالملاحظة وجود هذه الآيات ، ذلك حتى نبرز بساطة ورزانة الألفاظ المستخدمة ، وغياب ذكر معتقدات العصر المناقضة للحقائق الأساسية التى تم إثباتها فى عصرنا . ولكن أكثر ما يثير الانتباه هو العبارات القرآنية الخاصة بالتناسل فى عالم النبات .

تناسـل النبات :

يجب أن نذكر بأن التناسل يتم فى عالم النبات بطريقتين : طريقة جنسية وأخرى لا جنسيـة . والحقيقـة أن الطريقـة الأولى هـى فقط التـى تستحق اسم التناسل ، فهى التى تحـدد العملية البيولوچية التى تهدف إلى إظهار فرد جديد مطابق لذلك الذى أولده .

أما التناسل اللاجنسى فهو مجرد تكاثر ، وذلك أنه ينتج عن انقسام عضو يكتسب بانفصاله عن النبات الأصلى نموًا يجعله شبيهًا بذلك الذى خرج منه : ويعتبر جيارمون Guillermond ومـانجينو Mangenot هذا التكاثر « حالة نمو خاصة » . والمثال البسيط على ذلك هو الشتل : أى قطع غصن من نبات ما ووضعه فى التربة ، وريه بالشكل الملائم ليتجدد بواسطة جذور جديدة . ولبعض النباتات أعضاء خاصة لهذا الغرض ، والبعض الآخر يصدر غبيرات تتصرف - إذا جاز القول - كما لو كانت حبيبات . (ولنذكر مرة أخرى أن الحبوب هى ناتج من عملية التناسل الجنسى) .

ويتم التناسل الجنسى بواسطة تزاوج عناصر ذكرية بعناضر أنثوية تنتمى إلى مكونات التجديد المجتمعة على نفس النبات أو المنفصلة . والقرآن لا يذكر إلا هذه العملية .

﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى ﴾ (طه ٢٠ الآية ٥٣) .

زوج (الجمع : أزواج) هو ما يتكون من اثنين . وتنطبق الكلمة على زوج من الأحذية كما تنطبق على وحدة تتكون من ذكر أو أنثى .

﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ (الحج ٢٢ الآية ٥) .

﴿ فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ (لقمان ٣١ الآية ١٠) .

﴿ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ (الرعد ١٣ الآية ٣) .

المعروف أن الثمرة هى نتاج عملية تناسل النباتات العليا التى تمتلك نظامًا مركبًا والمرحلة التى تسبق الثمرة هى مرحلة الزهرة بأعضائها الذكرية (الإبر) وأعضائها الأنثوية (البويضات) . وبعد نقل اللقاح تعطى هذه الأخيرة الثمار التى تعطى هذه الحبوب بعد النضج . إن كل ثمرة إذن تتضمن بالضرورة وجود أعضاء ذكورة وأعضاء أنوثة . وذلك ما تريد الآية القرآنية أن تقول .

ومع ذلك فيجب أن نلاحظ أن الثمرات فى بعض الأنواع تستطيع أن تنتج عن زهور غير ملقحة ، (وهى الثمار عذرية التوالد Parthemoearpiques ، كما هو الحال بالنسبة لثمار الموز وبعض أنواع الأناناس والتين والبرتقال والأعناب . ولا يعنى هذا أن هذه الثمار لا تأتى من نباتات ذات نشاط جنسى) .

ويتم عندما تنبت الحبة بعد أن ينفتح غطاؤها الخارجى (وعندما يصبح غطاء الحبة صلبًا تتكون النواة) . ويسمح هذا الانفتاح بخروج الجذور التى تنهل من التربة ما يلزم لنبات بطئ الحياة - أى الحبة ، وذلك حتى تنمو وتعطى فردًا جديدًا .

﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى ﴾ (الأنعام ٦ الآية ٩٥) .

وإذا كان القرآن يكرر كثيرًا وجود عنصرى الزوجية هذه فى عالم النبات ، فإنه يسجل مفهوم التزاوج فى إطار أكثر عمومية لا يعين حدوده .

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ ﴾ (يس ٣٦ الآية ٣٦) .

ويمكن تقديم افتراضات عديدة عن معنى الأشياء التى لم يكن الناس يعرفونها فى عصر محمد ﷺ والتى يمكن أن نرى اليوم لها بنيات Structures أو وظيفة تزاوج ، سواء كان ذلك فيما يخص العالم المتناهى فى الصغر أو المتناهى فى الكبر أو عالم الأحياء أو عالم الجماد . المهم هو أن نحفظ المفاهيم المعبر عنها بشكل واضح ، وأن نلاحظ مرة أخرى أننا لا نجد فى القرآن تنافرًا مع علم اليوم .

(جـ) عالم الحيوان

فى القرآن عدة مسائل متعلقة بعالم الحيوان ، وهى موضوع ملاحظات تتطلب أن نقوم بمقابلة مع المعارف العلمية الحديثة فيما يتعلق بهذه النقاط الخاصة . هنا أيضًا نخاطر بأن نعطى عرضًا غير كامل لما يحتويه القرآن بالنسبة لهذا الموضوع ما لم تذكر عبارة كالتالية ، حيث يشير الله إلى خلق بعض عناصر عالم الحيوان بهدف أن يجعل الناس يتأملون فى نعمة الله عليهم . ونقدم هذه العبارة أساسًا لإعطاء مثل عن الطريقة التى يذكر بها القرآن تكيف الخلق الذى يتناغم مع احتياجات الإنسان . خاصة فى حالة الفلاحين . حيث لا يشكل هذا المثل مادة لدراسة من نوع آخر .

﴿ وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ * وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ (النحل ١٦ الآيات من ٥ إلى ٨) .

وإلى جانب هذه الاعتبارات ذات الطابع العام فالقرآن يعرض لبعض المعطيات عن موضوعات شديدة التنوع منها :

- التناسل فى عالم الحيوان .
- ذكر وجود الجماعات الحيوانية .
- تأملات فى النحل والعناكب والطيور .
- مقولة عن أصل لبن الحيوان .

١ - التناسل فى عالم الحيوان

يذكر التناسل بشكل شديد الإنجاز فى الآيتين ٤٥ و ٤٦ من سورة النجم ٥٣ :

﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴾ .

الزوج ، عنصر التزاوج هو نفس التعبير الذى وجدناه فى الآيات الخاصة بتناسل النباتات . الجنسان مدلول عليهما هنا . ولكن التفصيل الرائع يكمن فى التحديد المعطى عن الكم الضئيل من السائل اللازم للتناسل . وبما أن الكلمة الدالة على السائل المنوى مستخدمة فيما يخص الإنسان ، فإننا سنقدم فى الفصل التالى تعليقًا على أهمية هذه الملاحظة .

٢ - وجود الجماعات الحيوانية

﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ (الأنعام ٦ الآية ٣٨) .

من هذه الآية عدة نقاط يجب تفسيرها . أولاً : يبدو أن القرآن يذكر مصير الحيوانات بعد موتها . بالنسبة لهذه المنطقة فليس للإسلام أى مذهب فيما هو واضح . إن المصير العام[1] ، الذى يبدو أنه الموضوع هنا ، يمكن تصوره باعتباره مصيرًا مطلقًا أو مصيرًا نسبيًا محدودًا ببنيات Structures ونظامًا وظيفيًا تتحكم فى طريقة ما للسلوك : فالحيوان يستجيب لدوافع خارجية متنوعة ، وهو يخضع وظيفيًا فى ذلك لشروط خاصة .

وحسب بلاشير Blachere فإن مفسرًا قديمًا مثل الرازى كان يرى أن هذه الآية لا تعنى إلا أفعالاً غريزية تحمد بها الحيوانات الله . أما الشيخ أبو بكر حمزة فإنه يتحدث فى تعليقات ترجمته للقرآن عن « الغريزة التى تدفع - على حسب الحكمة الإلهية - كل الكائنات لكى تجتمع للتناسل وللتنظيم فى جماعات تطلب أن يكون عمل كل فرد مفيدًا للجماعة » .

لقد درست هذه السلوكيات الحيوانية بدقة فى العقود الأخيرة ، وانتهى الدارسون إلى أن اكتشفوا وجود جماعات حيوانية حقيقية . ولاشك أن دراسة نتيجة عمل جماعة

(١) رأينا فى مقدمة الجزء الثالث من هذا الكتاب ما يجب أن نرى فى معنى المصير بالنسبة لما يختص بالإنسان .

ما قد جعل الدارسين يقبلون منذ زمن طويل ضرورة التنظيم الجماعى . ولكن لم يتم اكتشاف تفاصيل هذه التنظيمات ، بالنسبة لبعض الأنواع ، إلا منذ عهد قريب . إن أحسن مثال مدروس ، وأكثر مثال معروف هو بلا جدال مثال النحل الذى ترتبط بسلوكه أسماء فون فريش Von Frisch ولورنز Lorenz وتنبرجن Tinberg الذين حازوا لهذا السبب على جائزة نوبل فى عام ١٩٧٣ .

٣ - تأملات خاصة بالنحل والعناكب والطيور

عندما يريد أخصائيو الجهاز العصبى أن يعطوا أمثلة أخاذة عن النظام المعجز الذى يتحكم فى السلوك الحيوانى ، فإن الحيوانات التى ربما تذكر أكثر الأمر هى النحل والعناكب والطيور (وخاصة الطيور المهاجرة) . وعلى أى حال فيمكن التأكد بأن هذه الجماعات الثلاثة تشكل أمثلة غاية فى الجمال عن النظام الراقى .

وإذن فذكر النص القرآنى لهذه الثلاثية المثلى فى عالم الحيوان يستجيب تمامًا للطابع الهام بشكل فريد من وجهة النظر العلمية لكل حيوان من تلك الحيوانات المذكورة هنا .

النحل :

النحل موضوع أطول تعليق فى القرآن :

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ[1] إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (النحل ١٦ الآيتان ٦٨، ٦٩) .

(١) هذه الآية الأخيرة هى الوحيدة التى تشير إلى إمكانية دواء الإنسان . الواقع أن العسل مفيد فى بعض الأمراض ، ولا يشير القرآن فى أى موضع آخر إلى أى فن تطبيب من أى نوع على العكس من كل ما قيل .

من العسير أن نعرف ما المقصود بالتحديد بالأمر باتباع سبل الله بتواضع ، ما لم يكن ذلك من وجهة نظر عامة . وكل ما يمكن أن يقال - بالاعتماد على المعرفة التى نملك اليوم عن سلوك النحلة - هو أن هناك نظامًا عصبيًا رائعًا هو قاعدة السلوك ، يمثل ما فى حالات الحيوانات الثلاثة المذكورة فى القرآن كمثل . المعروف أن النحل يملك وسيلة للتخاطب وذلك عن طريق الرقص . إن النحل قادر على أن يعرف - بهذا الشكل - الاتجاه الذى يجب أن يتخذه ، والمسافة التى توجد عليها الزهور التى سيمتص رحيقها . وتثبت تجربة فون فريش الشهيرة دلالة حركات الحشرة التى يقصد بها نقل المعلومات بين النحل العامل وبعضه .

العنكبوت :

يشير القرآن إلى العنكبوت للتأكيد على دقة مسكنه ، فهو من بين كل المساكن أكثرها وَهَنًا . يقول النص القرآنى إنه ملجأ غير مأمون ، كذلك الذى يتخذه الناس ممن اختاروا إلهًا من دون الله .

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (العنكبوت ٢٩ الآية ٤١) .

الواقع أن نسيج العنكبوت يتكون من خيوط حريرية تفرزها غدد الحيوان ، وعيار هذه الخيوط ضئيل متناه فى الضآلة . ولا يستطيع الإنسان أن يقلد دقة هذا النسيج .

ويتساءل علماء الطبيعيات عن خطة العمل الخارقة التى سجلتها الخلايا العصبية للحيوان ، والتى لا تسمح له بتكون نسيج ذى هندسة كاملة ، ولكن القرآن لا يتحدث عن هذا .

الطيور :

الطيور موضوع إشارات متعددة فى القرآن . وهى تدخل تحت حوادث حياة إبراهيم ويوسف وداود وسليمان والمسيح (عليهم السلام) . وليس لهذه الإشارات صلة مع الموضوع المعالج هنا .

وقد رأيت أعلاه الآية الخاصة بوجود جماعات الحيوانات الأرضية والطيور .

﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ... ﴾ (الأنعام ٦ الآية ٣٨) .

وهناك آيتان أخريان تبرزان خضوع الطيور المطلق لسلطان الله .

﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (النحل ١٦ الآية ٧٩) .

﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَنُ ﴾ (الملك ٦٧ الآية ١٩) .

إن تفسير كل كلمة لكل من تلك الآيات أمر عسير . والتفسير الذى أعطينا يعبر عن فكرة أن الله يملك الطيور تحت سلطانه . ويعنى المعنى الأول لفعل أمسك : وضع يده على الشيء ، قبض ، احتفظ فى يده بشيء .

ويمكن تمامًا أن نقرب بين هذه الآيات التى تبرز الارتباط الوثيق جدًا لسلوك الطائر فى علاقته مع سلطان الله وبين المعطيات الحديثة التى أوضحت درجة الكمال التى وصل إليها بعض أنواع الطيور فى التخطيط لبرامج تنقلاتها . فوجود برنامج هجرة مسجل على الجدول الجنيطقى God Genetique للحيوان هو وحده الذى يستطيع أن يعلل تلك المسارات المعقدة والطويلة جدًا التى تقوم بها طيور صغيرة السن ، ودون تجربة سابقة ، وبلا أى قائد لتعود بعد ذلك إلى نفس المنطلق فى تاريخ محدد . ويذكر الأستاذ هامبورج Hamburger على سبيل المثال فى كتابه « القوة والوهن »[1] La Puissance et La Fragilite المثل الشهير لطائر المحيط الهادئ المعروف باسم Mutton-bird ورحلته على شكل 00 والتى تبلغ ٢٥٠٠٠ كم[2] ومن المقبول الآن أن التوجيهات المعقدة

(١) Glammarion, Editeur, Paris, 1972.

(٢) يقوم الطائر بهذه الرحلة فى ستة أشهر ليعود إلى المكان الذى انطلق منه بتأخير أسبوع بأقصى حد .

جدًا لمثل هذه الرحلة مسجلة بالضرورة على خلايا الطائر العصبية . ولا شك أنها خططت فى برنامج . فمن المخطط إذن ؟

أصول مكونات لبن الحيوان

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴾ (النحل - الآية ٦٦) .

يتفق تعريف القرآن لأصل مكونات لبن الحيوان مع معطيات المعرفة الحديثة اتفاقًا تامًا . والطريقة التى نفسر بها الآية شخصية ، فالتفسيرات التى تعطى لها عادة - حتى الحديثة منها - لم تعد مقبولة فى رأيى . وإليكم مثالين على ذلك :

- تفسير ر. بلاشير (١٩٦٦)(١) .

« الحقيقة أن لكم فى أنعامكم موعظة لا شك فيها . نسقيكم من لبن نقى لذيذ لمن يشربه ، يأتى مما فى جوفها بين الطعام المهضوم والدم » .

- تفسير الأستاذ حميد الله (١٩٧١)(٢) .

« ولا شك أن فى الحيوانات موضوعًا للتأمل . فمما فى جوفها بين الفضلات والدم . نجعلكم تشربون لبنًا صافيًا . سهل المشرب على الشاربين » .

ولو قدمنا مثل هذه النصوص لأى أخصائى فى وظائف الأعضاء فسيقول بأنها غامضة شديدة الغموض . إذ لا يتضح بتاتًا أى توافق مع خبرات المعرفة الحديثة حتى الأولية منها . ومع ذلك فهذه السطور من كتب مستعربين بارزين . ولكنه شىء معروف جدًا . إن أى معلق - مهما يكن خبيرًا - عرضه للوقوع فى خطأ التعليق على المقولة العلمية ما لم يكن متخصصًا فى المادة المعنية .

---

(١) Le Coran. G.P. Maisonneuve et Larose, 1966.

(٢) Le Coran, Club Francais du Livre, 1971.

أما التفسير الذى يبدو لنا صحيحًا فهو :

« الحقيقة أنكم تجدون علمًا فى حيواناتكم الماشية : إننا نعطيكم شرابًا مما يوجد فى أجسامها . أى ما يأتى من التلاحم بين محتوى الأمعاء والدم ، لبنًا صافيًا يسير الابتلاع على من يشربونه » .

هذا التفسير مقارب للذى يعطيه المنتخب فى تفسير القرآن الكريم (الطبعة الثالثة عام ١٩٧٣) الذى نشره المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ، فهو يعتمد على معطيات علم وظائف الأعضاء الحديث .

ونعلل لهذا التفسير ، فيما يختص بالمفردات بما يلى :

لقد قلت « مما فى داخل أجسامها » وليس فى جوفها كما قال ر. بلاشير أو الأستاذ حميد الله ، لأن كلمة « بطن » أيضًا تعنى وسطًا أو داخل شىء ، وليس لهذه الكلمة معنى تشريحى معين . وبالتالى نقول « مما فى داخل أجسامها يبدو لنا متوائمًا تمامًا مع السياق » .

أما مفهوم « مصدر » مكونات اللبن فنجد تعبيره فى حرف الجر « من » ولفظة الربط « بين » . ولا يدل فقط الحرف الأخير على فكرة وجود شىء من بين أشياء أخرى أو داخلها . مثلما نرى ذلك فى ترجمتى بلاشير وحميد الله الفرنسيتين ، وإنما تدل أيضًا على مواجهة شيئين أو شخصين .

ولكى نفهم معنى هذه الآية من وجهة النظر العلمية فلابد من الاستعانة بمعلومات علم وظائف الأعضاء .

تأتى المواد الأساسية التى تتكفل بتغذية الجسم عامة من تفاعلات كيميائية تحدث فى القناة الهضمية . وتأتى هذه المواد من عناصر موجودة فى محتوى الأمعاء . وعندما تصل هذه المواد الموجودة بالأمعاء إلى المرحلة المطلوبة فى التفاعل الكيميائى فإنها تمر عبر جدار الأمعاء نحو الدورة العامة . ويتم هذا الانتقال بطريقتين : إما مباشرة بواسطة ما يسمى بالأوعية الليمفاوية . وإما بشكل غير مباشر بواسطة الدورة البابية

التى تقود هذه المواد إلى الكبد . حيث تقع عليها بعض التعديلات ، ثم تخرج من الكبد لتذهب أخيرًا إلى الدورة الدموية . بهذا الشكل إذن يمر كل شىء بالدورة الدموية .

والغدد الثديية هى التى تفرز مكونات اللبن ، وتتغذى هذه الغدد ، إذا جاز القول ، بمنتجات هضم الأغذية التى تأتى إليها بواسطة الدم الدائر . الدم إذن يلعب دور المحصل والناقل للمواد المستخرجة من الأغذية ومغذى الغدد الثديية منتجة اللبن مثلما يغذى أى عضو آخر .

كل شىء يحدث هنا إذن ابتداء من مواجهة محتوى الأمعاء مع الدم فى الجدار الأمعائى نفسه . هذه المعلومة المحددة تعد اليوم من مكتسبات الكيمياء وفسيولوچيا الهضم . وكانت غير معروفة مطلقًا فى عصر محمد ﷺ . إن معرفتها ترجع إلى العصر الحديث . أما اكتشاف الدورة الدموية فهو من عمل هارفى ، وقد تم هذا الاكتشاف بعد عشرة قرون تقريبًا من تنزيل القرآن .

إنى أعتقد أن وجود الآية القرآنية التى تشير إلى تلك المعلومات لا يمكن تفسيره وضعيًا ، وذلك بالنظر إلى بعد العصر الذى صيغت فيه هذه المعلومات .

التناسل الإنسانى

التناسل موضوع تفلت أى كتابات قديمة عنه من إصدار مفاهيم خاطئة ما إن تدخل فى تفاصيله ولو قليلاً . ففى القرون الوسطى ، بل حتى فى عصر لا يبعد عنا كثيرًا ، كانت ضروب كثيرة من الخرافات تحيط بالتناسل . وكيف لا . وخاصة أن فهم عملياته المعقدة تطلبت من الإنسان أن يعرف علم التشريح ، وأن يكتشف المجهر ، وأن يضع العلوم الأساسية التى تنهل منها علوم وظائف الأعضاء والأجنة والتوالد وغير ذلك ؟

ولكن الأمر يختلف تمامًا بالنسبة إلى القرآن . فهو يذكر فى مواضع عديدة العمليات للتناسل . القرآن يصف مراحله بالدقة والتحديد دون أن يكون فى قراءتها أى مقولة مشوبة بالخطأ . إنه يعبر عن ذلك فى عبارات بسيطة ، يسهل على فهم الإنسان إدراكها ، وتتفق تمامًا مع ما سيكتشف بعد ذلك بكثير .

وإذا كان التناسل الإنسانى مذكورًا فى عشرات من الآيات القرآنية دون أى ترتيب واضح ، فإن القرآن يعرض له مستعينًا بمقولات ينصب كل منها على نقطة أو عدة نقاط خاصة . ولابد من تجميع هذه الآيات حتى تكون لدينا فكرة شاملة ، فذلك ييسر التعليق مثلما فعلنا بالنسبة للموضوعات الأخرى التى عالجناها .

إعادة بعض المعلومات

يجب أن نعيد بعض المعلومات التى كانت مجهولة فى عصر تنزيل القرآن وفى القرون التالية .

التناسل البشرى مكفول بواسطة سلسلة من عمليات مشتركة بين كل الثدييات . وبداية هذه السلسلة الإخصاب فى البوق لبويضة انفصلت عن المبيض فى منتصف الدورة الحيضية . والعامل المخصب هو مَنِىّ الذكر ، أو بالتحديد الحيوان المنوى ، فخلية منتجة واحدة منه تكفى للإخصاب : إذن ، فلكى يتم الإخصاب يكفى له كمية

ضئيلة جدًا من هذا السائل المنوى الذى يحتوى على حيوانات منوية بعدد ضخم (لعملية قذف واحدة عشرات من ملايين الحيوانات المنوية) . وينتج السائل المنوى بواسطة الخصيتين ، ويخزن مؤقتًا فى جهاز للتخزين وفى القنوات التى تؤدى فى النهاية إلى المسالك البولية ، وتوجد غدد ملقحة متفرقة على طول هذه المسالك تضيف إلى السائل نفسه إفرازًا إضافيًا ، لكنه لا يحتوى على عناصر مخصبة .

وفى نقطة معينة من جهاز الأنثى التناسلى تعشش البيضة المخصبة ؛ فهى تهبط عبر بُوق من البوقين إلى الرحم ، وتعشش بالرحم نفسه ، حيث ما تلبث أن تعلق به حرفيًا وتدخل فى سمكه ثم فى عضلته بعد ذلك تشكل المشيمة بدلاً من الرحم فإن الحمل سينقطع .

ويبدو الجنين ، عندما يمكن رؤيته بالعين المجردة ، على شكل كتلة لحمية صغيرة لا يمكن فى البداية أن نميز فيها مظهر الكائن الإنسانى ، ويتم فى هذه الكتلة تدريجيًا وعبر مراحل متوالية معروفة اليوم جيدًا ، ما سيكون بعد ذلك الهيكل العظمى تحيط به العضلات والجهاز العصبى والجهاز الدورى والأحشاء إلى غير ذلك .

تلك هى المعلومات التى ستستخدم للمقارنة مع ما نقرأ فى القرآن عن التناسل .

التناسل الإنسانى فى القرآن

إن تكوين فكرة عن محتوى القرآن فى هذا الموضوع ليس أمرًا يسيرًا . وتكمن الصعوبة الأولى فى أن المقولات الخاصة بالتناسل الإنسانى متفرقة فى كل الكتابات مثلما أشرنا ، ولكن ليس هذه هى الصعوبة الكبرى . فأكثر ما قد يضل الباحث ، هنا أيضًا ، هو مشكلة المفردات .

فالواقع أن ترجمات وتفسيرات بعض الفقرات التى مازالت منتشرة فى عصرنا تعطى لرجال العلم الذين يقرءونها فكرة مغلوطة تمامًا عن الآيات الخاصة بهذا الموضوع، على سبيل المثال تقول معظم هذه التفسيرات بتشكل الإنسان ابتداء من «جلطة دم» أو ابتداء من « التحام » . وهذه المقوة لا يقبلها مطلقًا العالم المتخصص فى

هذا الميدان : فلم يكن أصل الإنسان أبدًا شيئًا من هذا . وسنرى فى الفقرة التى تعالج تعشيش البويضة رحم الأم الأسباب التى من أجلها يقع مستعربون بارزون فى مثل تلك الأخطاء ، لافتقارهم إلى الثقافة العلمية .

مثل هذه الملاحظة تجعلنا نتصور الأهمية الكبرى لاقتران المعارف اللغوية والمعارف العلمية للوصول إلى إدراك معنى المقولات القرآنية عن التناسل .

يركز القرآن أولاً على التحولات المتوالية التى يمر بها الجنين فى رحم الأم حتى نهاية الحمل .

﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ (الانفطار ٨٢ الآيات من ٦ إلى ٨) .

﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ (نوح ٧١ الآية ١٤) .

وإلى جانب هذه الملاحظة العامة يلفت نص القرآن الانتباه نحو نقاط عدة خاصة بالتناسل البشرى ، ويمكن تصنيفها كما يلى :

١ – يتم الإخصاب بفضل كمية من سائل ضئيلة جدًا .

٢ – طبيعة السائل المخصب .

٣ – تعشش البيضة المخصبة .

٤ – تطور الجنين .

١ - تمام الإخصاب بفضل كمية من سائل ضئيلة جداً

يكرر القرآن هذه المعلومة ١١ مرة مستخدمًا التعبير الذى نجده فى :

﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ ... ﴾ (النحل ١٦ الآية ٤) .

نطفة : تأتى الكلمة من فعل يعنى سال ، ونض ، وتستخدم فى الإشارة إلى ما يمكن أن يتبقى فى دلو بعد تفريغه . وهى إذن تشير إلى كمية من سائل ضئيلة جدًا ،

ومن هنا كان المعنى الثانى « قطرة ماء » . المقصود هنا قطرة من مَنِىّ . ذلك أن نفس هذه الكلمة تقترن بكلمة منى فى آية أخرى هى :

﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ﴾ (القيامة ٧٥ الآية ٣٧) .

وهناك آية أخرى تشير إلى أن النطفة المقصودة توضع فى « قرار » . وهذا القرار كما هو واضح تمامًا يدل على الجهاز التناسلى .

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴾ (المؤمنون ٢٣ الآية ١٢) .

وتعبر صفة « مكين » التى يصف بها النص القرار عن فكرة مكان متقرر . وعلى أى حال فالمقصود هو المكان الذى ينمو فيه الإنسان فى جهاز الأم . ولكن ما يهم التأكيد عليه بوجه خاص هو تلك المعلومة عن الكمية الضئيلة جدًا اللازمة للإخصاب وهى تتفق تمامًا مع ما نعرف اليوم .

٢ - طبيعة السائل المخصب

يذكر القرآن هذا السائل الذى يضمن الإخصاب بصفات تستحق الدراسة :

(أ) « منى » كما حددنا لتونا (سورة القيامة ٧٥ - الآية ٣٧) .

(ب) « ماء دافق » : « خُلِقَ من ماء دافق » (سورة الطارق ٨٦ - الآية ٦) .

(جـ) « ماء مهين » (سورة المرسلات ٧٧ - آية ٢٠ ؛ سورة السجدة ٣٢ - الآية ٨).

يمكن تفسير صفة مهين ، فيما يبدو ، ليس على أنها للسائل نفسه ، وإنما بسبب خروجه من نهاية الجهاز البولى ، فهو إذن يتخذ الطريق الذى يخرج منه البول .

(د) « أمشاج » أى المخاليط ، أو ما هو مخلوط : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ . . . ﴾ (الإنسان ٧٦ الآية ٢) .

ويرى كثير من المفسرين مثل الأستاذ حميد الله ، أن المقصود بهذا المخلوط هو عنصر الذكر ، وعنصر الأنثى . وكذلك الأمر بالنسبة للكتاب القدماء . إذ لم تكن لديهم أدنى فكرة عن فسيولوچيا الإخصاب ولا عن ظروف الإخصاب البيولوچية من ناحية الأنثى ، وكانوا يعتبرون أن الكلمة تشير لمجرد اجتماع عنصرين .

أما المفسرون المحدثون ، مثل صاحب المنتخب الذى نشره المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ، فإنهم يعدلون عن هذه الطريقة ، ويميزون هنا أن نقطة المنى «ذات عناصر شتى» . ولا يعطى تفسير المنتخب تفصيلات أخرى عن ذلك ، ولكن ملاحظته ، فى رأيى ، سديدة تمامًا .

ما هى إذن عناصر المَنِىّ المختلفة ... ؟

يتشكل السائل المنوى من إفرازات مختلفة تأتى من الغدد التالية :

(أ) الخصيتان (يحتوى إفراز الغدة التناسلية للذكر على الحيوانات المنوية ، وهى خلايا مستطيلة مزودة بهدب طويل ، وتسبح فى سائل مصلى) .

(ب) الحويصلات المنوية : تخزن هذه الأعضاء الحيوانات المنوية ، وتقع على مقربة من البروستاتا وتفرز إفرازًا خاصًا لكنه لا يحتوى على عناصر مخصبة .

(جـ) البروستاتا، وتفرز سائلاً يعطى للسائل المنوى قوامه الغليظ ورائحته الخاصة.

(د) الغدد الملحقة بالمسالك البولية : وهى الغدد المعروفة باسم كوبر Cooper أو ميرى Mery وتفرز سائلاً جاريًا ، وغدد ليترى Littre وتفرز المخاط .

تلك هى أصول هذه المخاليط « الأمشاج » التى يبدو فعلاً أن القرآن يتحدث عنها.

بل هناك أكثر من هذا : إذا كان القرآن يتحدث عن سائل مخصب يتكون من عناصر مختلفة ، فإنه يلفت نظرنا إلى أن نسل الإنسان يستمر بواسطة شىء يمكن استخراجه من هذا السائل . وذلك هو معنى الآية ٨ من سورة السجدة ٣٢ :

﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴾ .

سلالة : تدل الكلمة على شىء مستخرج أو خرج من شىء آخر ، أو هو أحسن جزء من شىء . وأيًا كانت طريقة التفسير فالمقصود هو جزء من كل .

إن ما يتسبب فى إخصاب البويضة ، ويكفل التناسل هو خلية شديدة الاستطالة يقاس طولها بمقياس ١ : ١٠،٠٠٠ ملم . إن عنصرًا واحدًا من بين عشرات الملايين

الصادرة من رجل فى ظروف عادية[1] . يصل إلى الولوج فى البويضة . ويتبقى عدد كبير فى الطريق ولا ينجح فى قطع المسافة التى تؤدى من المهبل إلى البويضة عبر تجويف الرحم والبوق (بوق فالوب) . إنه إذن متناهٍ فى الصغر صادر من السائل معقد التركيب هو الذى يحقق نشاطه .

فكيف لا ندهش أمام الاتفاق بين العنصر القرآنى والمعرفة العلمية التى اكتسبناها من هذه الظاهرات .

٢ - تعشش البويضة فى جهاز الأنثى التناسلى

تنزل البويضة لتعشش فى التجويف الرحمى بعد أن تخصب ، وذلك ما يسمى بتعشش البويضة . ويسمى القرآن الرحم الذى تتخذ فيه البويضة مكانًا .

﴿ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ (الحج ٢٢ الآية ٥) .

ويتحقق استقرار البويضة بالرحم بواسطة امتدادات حقيقية ، وكما لو كانت بذورًا تضرب فى الأرض ، فإنها تنهل من جدار العضو ما يلزم لنمو الجنين . وهذه الامتدادات هى التى تجعل البويضة تتعلق بالرحم . ويرجع تاريخ معرفتها إلى العصور الحديثة .

ويشير القرآن خمس مرات إلى هذا التعلق : أولاً فى الآيتين ١ ، ٢ من سورة العلق :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ .

علق : تشير الكلمة إلى ما يعلق (ما يتشبث بشىء) . ذلك هو المعنى الأول . وجلطة الدم معنى مشتق من هذا المعنى ، وكثيرًا ما نراه فى التفاسير ، غير أن هذا أمر غير صحيح ينبغى التحذير منه : فالإنسان لا يمر مطلقًا بمرحلة جلطة الدم . وينطبق نفس الأمر على تفسير آخر وهو « التصاق » . تلك لفظة غير صحيحة . والمعنى الأول للكلمة ، أى شىء يعلق ويتشبث ، هو المعنى الذى يستجيب تمامًا للواقع الثابت اليوم .

ويذكر القرآن تلك المعلومة فى أربع آيات أخرى تتحدث عن التحولات المتوالية ابتداء من قطرة المَنِىّ حتى نهاية الحمل .

(١) يمكن تقدير أن ١ سم٣ من السائل المنوى يحتوى على ٢٥ مليون حيوان منوى فى الظروف العادية لعملية قذف قدرها عدة سنتيمترات مكعبة .

﴿ ... فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ... ﴾ (الحج ٢٢ الآية ٥) .

﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ... ﴾ (المؤمنون ٢٣ الآية ١٤) .

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ﴾ (غافر - الآية ٦٧) .

﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ (القيامة٧٥ الآية ٣٧، ٣٨).

يصف القرآن العضو الذى يقع الحمل به بكلمة فى العربية تدل اليوم على الرحم كما رأينا ذلك . وفى بعض الآيات يسميه قرارًا (الآية ١٣ من سورة المؤمنون ٢٣ المذكورة أعلاه ، والآية ٢١ من سورة المرسلات ٧٧)[1] .

٤ - تطور الجنين فى الرحم

تطور الجنين فى الرحم كما يصفه القرآن يستجيب تمامًا لما نعرف اليوم عن بعض مراحل تطور الجنين ، ولا يحتوى هذا الوصف على أى مقولة يستطيع العلم الحديث أن ينقدها .

إذ يقول القرآن إن الجنين ، بعد مرحلة التشبث ، وهو التعبير الذى رأينا إلى أى حد هو مؤسس على الحقيقة ، يمر بمرحلة « المضغة » (أى اللحم الممضوغ) ثم يظهر بعد ذلك النسيج العظمى الذى يغلف باللحم ويعنى لحمًا نضرًا .

---

(١) تذكر آية أخرى (سورة الأنعام ٦ - الآية ٩٨) مكانًا يمكث به الإنسان ، وتعبر الآية عن هذا المكان بكلمة قريبة جدًا من الكلمة السابقة : هى كلمة « مستقر » . وهى تشير أيضًا إلى رحم الأم ، وأنا شخصيًا أعتقد أن هذا هو معنى الآيات . ولكن تفسيرها بالتفصيل يستتبع إفاضات لا محل لها فى هذه الدراسة . والآية التالية أيضًا تتطلب تفسيرًا عسيرًا جدًا : ﴿ ... يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ... ﴾ (الزمر ٣٩ الآية ٦) . ويرى مفسرون محدثون فى هذه الآية الثلاثة المستويات التى تحمى الطفل فى أثناء الحمل ، أى جدار البطن والرحم نفسه وأغشية الجنين (وهى المشيمة والأغلفة الرقيقة والسائل الأمنيومى). وأرى من واجبى أن أذكر هذه الآية حتى أحيط القارئ بكل جوانب الموضوع ، ولا أظن أن التفسير المعطى هنا قابل للجدل من وجهة نظر علم التشريح ، ولكن السؤال هو : أهذا هو بالفعل ما يريد النص القرآنى أن يقول ؟

﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ﴾ (المؤمنون ٢٣ الآية ١) .

المضغة : تشير إلى ما يشبه اللحم الممضوغ ، أما اللحم فيعنى اللحم النضر . ويستحق هذا التمييز الالتفات . إذ إن الجنين فى مرحلة أولى من تطوره كتلة صغيرة تبدو فعلاً للعين المجردة كلحم ممضوغ . ويتطور الهيكل العظمى فى هذه الكتلة . وبعد أن تشكل العظام ، تتغطى بالعضلات : وعلى العضلات توافق كلمة لحم .

والمعروف أن بعض الأجزاء ، فى أثناء مدة تطور الجنين ، تبدو غير متناسبة مع ما سيكون عليه الفرد فى المستقبل على حين تظل أجزاء أخرى متناسبة .

ذلك هو معنى كلمة « مخلق » ؛ هى تعنى مشكل بنسب ، وقد جاءت فى الآية ٥ من سورة الحج ٢٢ لتشير إلى هذه الظاهرة :

﴿ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ .

ويذكر القرآن أيضًا ظهور الحواس والأحشاء :

﴿ ... وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ ... ﴾ (السجدة ٣٢ الآية ٩) .

ويشير أيضًا إلى تشكل الجنس .

﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴾ (النجم ٥٣ الآيتان ٤٥، ٤٦).

وتذكر الآية ١١ من سورة فاطر ٣٥ ، والآية ٣٩ من سورة القيامة ٧٥ ، تشكل الجنس أيضًا .

وكما قلنا فلابد من مقارنة كل هذه المقولات القرآنية بالمعلومات التى تثبت فى العصر الحديث ، إن توافق المقولات القرآنية مع المعلومات الحديثة يتضح . ولكن من المهم أيضًا مقابلتها بالمعتقدات العامة فى هذا الموضوع ، والتى كانت سائدة فى عصر تنزيل القرآن حتى ندرك إلى أى حد كان معاصرو هذه الفترة بعيدين عن حيازة معلومات تشبه تلك التى يعرضها القرآن فى هذه المسائل . وليس هناك أدنى شك فى

أن هؤلاء المعاصرين لم يعرفوا فى ذلك العصر تفسير هذا الوحى مثلما ندركه نحن اليوم . ذلك أن معطيات المعرفة الحديثة تعيننا على تفسيره . الواقع أن المتخصصين لم يكتسبوا معرفة واضحة إلى حد ما عن هذه المسائل إلا خلال القرن التاسع عشر .

فطيلة كل القرون الوسطى كانت الخرافات والأفكار النظرية التى لا تتمتع بأى أساس هى قاعدة مختلف المعتقدات فى هذا الموضوع ، بل لقد سادت أيضًا لقرون عديدة حتى بعد العصور الوسطى . إن المرحلة الحاسمة فى تاريخ علم الأجنة بدأت بدعوى هارفى Harvey الذى قال ، فى عام ١٦٥١ ، بأن كل شىء حى يأتى أولاً من بويضة ، وأن الجنين يتخلق تدريجيًا جزءًا بعد جزء . فى هذا العصر كان العلم الوليد قد أفيد كثيرًا ، فى الموضوع المعنى هنا ، باختراع المجهر الذى كان قد تم فى عصر سابق بقليل ، وبرغم ذلك فقد كان النقاش دائرًا حول دورى كل من البويضة والحيوان المنوى . وكان بوفون Buffon عالم الطبيعيات الكبير ينتمى إلى أشياع فكرة البويضة ، وكان من بينهم أيضًا بونى Bonet الذى كان يدافع عن نظرية اندماج البذور القائلة بأن مبيض حواء ، أو الجنس البشرى ، كان يحتوى على بذور كل الكائنات الإنسانية متداخلة كل فى الآخر . وقد حظى هذا الفرض ببعض التأييدات فى القرن الثامن عشر .

عرف الناس القرآن بما يربو على ألف عام من قبل هذا العصر الذى كانت المعتقدات الوهمية تسوده . إن مقولات القرآن عن التناسل البشرى تعبر فى ألفاظ بسيطة عن حقائق أولى أنفقت مئات من السنوات لمعرفتها .

القرآن والتربية الجنسية

يعتقد عصرنا أنه قام بمكتشفات كثيرة فى كل الميادين . ويظن أنه قد قدم جديدًا فيما يتعلق بالتربية الجنسية ، وأن فتح أبواب الشباب لمعرفة مشاكل الحياة هو من مكتسبات العصر الحديث ، وأن القرون الماضية كانت تتميز ، فيما يخص هذا الموضوع، بظلام دامس يقول الكثيرون : إن الأديان ، دونما تحديد ، هى المسئولة عنه .

غير أن كل ما عرضنا لهو دليل على أنه ، منذ أربعة عشر قرنًا تقريبًا ، سيقت إلى معرفة الناس مسائل نظرية ، إذا جاز القول ، عن التناسل الإنسانى ، وذلك بقدر المستطاع ، حيث إنه لم تكن هناك معلومات تشريحية وفسيولوچية تسمح بالإفاضة . كان استخدام لغة بسيطة فى متناول فهم مستمعى الرسالة ضروريًا حتى يمكن أن يفهموا ما يقال .

لم تمر الرسالة على الجوانب العملية مر الكرام . بل إننا نجد فى القرآن حشدًا من التفاصيل عن الحياة العملية ، وفيما يختص بالسلوك الذى يجب أن يتبعه الناس فى عديد من ظروف حياتهم . ولم يستبعد القرآن الحياة الجنسية .

هناك آيتان قرآنيتان تخصان العلاقة الجنسية . ويذكر القرآن ذلك بألفاظ تربط بين الرغبة فى الدقة والاحتشام اللازم . وعندما نرجع إلى ترجمات وتفسيرات هاتين الآيتين فإن الاختلاف بينها هو أول ما يستدعى الانتباه . ولقد ترددت طويلاً أمام تفسير هاتين الآيتين ، وإنى مدين بالتفسير الذى أقدمه للدكتور عبد الكريم جيرو ، الأستاذ السابق بكلية الطب ببيروت .

﴿ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ (الطارق ٨٦ الآيتان ٦، ٧) .

يشير النص القرآنى إلى منطقة الرجل الجنسية بكلمة « صلب » . أما المنطقة الجنسية للأنثى فيشير إليها بكلمة « ترائب » (وهى جمع) .

ويختلف هذا التفسير عن ذلك الذى كثيرًا ما يعطيه المعلقون الفرنسيون والإنجليز. إذ يقولون : « خلق الإنسان من سائل منتشر يخرج بين العمود الفقرى وعظام الصدر » وليس هذا التفسير مفهومًا بشكل كاف .

وتشير عبارات قرآنية إلى سلوك الرجال فى علاقتهم الأثيرة مع نسائهم فى ظروف متنوعة .

فأولاً هناك التوجيه بالسلوك اللازم فى مدة الحيض ، وتشير إلى ذلك الآيتان ٢٢٢ و ٢٢٣ من سورة البقرة ٢ :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ۞ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لأَنفُسِكُمْ ... ﴾ .

ولبداية هذه العبارة معنى واضح تمامًا : فتحريم إقامة علاقات جنسية مع امرأة حائض أمر قاطع . أما الجزء الثانى فيشير إلى الحرث الذى يسبق - عند الباذر- وضع البذور التى ستنبت زرعًا جديدًا . إذن العبارة تؤكد بشكل غير مباشر ، عبر الصورة المجازية ، على أهمية أن يكون واضحًا لدى الإنسان أن الهدف النهائى للعلاقة الجنسية هو الإنجاب ؛ والجملة الأخيرة تحتوى على توصية يبدو أنها تخص مقدمات للعلاقة الجنسية .

والتوجيهات المعطاة هنا ذات طابع عام - ولقد تساءل البعض بمناسبة هذه الآيات عن مشكلة منع الحمل : ولا يحتوى القرآن هنا ، ولا فى أى موضع آخر على أية إشارة إلى ذلك .

كذلك فلا إشارة فى القرآن عن الإجهاض ، ولكن العبارات العديدة المذكورة أعلاه عن التحولات المتوالية للجنين بما يكفى لاعتبار أن الإنسان يتشكل ابتداء من مرحلة يميزها وجود « العلقة » وإذن ففى هذه الظروف يفرض الاحترام للشخص الإنسانى ، هذا الاحترام الذى يؤكده القرآن كثيرًا ، إدانة الإجهاض جذريًا . وهذا الموقف هو موقف كل أديان التوحيد فى عصرنا .

والعلاقات الجنسية مسموح بها فى الليل فقط طيلة فترة الإفطار من شهر رمضان والآية الخاصة بشهر رمضان هى :

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ (البقرة ٢ الآية ١٨٧) .

وعلى العكس من ذلك فليس هناك أى استثناء للحجاج فى أثناء أيام الحج الرسمية .

﴿ ... فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ ... ﴾ (البقرة ٢ الآية ١٩٧) .

التحريم إذن قاطع كتحريم الصيد والخصام وغير ذلك فى نفس هذه الفترة .
ويشير القرآن مرة أخرى إلى الحيض بمناسبة الطلاق :

﴿ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ (الطلاق ٦٥ الآية ٤) .

والفترة المشار إليها هنا هى تلك التى تمر من إعلان الطلاق وحتى يصير فعليًا . والنساء اللائى يقول القرآن عنهن « يئسن من المحيض » هن اللاتى بلغن سن اليأس . وقد خصص القرآن لهن ، احتياطًا ، فترة من ثلاثة أشهر . وبعد هذه الفترة تستطيع تلك النساء المطلقات اللائى انقطع طمثهن أن يتزوجن .

أما بالنسبة إلى النساء اللاتى لم يحضن بعد فلا يكون الطلاق فعليًا إلا بعد الوضع .

كل هذه التشريعات تتفق تمامًا مع المعطيات الفسيولوچية . وبالإضافة إلى هذا فنستطيع أن نجد فى القرآن ، فى النصوص الخاصة بالترمل ، نفس الأحكام القانونية السديدة .

وبناء على كل هذا فالمقولات النظرية الخاصة بالتناسل . والتوجيهات العملية التى يصوغها القرآن فيما يختص بحياة الأزواج الجنسية ، نلاحظ أنه ليس هناك أى مقولة من المقولات التى سقناها أعلاه تتعارض مع معطيات المعارف الحديثة ، ولا مع ما يمكن أن يخرج منطقيًا عنها .

الروايات القرآنية
وروايات التوراة

لمحة عامة

يجد قارئ القرآن عددًا مهمًا من الموضوعات عرضتها التوراة . هى قبل كل شىء روايات خاصة بالأنبياء : نوح وإبراهيم وإيليا ويونس وأيوب وموسى ، وبملوك إسرائيل طالوت وداود وسليمان ، ولا نذكر إلا الروايات الرئيسية المشتركة ، ولنستبعد ما لا يتعدى حدود الإشارة العابرة : ثم تأتى بعد ذلك بشكل نوعى روايات لأحداث كبرى تدخلت الخوارق فى مجراها : هناك مثلاً خلق السماوات والأرض ، وخلق الإنسان والطوفان وخروج موسى . ثم أخيرًا هناك كل ما له صلة بالمسيح وأمه مريم ، وذلك فى إطار العهد الجديد .

ما هى التأملات التى يمكن أن توحى بها هذه الموضوعات المعالجة فى الكتب المقدسة فى ارتباطها بالمعارف الحديثة التى قد تكتسبها خارج إطار النصوص المقدسة؟

موازنة بين القرآن والأناجيل والمعارف الحديثة

فيما يختص بالموازنة بين القرآن والأناجيل يجب أولاً أن نلاحظ أنه ليس هناك أى موضوع من موضوعات الأناجيل قد أثار انتقادات من وجهة النظر العلمية دون أن نجده فى القرآن - وقد أشرنا إليها فى الجزء الثانى من هذا الكتاب .

والمسيح فى القرآن موضوع إشارات عديدة . منها - على سبيل المثال - إعلان ميلاد مريم إلى أبيها ، وإعلان معجزة ميلاد المسيح لمريم ، وطبيعة المسيح ، فهو نبى يحتل المكانة الأولى من بين كل الأنبياء ، وصفته كمسيح ، والوحى الذى توجه به للبشر مؤكدًا ومعدلاً التوراة ، وتبشيره ، وتلامذته الحواريون والمعجزات وصعوده الأخير إلى جانب الله ، ودوره فى اليوم الآخر إلخ .

إن سورة آل عمران - ٣ والسورة ١٩ (التى تحمل اسم مريم) تخصص فقرات طويلة لأسرة المسيح . وهما ترويان مولد أمه ، مريم ، وصباها ، وإعلامها بأمومتها الخارقة ، والمسيح يسمى دائمًا فى القرآن « ابن مريم » . والقرآن يعطى نسب المسيح

من جهة أمه أساسًا ، وذلك أمر منطقى تمامًا إذ ليس للمسيح أب بيولوچى . وهنا ينفصل القرآن عن إنجيلى متى ولوقا اللذين يعطيان للمسيح - كما رأينا - نسبين من جهة الذكور ، وهى بالإضافة إلى ذلك ، مختلفة .

إن القرآن يضع المسيح ، من خلال نسب أمه ، وفى سلسلة نوح وإبراهيم وأبى مريم (ويسمى فى القرآن عمران) .

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (آل عمران ٣ الآيتان ٣٣، ٣٤) .

المسيح إذن سليل نوح وإبراهيم من أمه مريم ومن أبى هذه - أى عمران . ولا يجد قارئ القرآن أخطاء فى الأسماء كتلك التى يجدها فى الأناجيل ، ونعنى الأخطاء الخاصة بأسلاف المسيح واستحالات الأنساب فى العهد القديم التى درسناها فى الجزء الأول والثانى من هذا الكتاب .

ومرة أخرى تفرض الموضوعية أن نشير إلى ادعاء هؤلاء الذين يقولون ، بلا أى أساس ، إن محمدًا ﷺ ، مؤلف القرآن ، قد نقل كثيرًا من التوراة . ولو كان ذلك حقًا ، لتساءلنا من الذى دفعه ؟ أو ما الحجة التى أقنعته بالعدول عن نقل التوراة فيما يتعلق بأسلاف المسيح ؟ وبإدخال تصحيح فى القرآن يضع نصه بعيدًا عن أى مرمى نقدى تثيره المعارف الحديثة ، على حين أن نصوص الأناجيل والعهد القديم غير مقبولة بالمرة من وجهة النظر هذه ؟

موازنة بين القرآن والعهد القديم والمعارف الحديثة

هناك فيما يخص العهد القديم بعض جوانب من هذه الموازنة قد عالجناه . فعلى سبيل المثال عولج خلق العالم فى دراسة نقدية فى الجزء الخاص بالعهد القديم من هذا الكتاب ، كما درس هذا الموضوع فى الرواية التى يعطيها القرآن . وقد قمنا ببعض المقارنات : ولا داعى للرجوع إلى هذا الموضوع .

إن المعارف التاريخية الحديثة ، فيما يبدو شديدة الغموض ، ومعطيات علم الآثار على قدر من الفقر بحيث لا يمكن إقامة موازنات على ضوء المعارف الحديثة فيما يختص بالمشاكل المتعلقة بملوك إسرائيل ، وهى موضوعات روايات مشتركة بين القرآن والتوراة .

بالنسبة للأنبياء ، فهذه موضوعات يمكن أو لا يمكن التعرض لها بالاستعانة بالمعطيات الحديثة بقدر ما للأحداث المحكية (أو بقدر ما ليس لها) ترجمة تاريخية تركت آثارًا استطاعت أن تصل إلينا .

وهناك موضوعان لهما روايات مشتركة بين القرآن والتوراة وهما جديران بلفت انتباهنا ، ويستحقان الدراسة على ضوء معارف عصرنا . وهذا الموضوعان هما :

- الطوفان .
- خروج موسى من مصر .

والأول مهم لأنه يترك فى تاريخ الحضارات الآثار التى تضمنتها رواية التوراة . على حين أن المعطيات الحديثة لا تثير أى نقد بالنسبة إلى رواية القرآن .

أما الثانى فهو مهم لأن رواية القرآن ورواية التوراة تبدوان متكاملتين فى خطوطهما العريضة ، ولأن المعطيات الحديثة ، على ما يبدو ، تأتى لكل من الروايتين بدعم تاريخى ملحوظ .

الطوفان

تذكرة برواية التوراة والانتقادات التى تثيرها

قادت دراسة رواية الطوفان على حسب العهد القديم فى الجزء الأول من هذا الكتاب إلى الملاحظات التالية :

ليس فى التوراة رواية واحدة فقط عن الطوفان ، بل هناك روايتان ، ولكنهما حررتا فى عصور مختلفة :

- الرواية اليهودية التى ترجع إلى القرن التاسع قبل الميلاد .

- الرواية الكهنوتية التى ترجع إلى القرن السادس قبل الميلاد ، والتى أخذت هذا الاسم لأنها مؤلف لكهنة ذلك العصر .

ولا تأتى هاتان الروايتان كل إلى جانب الأخرى ، وإنما تتشابكان، وتتداخل عناصر إحداهما فى عناصر الأخرى ، وتتعاقب فقرات كل مصدر بالتبادل مع فقرات المصدر الآخر . وتشير جيدًا تعليقات ترجمة سفر التكوين للأب ديفو ، الأستاذ بمدرسة الكتاب المقدس بالقدس ، إلى هذا التوزيع للفقرات بين المصدرين : فالرواية تبدأ وتنتهى بفكرة يهوية : وهناك بالإجمال ١٠ فقرات يهوية ، وبين كل فقرة منها توجد فقرة من النص الكهنوتى (أى بالإجمال ٩ فقرات كهنوتية) . هذه النصوص متعددة الأصول ، ولا تتمتع بالوضوح إلا من حيث تعاقب الأحداث . فبين النصين توجد تناقضات صارخة . ويقول الأب ديفو : « إنهما حكايتان للطوفان تختلف فيهما العوامل التى أدت إلى الطوفان ، كما يختلف زمن وقوعه ، ويختلف عدد الحيوانات التى شحنها نوح بالشفينة » .

إن رواية الطوفان فى العهد القديم غير مقبولة فى إطارها العام ، وذلك لسببين يتضحان على ضوء المعارف الحديثة :

(أ) يعطى العهد القديم للطوفان طابعًا عالميًا .

(ب) وعلى حين لا تعطى فقرات المصدر اليهوى للطوفان تاريخًا ، تحدد الرواية الكهنوتية زمن الطوفان فى عصر لم يكن من الممكن أن تقع به كارثة من هذا النوع .

والحجج التى يستند إليها هذا الحكم هى ما يلى :

تحدد الرواية الكهنوتية أن الطوفان قد حدث عندما كان عمر نوح ٦٠٠ عام . غير أنه من المعروف ، بحسب الأنساب المذكورة فى الإصحاح الخامس من سفر التكوين أن نوحًا قد ولد بعد آدم بـ ١٠٥٦ عامًا (وهذه الأنساب كهنوتية المصدر هى أيضًا ، وقد ذكرناها فى الجزء الأول من هذا الكتاب) . وينتج عن ذلك أن الطوفان قد وقع بعد ١٦٥٦ عامًا من خلق آدم . ومن ناحية أخرى فجدول نسب إبراهيم الذى يعطيه سفر التكوين (١١- ١٠ - ٣٢) ، على حسب نفس المصدر ، يسمح بتقدير أن إبراهيم قد ولد بعد الطوفان بـ ٢٩٢ عامًا . ولما كنا نعرف أن إبراهيم كان يعيش فى حوالى ١٨٥٠ ق. م. فإن زمن الطوفان يتحدد إذن ، على حسب التوراة ، ب ٢١ أو ٢٢ قرنًا قبل المسيح . وهذا الحساب يتفق بمنتهى الدقة مع إشارات كتب التوراة القديمة التى تحتل فيها هذه التحديدات التاريخية المتسلسلة مكانًا طيبًا قبل نص التوراة ، وذلك فى عصر كان الافتقاد إلى المعلومات الإنسانية فى هذا الموضوع يجعل معطيات هذا التسلسل التاريخى للأحداث مقبولة بلا جدال لدى قرائها[1] - حيث إنه لم يكن هناك أيضًا أى حجج مضادة .

كيف يمكن اليوم تصور أن كارثة عالمية قد دمرت الحياة على كل سطح الأرض (باستثناء ركاب السفينة) فى القرن ٢١ أو ٢٢ ق. م. ؟ ففى ذلك العصر كانت هناك على نقاط عدة من الأرض حضارات قد ازدهرت وانتقلت أطلالها إلى الأجيال التالية . وبالنسبة لمصر ، على سبيل المثال ، كان ذلك فى الفترة الوسطى التى تلت نهاية الدولة القديمة وبداية الدولة الوسطى . وبالنظر إلى ما نعرف عن تاريخ هذا العصر فإنه يكون مضحكًا القول بأن الطوفان قد دمر فى ذلك العصر كل الحضارات .

وعلى ذلك - ومن وجهة النظر التاريخية - فيمكن تأكيد أن رواية الطوفان ، مثلما تقدمها التوراة ، تتناقض بشكل واضح مع المعارف الحديثة . إن وجود روايتين هو دليل حاسم على تعديل البشر للكتب المقدسة .

(١) منذ أن حصل المتخصصون على بعض المعلومات على تسلسل الأحداث فى العصور القديمة ، ومنذ كفت هذه الحوليات الوهمية لكتاب العهد القديم الكهنوتيين عن أن تكون موضع تصديق ، سارع المسئولون بحذفها من كتب التوراة . لكن المعلقين المحدثين على هذه الأنساب - التى احتفظ بها لا يلفتون انتباه قراء كتب التعليم الدينى العامة نحو الأخطاء التى تحتويها .

رواية الطوفان فى القرآن

يقدم القرآن رواية شاملة مختلفة ، ولا تثير أى نقد من وجهة النظر التاريخية .

لا يقدم القرآن عن الطوفان رواية مستمرة . فهناك سور عديدة تتحدث عن العقاب الذى وقع على شعب نوح . أما أكثر الروايات كمالاً فهى فى سورة هود (١١) الآيات من ٢٥ إلى ٤٩ . أما سورة نوح (٧١) فهى تذكر بشكل خاص موعظة نوح ، كما تفعل ذلك الآيات من ١٠٥ إلى ١١٥ من سورة الشعراء (٢٦٠) .

ولكن قبل أن ننظر فى مجرى الأحداث بالمعنى الحقيقى علينا أن نحدد الطوفان مثلما يخبر به القرآن بالنسبة إلى السياق العام للعقوبات التى أنزلها الله على جماعات أذنبت بشكل خطير بتعديلها على وصايا الله .

على حين تتحدث التوراة عن طوفان عالمى لعقاب كل البشرية الكافرة ، يشير القرآن على العكس ، إلى عقوبات عديدة نزلت على جماعات محددة جيدًا .

تشير إلى ذلك الآيات من ٣٥ إلى ٣٩ من سورة الفرقان ٢٥ :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَرُونَ وَزِيراً ۞ فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً ۞ وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَاباً أَلِيماً ۞ وَعَاداً وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً ۞ وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتْبِيراً ﴾ .

أما سورة الأعراف (٧) - الآيات من ٥٩ إلى ٩٣ - فتقدم العقوبات التى نزلت على شعب نوح وعاد وثمود وسدوم ومدين كل على حدة .

وعلى ذلك فالقرآن يقدم كارثة الطوفان باعتبارها عقابًا نزل بشكل خاص على شعب نوح : وهذا يشكل الفرق الأساسى الأول بين الروايتين .

أما الفرق الجوهرى الثانى فهو أن القرآن - على عكس التوراة - لا يحدد زمن الطوفان ، ولا يعطى أية إشارة عن مدة الكارثة نفسها .

وأما أسباب السيل فهى نفسها تقريبًا فى الروايتين . وتذكر الرواية الكهنوتية للتوراة (التكوين ٧، ١١) سببين مقترنين . تقول : « فى ذلك اليوم انبثقت عيون الماء من الهوة السحيقة ، وانفتحت هواويس السماء » . أما القرآن فيحدد فى الآيتين ١١، ١٢ من سورة القمر (٥٤) ما يلى :

﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ .

والقرآن يحدد بشكل صريح محتوى سفينة نوح . فقد أعطى الله أمرًا لنوح بأن يضع فى السفينة كل ما سيعيش بعد الطوفان ، وقد أنجز نوح هذا الأمر بأمانة .

﴿ احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ (هود ١١ الآية ٤٠) .

ومن سبق عليه القول هنا – أى من استبعد من الأسرة فهو ابن ملعون لنوح ، تقول عنه الآيتان ٤٥ و ٤٦ من نفس هذه السورة إن تضرع نوح لربه لم يتغيَّر من الأمر شيئًا ، والقرآن يشير إلى من يوجد على السفينة ، بالإضافة إلى الأسرة التى قطع منها هذا الابن الملعون ، وهم قليلون ممن آمنوا بالله .

ولا تشير التوراة إلى هؤلاء من بين ركاب السفينة . إن التوراة ، فى الواقع ، تقدم ثلاث روايات عن محتوى السفينة .

– على حسب الرواية الكهنوتية : نوح وأسرته دون أى استثناء وزوج من كل نوع .

– على حسب الرواية اليهوية . هناك تمييز من ناحية بين الحيوانات الطاهرة والطيور ، وبين الحيوانات النجسة من ناحية أخرى (والسفينة تحتوى على سبعة[1] أزواج من الفئة الأولى ، ذكر وأنثى ، وعلى زوج واحد فقط من الفئة الثانية) .

– على حسب روايات يهوية معدلة (التكوين ٧، ٨) : زوج من كل نوع طاهر أو نجس .

---

(١) ألم يكن العدد ٧ يعنى فى اللغات السامية فى ذلك العصر كثرة غير محددة ؟

أما رواية الطوفان الفعلى التى تحتوى عليها سورة هود (١١) الآيات من ٤١ إلى ٤٩ ، وسورة المؤمنون (٢٣) ، الآيات من ٢٢ إلى ٣٠ ورواية التوراة فلا تقدمان اختلافات ذات دلالة خاصة .

وتقول التوراة بأن المكان الذى جنحت إليه السفينة نحو جبل أرارات (التكوين ٨، ٤) ، أما القرآن فيقول إنه « الجودى » (سورة هود ١١ - الآية ٤٤) . وهذا الجبل هو قمة جبال ارارات بأرمينيا ، ولكن لا شىء يثبت أن البشر لم يغيروا من الأسماء للتوفيق بين الروايتين . ويؤكد ر. بلاشير Blachere هذا : وفى رأى هذا الكاتب أن هناك كتلة جبلية بهذا الاسم بالجزيرة العربية . ولكن ربما كان اتفاق الأسماء أمرًا مصطنعًا .

فى نهاية الأمر ، فالاختلافات بين روايات القرآن وروايات التوراة موجودة ، وهى هامة . وبعض هذه الاختلافات يفلت من أى فحص نقدى . إذ هناك افتقاد للمعطيات الموضوعية . ولكن إذا كان بالإمكان التحقق من معطيات الكتب المقدسة ، وذلك بمعونة معطيات أكيدة ، يصبح واضحًا تمام الوضوح عدم إمكانية اتفاق رواية التوراة - فى تقديمها للطوفان بزمنه ومدته - مع مكتسبات المعرفة الحديثة . وعلى العكس من ذلك فإن رواية القرآن تتضح خالية من أى عنصر مثير للنقد الموضوعى . فمن عصر وراة التوراة إلى عصر تنزيل القرآن . هل حصل الناس على معلومات من شأنها أن تلقى نورًا على حدث مثل هذا ؟ بالتأكيد لا ، فمن العهد القديم إلى القرآن كانت الوثيقة الوحيدة التى فى حوزة الناس عن هذه الحكاية القديمة هى التوراة بالتحديد . وإذا لم تكن العوامل الإنسانية تستطيع أن تشرح التغيرات التى طرأت على الروايات لتتجه بها إلى التوافق مع المعارف الحديثة ، فيجب أن نقبل شرحًا آخر ، وهو أن هناك تنزيلاً من الله قد جاء بعد التنزيل الذى تحتوى التوراة عليه .

خروج موسى من مصر

مع خروج موسى وجماعته من مصر ، وهى المرحلة الأولى نحو استقراره بأرض كنعان نتعرض لحدث ذى أهمية كبرى ، حدث تاريخى أكيد ، يدخل فى سياق معروف بالرغم من الادعاءات التى نجدها هنا وهناك ، والتى تنحو إلى إضفاء صيغة أسطورية عليه .

وتشكل رواية الخروج فى العهد القديم ، مع رواية مسيرة الصحراء بعد الخروج من مصر ، ورواية التحالف الذى يقيمه الله بجبل سيناء ، الكتاب الثانى من التوراة ، أو أسفار موسى الخمسة Pentateuque . والقرآن بالطبع يفرد مكانًا كبيرًا لرواية الخروج : فسرد علاقات موسى وأخيه هارون مع فرعون ، وسرد الخروج من مصر نجدهما فى أكثر من ١٠ سور بروايات طويلة كتلك التى نقرؤها فى السور : الأعراف (٧) ، يونس (١٠) ، طه (٢٠) ، الشعراء (٢٦) ، أو بروايات أكثر تركيزًا ، أو بمجرد تذكرات بسيطة . ويتكرر اسم فرعون ، وهو الشخصية المركزية من الجانب المصرى ، ٧٤ مرة فى القرآن وفى ٢٧ سورة (ما عدا السهو) .

إن دراسة روايتى الخروج فى القرآن والتوراة مشوقة بشكل خاص ، فاختلافًا عما رأينا بالنسبة للطوفان ، تتطابق الروايتان هنا فيما يختص بالعناصر الجوهرية . وهناك بالتأكيد بعض الاختلافات ، ولكن لرواية التوراة قيمة تاريخية عظيمة ، كما سنرى ، حيث إنها تضعنا على طريق اكتشاف شخصية فرعون، أو بالأحرى شخصية الفرعونين المعنيين بالأمر ، والقرآن فى هذا الفرض الذى ينطلق من التوراة يأتى بمعلومات إضافية، وإلى هذين المصدرين المكتوبين تضاف المعطيات الحديثة التى يهبها علم دراسة الآثار المصرية . وبهذا ، وبمقابلة القرآن والتوراة ومعارف عصرنا نصل إلى تحديد الواقعة على حسب الكتب المقدسة فى سياق تاريخى .

الخروج على حسب التوراة

تبدأ رواية التوراة بالتذكير بدخول اليهود إلى مصر مع يعقوب لملاقاة يوسف . «ثم صعد ملك جديد إلى الحكم فى مصر ، ولم يكن يعرف اسمه » (الخروج ١، ٨) ، إنها فترة الاضطهاد ، فقد فرض فرعون على اليهود بناء مدينتين تعطيهما التوراة اسمى بيتون Pitom ورمسيس Ramses . ولكى يتجنب هذا الملك التزايد السكانى عند العبريين فقد فرض عليهم أن يلقوا إلى النهر بكل طفل ذكر . وبالرغم من ذلك فإن أم موسى قد احتفظت به طيلة ثلاثة أشهر بعد ميلاده ، ولكنها تقرر فى نهاية الأمر أن تضعه فى سلة من الأسل على شاطئ النهر . وتكتشفه ابنة فرعون وتلتقطه لتضعه بالتحديد بين يدى أمه لترضعه ، ذلك أن أخت موسى التى كانت تراقب السلة لتعرف من الذى سيلتقطها ، تظاهرت بأنها لا تعرفه وأوصت إلى الأميرة بمرضعة . ولم تكن هذه المرضعة إلا أم الطفل الوليد . ويلقى الطفل معاملة أبناء الفراعنة له اسم « موسى » .

ويسافر موسى شابًا إلى أرض مدين حيث يتزوج ويمكث طويلاً . وهناك تفصيلة هامة ، إذ يقول سفر الخروج (٢، ٢٣) : « وأثناء هذه الفترة الطويلة مات ملك مصر » .

ويأمر الله موسى أن يذهب للقاء فرعون ليخرج إخوته من مصر (سرد هذا الأمر موجود فى رواية حادثة شوك - النار) . ويساعد هارون أخاه فى إنجاز هذه المهمة . ولذلك ، وما إن يصل إلى أرض مصر يذهب موسى مع أخيه إلى فرعون الذى ورث ذلك الذى كان موسى قد ولد فى عهده منذ زمن طويل .

ويرفض فرعون طلب خروج يهود طائفة موسى من مصر . ويظهر الله من جديد لموسى ، ويأمره أن يكرر الطلب مرة أخرى . وكان عمر موسى فى ذلك الوقت ٨٠ عامًا على حسب التوراة . ويثبت موسى لفرعون بالسحر أن له قوى خارقة فوق الطبيعة ، لكن هذا لا يكفى ، وعندئذ ينزل الله على مصر الضربات المعروفة : مياه النهر التى تتحول إلى دم ، وغزو الضفادع والناموس والنعرة وموت القطعان وظهور الأورام على جلود البشر والحيوانات ، وسقوط البرد والجراد ، والظلمات وموت المواليد الأولين وبرغم ذلك يظل فرعون يرفض خروج العبريين .

عندئذ يهربون من مدينة رمسيس ، وكان عددهم ٦٠٠,٠٠٠ رجل[1] » دون حساب

أسرهم » (الخروج ١٢، ٣٧) . وهناك « أسرج فرعون عربته الحربية وقاد جيشه . وأخذ ٦٠٠ من أحسن مركباته وكل مركبات مصر الحربية يقودها الضباط ... وانطلق ملك مصر مطاردًا الإسرائيليين الخارجين مرفوعى الأيدى » (الخروج ١، ٦-٨) . ويلحق المصريون بجماعة موسى على شاطئ البحر . وعندما رفع موسى عصاه انفتح البحر أمامه ودخل رجاله إليه دون أن تبتل أقدامهم » . وطاردهم المصريون ، ودخلت جياد فرعون ومركباته وفرسانه كلهم إلى البحر » الخروج ١٤، ٢٣) وارتد ماء البحر كما كان وغطى مركبات وفرسان كل جيش فرعون الذى دخل إلى البحر وراءهم ، ولم يبق منهم رجل واحد » (الخروج ١٤ - ٢٨، ٢٩) .

إن نص سفر الخروج واضح تمامًا . كان فرعون على رأس المطاردين . وقد هلك لأن سفر الخروج يحدد أنه « لم يبق منهم رجل واحد » . ويضاف إلى ذلك أن التوراة تكرر هذه التفصيلة فى مزامير داود : المزمور ١٠٦ الآية ١١ والمزمور ١٣٦ الآيات من ١٣ إلى ١٥ وهما حمد « للذى شق بحر البوص شقين ، وجعل إسرائيل يمر فى الوسط، وألقى بفرعون وجيشه فى بحر البوص » . على حسب رواية التوراة لا شك إذن أن فرعون الخروج قد مات فى البحر . ولا تقول التوراة كلمة عن مصير جثة فرعون .

الخروج على حسب القرآن

تشبه رواية القرآن عن الخروج رواية التوراة فى الخطوط العريضة . ولابد من إعادة تركيب هذه الرواية فهى تتكون من عناصر منتشرة فى فقرات عديدة من القرآن . ومثل التوراة ، لا يذكر القرآن اسم أحد بما يسمح بتحديد شخصية الفرعون الذى كان يحكم مصر عند حدوث الخروج . وكل ما نعرف هو أن أحد أعضاء مجلسه كان اسمه «هامان» ، وهو مذكور ست مرات فى القرآن (سورة القصص ٢٨ - الآيات ٦، ٨، ٣٨، سورة غافر (٤٠) الآيتان ٢٤، ٣٦ ، وسورة العنكبوت (٢٩) الآية ٣٩ .

---

(١) سنرى فيما بعد أن هذا العدد مبالغ فيه فعلاً .

فرعون مضطهد اليهود :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ (إبراهيم ١٤ الآية ٦) .

وتكرر الآية ١٤١ من سورة الأعراف (٧) ذكر الاضطهاد بنفس الألفاظ . ولكن القرآن لا يشير ، مثل التوراة ، إلى اسم المدينتين اللتين بناهما اليهود فى السخرة .

وأما حادثة وضع موسى على حافة النهر فهى مسرودة فى سورة طه (٢٠) (الآيتان ٣٩، ٤٠) ، وفى سورة القصص (٢٨) (آيات من ٧ إلى ١٣) . وتقول رواية القرآن إن عائلة فرعون هى التى التقطت موسى. تقول الآيتان ٨، ٩ من سورة القصص ٢٨ ما يلى:

﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ۞ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

ويقول التراث الإسلامى إن زوجة فرعون التى رعت موسى هى آسيا . أما القرآن فلا يقول بأن زوجة فرعون هى التى التقطته وإنما آله ، أى أهل بيته .

وأما شباب موسى ومكوثه بأرض مدين وزواجه فكل هذا مسرود فى سورة القصص (٢٨) الآيات من ١٢ إلى ٢٨ .

ويجد القارئ أيضًا حادثة شوك النار فى الجزء الأول من سورة طه (٢٠) وفى الآيات من ٣٠ إلى ٢٥ من سورة القصص (٢٨) .

ولا يذكر القرآن ضربات مصر العشرة التى أنزلها الله عقابًا ، مثلما تصفها التوراة بإطناب ، ولكنه يذكر بشكل موجز جدًا خمس ضربات (سورة الأعراف (٧) - الآية ١٣٣) وهى الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم .

ويقص القرآن الخروج من مصر دون التحديدات الجغرافية التى تعيطها رواية التوراة ، ودون التحديدات العددية الواردة فى هذه الرواية ، والتى يصعب تصديقها . إذ لا نرى جيدًا كيف استطاع ٦٠٠.٠٠٠ رجل بأسرهم أن يمكثوا طويلاً فى الصحراء على حسب قول التوراة .

أما موت فرعون وهو يطارد العبريين فيسرده القرآن على الوجه التالى :

﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ ، تقول هذه الآية ٧٨ من سورة طه (٢٠) : لقد هرب اليهود وهلك فرعون ولكن جثته ، وجدت ، وتلك تفصيلة هامة لا تشير إليها التوراة .

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾ (يونس ١٠ الآيات من ٩٠ إلى ٩٢) .

وتتطلب هذه الفقرة تحديدين :

(أ) روح البغى والعدو المشار إليهما ، وذلك بالنظر إلى محاولات الإقناع التى قام بها موسى تجاه فرعون .

(ب) إن إنقاذ فرعون ينطبق على بدنه ، وذلك أن الآية ٩٨ من سورة هود (١١) تحدد أن الله قد حكم بعذاب النار على فرعون وآله . تقول الآية :

﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴾ .

وإذن بالنسبة للأمور التى تحتمل المقابلة مع المعطيات التاريخية والجغرافية والأثرية يجب ملاحظة أن رواية القرآن تختلف عن رواية التوراة فى النقاط التالية :

– لا يذكر القرآن أسماء أماكن . سواء كان ذلك بالنسبة للمدن التى بناها عبريو جماعة موسى ، أو بالنسبة لخط مسير الخروج .

- لا يذكر القرآن موت أحد الفراعنة فى أثناء مكوث موسى بأرض مدين .
- لا يحتوى القرآن على معطيات خاصة بعمر موسى عندما تحدث إلى فرعون .
- لا يحتوى القرآن على تحديدات عددية خاصة بجماعة موسى التى تضخم التوراة عددها ، وتصل بها إلى أعداد غير معقولة (فـ ٦٠٠٫٠٠٠ رجل بأسرهم يكونون احتمالاً جماعة من أكثر من مليونين من السكان) .

لا تحتوى التوراة على أية إشارة خاصة بالعثور على جثة فرعون بعد موته .

أما النقاط المشتركة التى يمكن التنويه بها فيما يختص بموضوعنا فهى :

- تأكيد القرآن لاضطهاد فرعون ليهود جماعة موسى ،
- عدم احتواء الروايتين على اسم ملك مصر .
- تأكيد القرآن لموت فرعون عند خروجه من مصر .

مقابلة بين معطيات الكتب المقدسة والمعارف الحديثة

روايات القرآن والتوراة الخاصة بمكوث بنى إسرائيل بمصر وبخروجهم منها تقدم جوانب تستطيع أن تكون موضوع مقابلات مع المعارف الحديثة . والحق يقال إن هذا ممكن ، ولكن بشكل غير متساو ، حيث إن بعض الجوانب تثير كمًا من المشاكل على حين أن هناك جوانب أخرى لا تهب أى مادة للبحث .

١ - دراسة بعض تفاصيل الروايات :

العبريون فى مصر

يبدو فعلاً أن بالإمكان القول بأن العبريين مكثوا بمصر طيلةج ٤٠٠ أو ٤٣٠ عامًا دون المجازفة بالوقوع فى خطأ كبير ، وبحسب ما هو مكتوب فى التوراة (التكوين ١٥، ١٣ والخروج ١٢، ٤٠) - وأيًا كان الأمر فى عدم الاتفاق هذا بين التكوين والخروج ، وهو قليل الأهمية ، فإن مكوثهم قد بدأ باستقرار يوسف بن يعقوب وإخوته بمصر . وكان ذلك بعد عصر إبراهيم بكثير . وفيما عدا التوراة التى تعطى المعلومات التى

قدمت لتوى والقرآن الذى يشير إلى هذا الاستقرار دون أن يعطى أقل إشارة زمنية لتسلسل الأحداث فإننا نكاد لا نملك أية وثيقة أخرى قادرة على إيضاح هذه النقطة لنا .

ومن ب. مونتى P. Montet إلى دانيل روبس Daniel Rops فإن المتخصصين يقولون حاليًا - بعد النظر إلى كل الاحتمالات - بتواكب حركة الهكسوسو نحو مصر فى القرن الـ ١٧ ق. م. مع وصول يوسف وآله . وإنه فى مدينة أفاريس ، بالدلتا ، استقبل عاهل هكسوسى يوسف وإخوته استقبالاً حسنًا .

وهذا التقدير ، بالتأكيد ، يتناقض بوضوح مع ما يقول لنا كتاب الملوك الأول من التوراة (٦، ١) فهو يحدد الخروج من مصر بـ ٤٨٠ سنة قبل بناء معبد سليمان (فى ٩٧١ ق. ن. تقريبًا) . هذا التقدير يحدد إذن الخروج من مصر بنحو ١٤٥٠ عامًا قبل الميلاد تقريبًا . وبالتالى يكون الدخول قد حدث فيما بين ١٨٥٠ - ١٨٨٠ ق. م. ولكن هذه بالتحديد هى الفترة التى يفترض حاليًا أن إبراهيم قد عاش بها وهو ينفصل بحوالى ٢٥٠ سنة عن يوسف فيما يعتقد اليوم اعتمادًا على معطيات أخرى فى التوراة . وعلى ذلك تكون هذه الفقرة من كتاب الملوك الأول من التوراة غير مقبولة من وجهة نظر التسلسل الزمنى للأحداث[1] . وسنرى أن هذه النظرية التى ندافع عنها لا يمكن الاعتراض عليها ، فيما عدا المعارضة التى يمكن استخراجها من كتاب الملوك الأول هذا، ولكن عدم الدقة الواضحة فيه الخاصة بمعطيات التسلسل الزمنى للأحداث تشجب أية قيمة لهذه المحاضرات .

إن ما تركه العبريون كآثار لمكوثهم بمصر غامض جدًا إذا استثنينا معطيات الكتب المقدسة . ومع ذلك توجد بعض الوثائق الهيروغليفية التى تشير إلى أنه قد وجد بمصر فئة من العاملين تسمى أبيرو Apiru أو هابيرو Hapiru أو Habiru . رأى البعض ، صحة أو خطأ ، أنهم العبريون . وقد أشير بهذا الاسم إلى عمال البناء والعمال الزارعين وعمال قطف العنب إلخ .. من أين أتو ؟ عسيرة حقًا الإجابة عن هذا . وكما يقول الأب

(١) سنعود فيما بعد إلى ما يجب الاعتقاد به ، مع الأب ديفو R. P. de Baux فيما يختص بالرجوع إلى هذا الكتاب الأول للملوك .

ديفو » فإنهم لا ينتمون إلى السكان ، ولا يجدون هويتهم فى طبقة من المجتمع ، وليس لهم عمل واحد ولا وضع واحد » .

هناك بردية من عصر تحتمس الثالث Tutmes III تذكرهم على أنهم « سياس » . ومن المعروف أن أمنوفيس الثانى Amenophis II ، فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد قد أتى منهم بـ ٣٦٠٠ سجين من كنعان ، فقد كانوا يشكلون جزءًا ، لا بأس به ، من سكان الشام (سوريا وفلسطين) ، كما يقول الأب ديفو . وفى نحو ١٢٠٠ ق . م . وفى حكم سيتى الأول Sethi Ier دبر نفس هؤلاء الأبيرو بكنعان اضطرابات بمنطقة بيت - شيان Beth- Shean . وفى حكم رمسيس الثانى كان منهم من يعمل بالمحاجر أو فى نقل الأوتاد لأعمال فرعون (بوابات رمسيس ميامون Miamon الكبيرة) . ومعروف من التوراة أن العبريين ، فى حكم رمسيس الثانى ، قد بنوا عاصمة الشمال مدينة رمسيس (رع - رمسيس) وتشير الكتابات المصرية مرة أخيرة إلى هؤلاء الأبيرو فى القرن الثانى عشر فى حكم رمسيس الثالث .

وليس هؤلاء الأبيرو مذكورين فى مصر فقط . فهل كانت اللفظة تنطبق على العبريين وحدهم ؟ وقد يكون مفيدًا أن نذكر بأن الكلمة ربما كانت تشير أولاً إلى عمال السخرة دون أية فكرة مسبقة عن أصلهم ، وإنها قد استخدمت بعد ذلك كصيغة مهنية. أليس من حقنا أن نقوم بعملية تقريب مع المعانى المختلفة لكلمة سويسرى Suisse بالفرنسية التى تشير إلى ساكن سويسرا كما تشير إلى جندى سويسرى فى الملكية الفرنسية أو حارس بالفاتيكان ، أو موظف بكنيسة مسيحية ؟

أيًا كان الأمر . ففى عصر رمسيس الثانى نفذ العبريون (فى قول التوراة) أو الأبيرو (حسب النصوص الهيروغليفية) فى الأعمال الكبرى التى أمر بها فرعون ، ويمكن أن يقال إنهم ساهموا فى أعمال إجبارية . وليس هناك شك فى أن رمسيس الثانى كان يضطهد اليهود : ومدينتا رمسيس وبيتوم المذكورتان فى سفر الخروج تقعان على الجزء الشرقى من دلتا النيل . وتانيس Tanis وقنطير Qantir الحاليتان اللتان تبعدان ٢٥ كم عن الأخرى مطابقتان لهاتين المدينتين القديمتين . هناك كانت عاصمة الشمال التى بناها رمسيس الثانى . ورمسيس الثانى هو فرعون الطغيان .

ولد موسى فى هذا الإطار . وقد رأينا فيما سبق الظروف التى طبعت إنقاذه من مياه النهر . وأن اسمه مصرى . وقد أثبت ب. مونتى P. Montet هذا جيدًا فى كتابه «مصر والتوراة L'Egypte et la Bible» ف. مسو Mesw أو مسى Mesy اسمان فى قائمة معجم أسماء الأشخاص فى اللغة الهيروغليفية لرانك وموسى هو نقل لهذا الاسم فى القرآن .

ضربات مصر :

تشير التوراة تحت هذا الاسم إلى عشرات عقوبات أنزلها الله على سكان مصر ، كما أنها تعطى تفاصيل كثيرة عن كل ضربة من هذه الضربات . وهناك عدة من هذه العقوبات تتسم بجانب وبعد خارقين . أما القرآن فهو يعد خمسة فقط من هذه الضربات ، وليست معظمها إلا مبالغة لظاهرات طبيعية . هى الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم .

أما انتشار الجراد والضفادع فهو مذكور فى التوراة . كما أنها تتحدث عن مياه الأنهار التى تحولت إلى دم يغرق كل البلاد (كذا) ، ولكن القرآن يشير إلى الدم ويستبعد كل تفصيل إضافى آخر . وفيما يتعلق بهذا الدم فيمكن القول بفروض كثيرة .

أما الضربات الأخرى (الناموس والنعرة والأورام الجلدية والبرد والظلمات وموت المواليد الأولين والماشية) التى تصفها التوراة فهى تأتى من أصول مختلفة ، كما كان الحال بالنسبة لرواية الطوفان التى تكونت بتجاور عناصر متعددة كل إلى جانب الآخر .

خط مسير الخروج :

لا يعطى القرآن أى إشارة عن خط مسير . على حين تشير التوراة إلى خط مسير ويكثير من الدقة . وقد قام كل من الأب ديفو و ب. مونتى بدراسة هذا الخط . ويفترض أن نقطة الانطلاق كانت من تانيس - قنطير . أما فيما يتعلق ببقية الطريق فلم يعثر فى أى مكان على آثار من شأنها أن تؤكد رواية التوراة ، كما أنه ليس بالإمكان تحديد المكان الذى انفتح فيه البحر حتى تمر جماعة موسى .

معجزة البحـر :

افتـرض البـعض وجـود عـمليـة جـزر وقـعت لأسـبـاب فلكيـة أو أرضـيـة ذات صلة بانفجار بركان بعيد . وانتهـز العبـريون ، فى هذا القول ، انسحاب مـاء البحـر ، ويكون المصـريون الذين انطلقوا وراءهم قد غـرقوا بسبب مـد مـاء البحـر . لكن كل هذا مجـرد افتراض .

٢ - موقع الخروج فى الحوليات الفرعونية :

فيما يخص تحديد تاريخ الخروج فيمكن الوصول إلى معطيات إيجابية وبشكل له قيمة . يعتبر ، منذ عصر طويل جدًا ، منبتاح Mineptah . خليفة رمسيس الثانى ، هو الفرعون الذى وقع فى عصره خروج موسى من مصر . لقد كتب ماسبيرو Maspero . عالم الآثار المصرية الشهير فى بداية هذا القرن ، فى كتاب «دليل زائر متحف القاهرة» (١٩٠٠) أن منبتاح ، « فى قول مأثور إسكندري الأصل ، هو فرعون الخروج ، أى الذى هلك فى البحر حسبما يقال » . ولم أستطع أن أجد الوثائق التى أسس عليها ماسبيرو زعمه ، ولكن جدية الكاتب تفرض علينا أن نعلق قيمة كبيرة على ما قال به .

وإذا استثنينا ب. مونتى P. Moontet فقليلون حقًا من علماء الآثار المصرية أو المتخصصون المحدثون فى تفسير التوراة الذين بحثوا عن حجج قد تكون فى صالح أو ضد هذا الفرض . بل بالعكس فقد شهدنا فى العقود الأخيرة ، ازدهار افتراضات يختلف كل منها عن الآخر ، وتبدو أنها لم تطرح إلا بهدف الاستجابة للتوافق مع تفصيلة فى روايات الكتب المقدسة ، ولم يهتم طارحو هذه الافتراضات بالجوانب الأخرى لهذه الكتب . وهكذا نشهد ظهور هذا الفرض أو ذلك الذى يبدو متوافقًا مع جانب من رواية دون أن يكلف صاحب الفرض نفسه عناء مقابلته بالمعطيات الأخرى للكتب المقدسة (وبالتالى ليس فقط بالمعطيات الأخرى للتوراة) وفى نفس الوقت مقابلته بكل المعطيات التى يقدمها التاريخ وعلم الآثار إلخ ...

ومن أغرب الفروض التى رأت النور فرض ج. دى ميسلى J. de Miceli (١٩٦٠) الذى يدعى أنه توصل إلى تحديد زمن الخروج بهامش تقريبى يصل إلى يوم واحد ،

وهو ٩ أبريل ١٤٩٥ ق. م. وهذا فقط من خلال حساب التقويمات . وعلى ذلك يكون تحتمس الثانى ، وكان ملكًا فى هذا التاريخ ، هو فرعون الخروج . وبما أن موميـاء تحتمس الثانى مكتوب عليها وصف لأورام جلدية يصفها الكتاب بأنها البرص - دون أن ندرى سبب ذلك - وبما أن واحدًا من ضربات مصر التى تذكرها التوراة هى طفح جلدى فإن الفرض يصبح أمرًا أكيدًا . إن هذا البناء الغريب لا يأخذ فى اعتباره مطلقًا الأمور الأخرى فى رواية التوراة ، وخاصة إشارة التوراة إلى مدينة رمسيس ، تلك الإشارة التى تبطل كل فرض عن تحديد تاريخ للخروج قبل أن يكون أحد الرعامسة قد ملك مصر .

أما فيما يتعلق بأورام تحتمس الثانى الجلدية فليس هناك ما يبرر إقامة الحجة منها على أن ملك مصر هذا هو فرعون الخروج ، حيث إن ابنه ، تحتمس الثالث وحفيده أمينوفيس الثانى هما أيضًا كانا مصابين بأورام جلدية[1] أقام البعض عليها فرض وجود مرض بهذه العائلة . وعلى ذلك يكون فرض أن تحتمس الثانى هو فرعون الخروج فرضًا لا يمكن الدفاع عنه .

كذلك الفرض الذى أقامه دانييل - روبس Daniel Rops فى كتابه « شعب التوراة » Le Peuple de la Bilbe والذى ينسب إلى أمينوفس الثانى دور فرعون الخروج . إذ لا يبدو أن فرضه يستند إلى أساس بأكثر من الفرض السابق . فبحجة أن أباه تحتمس الثالث كان شديد القومية ، يجعل دانييل روبس من أمينوفس الثانى مضطهدًا للعبريين وبأن حماته ، الملكة حتشبسوت الشهيرة ، هى التى التقطت موسى دون أن نعرف سببًا لذلك .

أما الأب ديفو R. P. de Vaux فهو يضع على أساس أكثر صلابة فرضه القائل برمسيس الثانى الذى درسه فى كتابه « تاريخ إسرائيل القديم »[2] . وهو إن لم يكن يتفق مع كل نقاط رواية التوراة فهو فرض له قيمة معطية رئيسية : وهى بناء مدينتى

---

(١) نرى هذه الأورام جيدًا على مومياوات هؤلاء الفراعنة بمتحف القاهرة .

(٢) Descless de Brouwer, 1970.

رمسيس وبيتوم ، المذكورتين فى نص التوراة . وعلى ذلك لا يمكن اعتبار أن الخروج قد حدث قبل صعود رمسيس الثانى إلى العرش وهو حدث تحدده حوليات دريتون Drioton وفانديه Vandier بعام ١٣٠١ ق. م. وتحدده حوليات روتون Rowton بعام ١٢٩٠ ق. م. إن الفرضين الأولين المذكورين فيما سبق مرفوضان ، لسبب ضرورى ، وهو أن رمسيس الثانى هو فرعون الاضطهاد الذى تتحدث عنه التوراة .

وفى رأى الأب ديفو أن الخروج قد حدث فى النصف الأول من حكم رمسيس أو فى منتصفه . وتحديد الأب ديفو لهذا التاريخ غير دقيق تمامًا : فهو يوحى بهذه الفترة حتى يعطى الوقت الكافى - إن جاز القول - لجماعة موسى أن تستقر بأرض كنعان ، وحتى يتمكن خليفة رمسيس الثانى الملك منبتاح - الذى نظم الحدود بعد موت أبيه - من أن يخضع بنى إسرائيل كما يشهد بذلك نصب يرجع إلى العام الخامس من ملكه .

يمكن معارضة هذا الفرض بحجتين :

(أ) تشير التوراة فى سفر الخروج (٢، ٢٣) إلى أن ملك مصر قد مات فى أثناء مكوث موسى ببلاد مدين . ويصف سفر الخروج هذا الملك بأنه هو الذى جعل العبريين يبنون بالسخرة مدينتى رمسيس وبيتون . إنه رمسيس الثانى . وعلى ذلك لا يمكن أن يكون الخروج قد حدث إلا فى عصر خليفة هذا الأخير . ولكن الأب ديفو يقول لنا إنه يشك فى مصدر التوراة للآية ٢٣ من الإصحاح الثانى لسفر الخروج .

(ب) وأكثر ما يثير الدهشة هو أن الأب ديفو ، وهو مدير مدرسة الكتاب المقدس يعتقد بأن فرعون قد مات وهو يطارد الهاربين ، وتلك تفصيلة تجعل من المستحيل أن يكون الخروج قد وقع فى زمن آخر سوى نهاية حكم ما .

الواقع أننا يجب أن نكرر بأنه ليس من المشكوك فيه أن يكون فرعون قد مات فى أثناء هذه المطاردة . فالإصحاحان ١٣ و ١٤ من سفر الخروج حاسمان فى هذه النقطة : « أسرج فرعون مركبته وقاد جيشه ... » (١٤، ١٦) . « وانطلق ملك مصر مطاردًا الإسرائيليين الذين خرجوا مرفوعى الأيدى » (١٤، ٨) . « وارتدت المياه كما كانت

وغطت مركبات وفرسان كل جيش فرعون الذى دخل إلى البحر وراءهم . ولم يبق منهم واحد » (١٤، ٢٨ - ٢٩) . ويضاف إلى ذلك أن المزمور ١٣٦ لداود يؤكد موت فرعون مصليا ليهوه ... « الذى ألقى فرعون وجيشه إلى بحر البوص » (١٣٦، ١٥) .

إذن فقد مات أحد الفراعنة فى حياة موسى ، وحينما كان بأرض مدين ومات آخر فى أثناء الخروج . ليس هناك فرعون واحد لموسى بل فرعونان : فرعون القهر ، وفرعون الخروج من مصر . وعلى هذا يصبح فرض الأب ديفو القائل بفرعون واحد ، وهو رمسيس الثانى غير مرضى ، حيث إنه لا يشرح كل شىء . وستأتى الاعتبارات التالية بحجج إضافية ضد هذا الفرض .

٢ - رمسيس الثانى فرعون الاضطهاد - منبتاح فرعون الخروج :

استخدام ب. مونتى بشكل صحيح التراث الإسكندرى الأول[1] الذى أشار إليه ماسبيرو ، والذى نجده بعد ذلك بكثير فى التراث المسيحى الكلاسيكى[2] . ويعرض ب. مونتى هذه النظرية فى كتابه « مصر والتوراة »[3] وهناك حجج إضافية تدعمها ، وخاصة ما أتت به رواية القرآن ، ولكن هذا العالم الشهير فى الآثار لا يشير إليها مطلقًا . ولنعد إلى التوراة قبل أن نناقشها .

يحتوى سفر الخروج على إشارة إلى كلمة « رمسيس » برغم أن اسم الفرعون غير مقدم . و « رمسيس » فى التوراة هو اسم إحدى المدينتين المذكورتين باعتبارهما قد بنيتا بعمل العبريين فى السخرة . ومعروف اليوم أن هاتين المدينتين كانتا بمنطقة تانيس - قنطير فى الجزء الشرقى من دلتا النيل حيث بنى رمسيس عاصمته للشمال . ولا شك أنه كانت هناك أبنية أخرى فى هذه المنطقة قبل رمسيس الثانى ، ولكن تحول

---

(١) لا شك أن عصر البطالسة العظيم كان بالإسكندرية . قبل التخريب الذى جاء به الفتح الرومانى ، وثائق تاريخية عن العصر القديم نفتقد إليها بشدة اليوم .

(٢) كتب التاريخ المقدس فى بداية القرن العشرين الموجهة إلى التعليم الدينى ، مثل كتاب أبى هـ. ليستر .Abdel H. Lesetre تشير إلى الخروج على أنه حدث حين كان منبتاح ملكًا على مصر .

(٣) Delachaux et Niestle. Neufchatel. 1959.

هذه المنطقة إلى موقع هام يرجع إلى هذا الملك . وقد أتت الحفائر التى تمت فى العقود الأخيرة ببرهان حاسم على ذلك . وقد استخدم هذا الملك العبريين المستعبدين فى بناء هذه العاصمة .

إن قراءة اسم « رمسيس » فى التوراة لا تذهل العقل اليوم : فقد أصبحت الكلمة شائعة منذ أن اكتشف شامبليون – منذ قرن ونصف – مفتاح الحروف الهيروغليفية وذلك بالتحديد بدراسة الحروف الأساسية لهذا الاسم . وقد اعتدنا اليوم على قراءة هذا الاسم وعلى النطق به مع معرفة ما عنى . ولكن يجب أن نتصور أن معنى الحروف الهيروغليفية كان قد فقد فى القرن الثالث بعد الميلاد تقريبًا ، وأن اسم رمسيس لم يحفظ إلا فى التوراة وفى بعض الكتب اليونانية واللاتينية التى شوهت الاسم قليلاً أو كثيرًا . فهكذا مثلاً يتحدث تاسيت Tacite فى حولياته Annales عن Rhamsis . أما التوراة فقد احتفظت بمنتهى الدقة باسم رمسيس ، وهى تذكرة أربع مرات فى أسفار موسى الخمسة (التكوين ٤٧، ١١، الخروج ١، ١١ و ١٢، ٣٧، والعدد ٣٣، ٣ و ٣٣، ٥) .

وفى التوراة العبرية يكتب اسم رمسيس بطريقتين : Ra(e)mss و Ra(e)ams[١] وفى الطبعة اليونانية للتوراة المسماة بالـ Septante اسمه Ramesse . أما التوراة اللاتينية (Vulgate) فهو Ramesses . وأما الطبعة الكليمانتية بالفرنسية Bible Clementine (الطبعة الأولى ١٦٢١) فالكلمة مكتوبة بنفس الطريقة : Ramesses . وقد كانت هذه الطبعة جارية فى أثناء دراسات شامبليون . وفى كتابه « مختصر المنهج الهيروغليفى لقدماء المصريين Precis du Systeme Hieroglyphique des Anciens Egyptiens (الطبعة الثانية ١٨٢٨ ص ٢٧٦) يتحدث شامبليون عن كيفية كتابة الكلمة فى التوراة .

إذن فقد حفظت التوراة اسم رمسيس بشكل رائع ، وذلك فى نسخها العربية واليونانية واللاتينية[٢] .

(١) الحرف e يعادل الحرف العبرى Ayin .

(٢) ومن المثير حقًا أن يلاحظ فى نسخ التوراة القديمة أن المعلقين لم يفهموا شيئًا بالمرة عن معنى الكلمة . فعلى سبيل المثال تعطى الطبعة الفرنسية للتوراة الكليمانتية لعام ١٦٢١ التعريف التالى لكلمة رمسيس ، وهو تعريف مضحك عديم المعنى « صاعقة الدود » .

إن المعطيات التى سبقت تسمح إذن بإثبات ما يلى :

(أ) أن الخروج لا يمكن أن يتصور قبل وصوله أحد الرعامسة إلى الحكم فى مصر .

(ب) أن موسى قد ولد فى حكم بانى مدينتى رمسيس وبيتون . أى فى عهد رمسيس الثانى .

(جـ) أن الفرعون الذى كان يحكم بمصر قد مات عندما كان موسى بأرض مدين . أما بقية حكاية موسى فإنها تقع فى حكم خليفة هذا الملك أى منبتاح .

بل أكثر من ذلك تأتى التوراة بعنصر آخر عظيم الأهمية فى تحديد زمن الخروج فى الحوليات الفرعونية : والمقصود هو الإشارة إلى أن عمر موسى كان ٨٠ عامًا عندما شرع ، بأمر من الله ، فى محاولة الحصول من فرعون على إطلاق سراح إخوته : «وكان عمر موسى ٨٠ عامًا ، وهارون ٨٣ عامًا عندما تحدثا إلى فرعون» (الخروج ٧، ٧) . ويضاف إلى ذلك أن التوراة[1] تعلمنا أن الفرعون الذى ولد موسى فى عهده قد مات عندما كان موسى ببلاد مدين ، هذا برغم أن رواية التوراة تستمر دون إشارة لأى تغيير فى اسم الملك . هاتان الفقرتان من التوراة تتضمنان إذن أن مجموع المدتين ملك الملكين اللذين عاش موسى فى عصرهما ، يكون على أكثر من ٨٠ عامًا .

ولكننا نعلم أن رمسيس الثانى حكم لمدة ٦٧ عامًا (أى من ١٣٠١ إلى ١٢٣٥ ق.م. على حسب حولية دريتون وفانديه ، أو من ١٢٩٠ إلى ١٢٢٤ ق.م. على حسب حولية روتون) . أما فيما يختص بمنبتاح ، خليفته ، فلا يستطيع علماء الآثار المصرية أن يعطوا فترة حكم محددة ، ولكنها لا تقل عن عشر سنوات . حيث إن العام العاشر من حكمه تشهد به الوثائق ، كما يشير إلى ذلك الأب ديفو . لكن مانيتون Manethon يعطيه عشرين عامًا من الحكم . وأما دريتون وفانديه فيقولان باحتمالين بالنسبة لمنبتاح : إما أن يكون قد حكم لمدة عشر سنوات من ١٢٤٣ ق.م وإما أن يكون قد حكم لمدة عشرين عامًا على حسب قول روتون . أى من ١٢٢٤ إلى ١٢٠٤ ق.م. ولا يعرف علماء الآثار

(١) (الخروج ٢، ٢٣) .

المصرية شيئًا محددًا عن نهاية حكم منبتاح : وكل ما يعرف هو أن مصر قد مرت بعده بأزمة داخلية شديدة الخطورة دامت ما يقرب من ربع قرن .

وبرغم أن حوليات الحكم غير دقيقة . فليس هناك - طيلة الدولة الحديثة - فترات أخرى استطاع فيها حكمان متواليان أن يصلا أو يتخطيا الثمانين عامًا فيما عدا فترة رمسيس الثانى ومنبتاح . إن معطيات التوراة الخاصة بعمر موسى عندما شرع فى تحرير إخوته لا يمكن أن تدخل إلا فى إطار تعاقب حكمى رمسيس الثانى ومنبتاح . وكل شيء يسمح بالتفكير بأن موسى قد ولد فى بداية حكم رمسيس الثانى ، وكان مازال موجودًا بمدين عندما مات بعد سبعة وستين عامًا من الحكم ، ثم أصبح بعد ذلك المدافع عن العبريين فى مصر أمام منبتاح ابن وخليفة رمسيس الثانى . وقد وقعت هذه الأمور فى النصف الثانى من حكم منبتاح إذا كان قد حكم مدة عشرين عامًا ، وهذا محتمل تمامًا كما يعتقد روتون بذلك . وعندئذ قاد موسى الخروج من مصر - أى فى نهاية حكم منبتاح على كل حال ، حيث إن فرعون قد فقد حياته وهو يطارد العبريين الخارجين من مصر - كما يشير إلى ذلك القرآن والتوراة .

ويتفق هذا البيان تمامًا مع ما تخبر به الكتب المقدسة عن مهد موسى والتقاط أسرة فرعون له . والمعروف فعلاً أن رمسيس الثانى كان متقدمًا فى العمر عند موته . لقد قال البعض بأن كان قد بلغ تسعين عامًا أو مائة عام . وعلى حسب هذا الفرض فيكون عمره من ٢٣ عامًا فى بداية حكمه الذى دام ٦٧ عامًا . فى هذه السن كان يمكن أن يكون متزوجًا، وليس هناك تناقض فى ذلك مع اكتشاف «أحد أعضاء أسرة فرعون»، فى قول القرآن ، لموسى فى المهد على حافة النيل ، وطلبت امرأة فرعون من زوجها أن يبقيه حيًا . أما التوراة فهى تدعى أن ابنة فرعون هى التى اكتشفته . وبالنظر إلى عمر رمسيس الثانى فى بداية حكمه فيحتمل تمامًا أن كانت له ابنة اكتشفت الطفل المتروك ، وإذن رواية القرآن ورواية التوراة لا تتناقضان مطلقًا فى هذه النقطة .

إن الفرض المصاغ هنـا يتفق بشكل مطلق مع القرآن . ولكنه ، على العكس ، لا يتناقض إلا مع فقرة واحدة من التوراة وهي ، كما رأينا ، الآية الأولى من الإصحاح السادس من سفر الملوك (وهو ليس جزءًا من التوراة ، ويجب التنويه بهذا) . هذه

الفقرة محل جدل كثير ، والأب ديفو يرفض معطيات تسلسل الأحداث فى هذا الكتاب من العهد القديم ، الذى يحدد زمن الخروج من مصر بالنسبة إلى بناء معبد سليمان . وكون أنها موضوع تحفظ يمنع من إعطائها قيمة الحجة الحاسمة ضد النظرية التى عرضنا لها هنا .

مشكلة نصب العام الخامس لمنبتاح :

رأى البعض أنه من الممكن أن يوجد فى نص النصب الشهير للعام الخامس من حكم منبتاح اعتراض على القضية المطروحة هنا عن الخروج من مصر ، والذى يشكل آخر عمل فى حكم هذا الفرعون .

ولهذا النصب أهمية عظمى حيث إنه يشكل الوثيقة الهيروغليفية الوحيدة المعروفة التى يشار فيها إلى كلمة « إسرائيل »[1] . ولقد اكتشف هذا النصب بطيبة فى المعبد الجنائزى لفرعون ، ويقدر تاريخه بالجزء الأول من حكم منبتاح ، وهو يشير إلى سلسلة من الانتصارات التى حققها على جيران مصر ، وخاصة ، فى نهاية الوثيقة ، انتصار على « إسرائيل التى محيت ، ولم يعد لها بذور ... » . واستنادًا إلى هذا الأمر قال البعض بأن وجود كلمة « إسرائيل » يتضمن أن اليهود كانوا مستقرين بأرض كنعان فى العام الخامس من حكم منبتاح ، وأن خروج العبريين من مصر ، كان قد وقع قبل ذلك الوقت .

ولا يبدو هذا الاعتراض مقبولاً ، فهو يعنى أنه لم يكن هناك يهود بأرض كنعان طالما كان هناك عبريون بمصر . وهذا أمر غير محتمل . وبالرغم من أن الأب ديفو مناصر لقضية رمسيس الثانى ، فقد كتب فى كتابه « تاريخ إسرائيل القديم » وفيما يتعلق بالاستقرار بأرض كنعان ، كتب ما يلى : « فيما يخص الجنوب فإن تاريخ استقرار جماعات تنتمى إلى العبريين بمنطقة قادش غير محدد ، وهو سابق على الخروج من مصر » . هو إذن يقول بمعقولية استقرار بعض الجماعات التى خرجت من مصر فى زمن آخر غير زمن خروج جماعة موسى من مصر . إن « الابيرو » أو « الهابيرو » الذين

(١) الكلمة متنوعة بتعريف لا يترك أى مجال للشك فى تعريفها لجماعة إنسانية .

يطابقهم البعض على الإسرائيليين كانوا بالشام قبل رمسيس الثانى ، وبالتالى قبل الخروج : إن أمينوفيس الثانى ، كما هو معروف من إحدى الوثائق ، قد أتى بمجموعة من الأسرى قدرها ٣٦٠٠ أسير . وقد استخدمهم كعمال سخرة بمصر . وفى عصر سيتى الأول أيضًا كان يوجد منهم بأرض كنعان كثيرون حيث دبروا الاضطرابات بمنطقة بيت - شيان ، ويذكر ب. مونتى هذا فى كتابه « مصر والتوراة » . وعلى ذلك يكون معقولاً تمامًا أن منبتاح قد عاقب بقسوة هذه العناصر على حدوده . على حين كان فى داخل البلاد دائمًا هؤلاء الذين تجمعوا فيما بعد حول موسى للهروب من مصر . وعلى ذلك لا يعارض نصب منبتاح للعام الخامس مطلقًا الفرض المقدم هنا .

ويضاف إلى ذلك أن ظهور كلمة « إسرائيل » فى تاريخ الشعب اليهودى لا يرتبط بتاتًا باستقرار جماعة موسى بأرض كنعان . وأصل الكلمة هو ما يلى :

على حسب سفر التكوين (٣٢، ٢٩) فإسرائيل هو الاسم الثانى الذى أعطى ليعقوب ابن إسحاق وحفيد إبراهيم . وربما معناه على ما يحتمل « ليظهر الله قويًا » ، وذلك على حسب المعلقين على الترجمة المسكونية للعهد القديم (١٩٧٥) . وبعد أن طبق الاسم على رجل ، يصبح من غير المدهش أن يصف بالتالى جماعة بأكملها تخليدًا لذكرى أب أول .

وإذن فقد ظهر اسم إسرائيل قبل موسى بكثير- أى قبله بعديد من مئات الأعوام . وكون أن نرى الاسم مذكورًا على نصب يرجع تاريخه إلى الفرعون منبتاح أمر لا يدهش. إن هذه الإشارة لا تكون بأى حال حجة فى صالح تاريخ خروج موسى قبيل العام الخامس من منبتاح . الواقع ، أن النصب عندما يشير إلى جماعة تسميها « إسرائيل » فإنه لا يستطيع أن يشير إلى جماعة مستقرة سياسيًا . حيث إن هذا التسجيل يرجع إلى نهاية القرن الـ ١٢ قبل الميلاد ، وحيث إن مملكة إسرائيل لم تتكون إلا فى القرن العاشر قبل الميلاد . إنها بالضرورة إذن مجموعة بشرية أكثر تواضعًا(١) .

(١) كما يشير الأب ب. كروابيه R.P.B. Couroyer الأستاذ بمدرسة الكتاب المقدس . فى تعليقاته على ترجمة سفر الخروج Editions du Cerf 1968 ص ١٢ فإن كلمة إسرائيل مصحوبة بكلمة « شعب » التعريفية بدلاً من كلمة « بلد » مثلما هو الحال بالنسبة لأسماء الأعلام الأخرى بهذا النصب » .

ومعروف فى عصرنا أن فترة طويلة من التكوين ما بين ٨ أو ٩ قرون قد سبقت دخول إسرائيل إلى التاريخ . وقد طبعت هذه الفترة باستقرار جماعات عديدة نصف - بدوية فى كل المنطقة ، ومنهم خاصة الأموريون والآراميون ، كما طبعت بظهور الآباء الأولين فى داخل هذه الجماعات ، ومن بينهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب - إسرائيل . والاسم الثانى للأب الأخير قد استخدم فى الإشارة إلى الجماعة الأولى . وهى بذرة لشخصية سياسية ظهرت بعد حكم منبتاح . حيث إن مملكة إسرائيل قد دامت من ٩٣١ - ٩٣٠ ق.م. إلى ٧٢١ ق.م .

٤ - ذكر الكتب المقدسة لموت فرعون عند الخروج :

يشكل موت فرعون عند الخروج نقطة شديدة الأهمية فى روايات القرآن والتوراة وهى تبرز من النصوص بمنتهى الوضوح . وفيما يخص التوراة فإن موت فرعون ليس مذكورًا فقط فى أسفار موسى الخمسة ، وإنما هو مذكور أيضًا فى مزامير داود : وقد بينا مراجع هذا فى الصفحات السابقة .

ومن الغريب كل الغرابة أن الكتاب المسيحيين يسكتون على حادثة موت هذا الفرعون . فالأب ديفو يدافع عن القضية القائلة بأن الخروج من مصر قد حدث فى الجزء الأول أو فى منتصف حكم رمسيس الثانى ، ولم يأخذ إطلاقًا بعين الاعتبار أن هذا الفرعون قد هلك عند المطاردة ، وذلك يعنى- مهما كانت الفروض - أن الحدث لا يمكن أن يكون قد وقع إلا فى نهاية الحكم . وفى كتابه « تاريخ إسرائيل القديم » لا يبدو أن مدير مدرسة الكتاب المقدس بالقدس يعطى أقل اهتمام للتناقض بين القضية التى يدافع عنها وبين معطيات سفرى التوراة .

أما ب. مونتى ففى كتابه « مصر والتوراة » يحدد زمن الخروج فى عصر منبتاح ، ولكنه لا ينبس بكلمة واحدة عن موت الفرعون الذى كان على رأس المطاردين .

هذا الموقف المذهل يتباين مع موقف اليهود : فمزمور داود رقم ١٣٦ الذى يحمد الله ، فى الآية ١٥ ، لأنه « ألقى بفرعون وجيشه فى بحر البوص » ذكر كثيرًا فى طقوسهم . وهم يعرفون الاتفاق بين هذه الآية وفقرة الخروج (١٤، ٢٨ و ٢٩) التى تقول:

« وارتدت المياه كما كانت وغطت مركبات وفرسان كل جيش فرعون الذى كان قد دخل إلى البحر وراءهم ولم يبق منهم واحد » . وفى رأيهم أنه ليس هناك أدنى شك فى أن هذا الفرعون قد هلك مع جيوشه . إن نفس هذه النصوص موجودة فى كتب التوراة المسيحية .

ويستبعد المعلقون المسيحيون عن عمد ، وضد كل وضوح ، موت فرعون . ولكن ، أكثر من هذا ، يذكر البعض الإشارة التى جاءت فى القرآن داعين بذلك القراء إلى القيام بعملية تقريب غريبة . وهكذا نستطيع أن نقرأ فى ترجمة التوراة التى تمت تحت إشراف مدرسة الكتاب المقدس بالقدس[1] التعليق التالى للأب كوروابيه R.P.B. Couroyer وهو الأستاذ بهذه المدرسة - والذى يخص موت فرعون . يقول :

« يشير القرآن إليه (أى موت فرعون) (فى سورة يونس الآيات من ٩٠ إلى ٩٢) وعلى حسب التراث الشعبى فإن فرعون قد ابتلع بجيشه (وهذا ما لا يقوله النص المقدس)[2] وهو يسكن الآن قاع البحر ويحكم مملكة إنسان البحر-أى عجول البحر»[3].

إن القارئ الذى لا يعرف محتوى القرآن ينشىء فى هذه الحالة - وهذا طبيعى - علاقة بين دعوى القرآن المناقضة لنص التوراة - فى رأى المعلق فقط - وبين هذه الخرافة المضحكة التى تنبع فيما يقال من أساطير شعبية ، والتى يشار إليها فى التعليق بعد الإشارة إلى القرآن .

إن واقع المقولة القرآنية فيما يختص بهذا الموضوع لا صلة له بما يوحى به هذا الكاتب :

فالآيات من ٩٠ إلى ٩٢ من سورة يونس (١٠) تقول بأن بنى إسرائيل قد عبروا فعلاً البحر حين كان فرعون وجيشه يطاردهم ، وبأن فرعون ، والبحر على وشك أن

(١) الخروج L'Exode ، ١٩٦٨ ، ص ٧٣ .

(٢) لا شك أن المقصود عند كاتب التعليق هو التوراة .

(٣) فقمة .

يطويه ، قد صاح : ﴿ آمنتُ أنَّهُ لا إلهَ إلاَّ الَّذي آمنتْ بهِ بنُو إسْرائيلَ وأنا منَ المُسْلمِينَ ﴾ .

فأجاب الله : ﴿ آلآنَ وقدْ عصيْتَ قبْلُ وكُنتَ منَ المُفْسِدينَ * فالْيوْمَ نُنجِّيكَ ببَدَنكَ لتكُونَ لمنْ خلْفكَ آيةً وإنَّ كثيراً منَ النَّاسِ عنْ آياتنا لغَافلُونَ ﴾ .

ذلك كل ما تحتويه هذه السورة فيما يختص بموت فرعون . وليس فى هذه السورة ولا فى أية سورة أخرى شىء له علاقة بتلك الأوهام التى يبرزها المعلق على التوراة . إن النص القرآنى يقول ببساطة ، وبشكل واضح تمامًا : إن جسد فرعون قد أنقذ وتلك معطية رئيسية .

وفى العصر الذى وصل فيه القرآن للناس عن طريق محمد ﷺ . كانت جثث كل الفراعنة الذين شك الناس فى العصر الحديث صوابًا أو خطأ أن لهم علاقة بالخروج ، كانت مدفونة بمقابر وادى الملوك بطيبة على الضفة الأخرى للنيل أمام مدينة الأقصر الحالية . فى عصر محمد ﷺ كان كل شىء مجهولاً عن هذا الأمر ، ولم تكتشف هذه الجثث إلا فى نهاية القرن التاسع عشر ، وكما يقول القرآن فقد أنقذ بدن هذا الفرعون. وأيًا كان هذا الفرعون فهو الآن فى قاعة المومياوات الملكية فى المتحف المصرى بالقاهرة ، ويستطيع الزوار أن يروه . إذن فالواقع يختلف تمامًا عن تلك الخرافة المضحكة التى ربطها الأب كوروابيه خطأ بالقرآن .

٥ - مومياء الفرعون منبتاح :

فى عام ١٨٩٨م بوادى الملوك بطيبة اكتشف لوريت مومياء منبتاح ابن رمسيس الثانى ، وكل شىء يسمح بالاعتقاد بأنه فرعون الخروج - ومن هناك نقلت المومياء إلى القاهرة ، ورفع إليوت سميث Elliot Smith عنها أربطتها فى ٨ يوليو ١٩٠٧ .

ويصف إليوت سميث فى كتابه The Royal Mummies (المومياء الملكية) (١٩١٢م) بروتوكول هذه العملية وفحص الجثة . وفى ذلك الوقت كانت المحافظة على المومياء مرضية - بالرغم من بعض التدهورات فى نقاط عدة . ومنذ هذا التاريخ والمومياء

معروضة للزوار بمتحف القاهرة ، مكشوفة الرأس والرقبة ، أما بقية الجسم فهو مغطى بقطعة من القماش لدرجة أنه حتى هذه الشهور الأخيرة لم يكن المتحف يملك صورًا فوتوغرافية عامة لجسم المومياء سوى تلك التي يحتوى عليها كتاب أ. سميث (١٩١٢م) .

وفى يونيو ١٩٧٥ سمحت لى السلطات المصرية العليا بدراسة أجزاء جسم فرعون التى كانت مغطاة حتى ذلك الوقت . كما سمحت لى بأخذ بعض الصور . وعندما أقيمت المقارنة بين حالة المومياء الحالية وما كانت عليه منذ أكثر من ٦٠ عامًا اتضح جليًا أن حالة المومياء قد تدهورت ، وأن هناك أجزاء منها قد اختفت . فقد عانت الأنسجة المحنطة الكثير على أيدى البشر بالنسبة لبعض الأجزاء ، وبسبب آفة الزمن بالنسبة لأجزاء أخرى .

وسبب هذا التدهور الطبيعى يتضح تمامًا بتعدل ظروف الاحتفاظ بالمومياء منذ أن اكتشفت المومياء فى نهاية القرن التاسع عشر فى قبر بمدفن طيبة . حيث كانت منذ أكثر من ثلاثة آلاف عام . وهى معروضة الآن تحت واق زجاجى بسيط لا يفصلها بشكل تام عن الجو الخارجى ، ولا يمنع تلوثها بالجسيمات الميكروبية ، كما أنها عرضة لفروق درجات الحرارة الجوية ، وغير محمية مما قد يصيبها بسبب الرطوبة الموسمية . لكل هذه الأسباب فالمومياء بعيدة كل البعد عن الظروف التى سمحت لها بأن تعبر ثلاثة آلاف سنة على وجه التقريب فى حمى من كل أسباب التدهور هذه ، لقد فقدت حماية أربطتها ، وميزة المكوث بوسط مغلق فى قبر حيث درجة الحرارة أكثر استقرارًا والهواء أقل رطوبة من جو القاهرة فى بعض فترات السنة . ولا شك أنها قد عانت فى مدافن طيبة نفسها من زيارات القوارض أو لصوص القبور ، وذلك كما هو محتمل ، منذ زمن بعيد جدًا ، وقد تسبب هؤلاء فى بعض الأضرار ، وبالرغم من ذلك فقد كانت الظروف، فيما يبدو ، أكثر مواءمة من اليوم لمقاومة آفة الزمن .

وفى أثناء فحص هذه المومياء فى يونيو ١٩٧٥ بدأت بمبادرتى دراسات خاصة . فقد قام الطبيبان المليجى ورمسيس بدراسة طبية بالأشعة السينية . على حين قام الدكتور مصطفى المنيلاوى ، بفضل ثغرة فى جدار القفص الصدرى بدراسة جوف القفص الصدرى والبطن، وقد حقق بذلك أول دراسة بالمنظار الداخلى Endiscopie على مومياء . وقد سمح هذا برؤية وتصوير بعض التفاصيل الهامة جدًا داخل الجسم نفسه. ومع الدراسة الميكروسكوبية لبعض أجزاء صغيرة وقعت تلقائيًا من جسم المومياء ، وهى دراسة سيقوم بها بباريس البروفيسور مينو Mignot والدكتور دوريجون Durigon ، ستكتمل الدراسة الطبية الشرعية العامة التى سيقوم بها البروفيسور سيكالدى Cec-caldi . وإنه لما يؤسفنى حقًا أن نتائج هذه الأبحاث لم تكتمل فى اللحظة التى ينتهى فيها تحرير هذا الكتاب .

ولكن ما يمكن استنتاجه من هذه الدراسة هو ملاحظة آفات عظيمة عديدة مع ثغرة فى مادة الجسم - ربما كان بعض منها قاتلاً - دون أن يكون ممكنًا الآن القول بما إذا كان بعض منها قد حدث قبل أو بعد موت فرعون . فهذا الفرعون قد مات إما غريقًا على حسب روايات الكتب المقدسة ، وإما بسبب رضوض عنيفة جدًا سبقت ابتلاع البحر له أو ربما للسببين معًا .

إن ربط كل هذه الآفات بالتدهورات التى تحدثنا عن أسبابها تجعل عسيرًا الاحتفاظ جيدًا فى المستقبل بهذا الجسم المحنط ما لم تتخذ إجراءات الإنقاذ اللازمة فى مستقبل قريب جدًا . وسيكون من شأن هذه الإجراءات أنها ستجنبنا فقدان الشاهد المادى الوحيد الباقى حتى يومنا ... الشاهد على موت فرعون الخروج ، وعلى النجاة التى أرادها الله لجسده .

وإنه لما يرجى دائمًا أن يعمل الإنسان على الاحتفاظ بشواهد على تاريخه ، ولكن المعنى به هنا هو شىء أكثر من هذا . إنها شهادة مادية فى جسد محنط على من عرف

موسى ، وعارض طلباته ، وطارده فى هروبه ، ومات فى أثناء هذه المطاردة . وأنقذ الله جثته من الهلاك التام ليصبح آية للناس كما هو مكتوب فى القرآن[1] .

إنه بيان رائع لآيات القرآن . ذلك الذى خص بدن فرعون ، والذى تهبه قاعة المومياءات الملكية بدار الآثار بالقاهرة لكل من يبحث فى معطيات المكتشفات الحديثة عن أدلة على صحة الكتب المقدسة !

(١) كانت مومياء رمسيس الثانى ، وهى شاهد آخر على تاريخ موسى ، محلاً لدراسة مماثلة لتلك التى أجريت على مومياء منبتاح ، وهى تحتاج لنفس إجراءات المحافظة .

القرآن والأحاديث النبوية
والعلم الحديث



القرآن والأحاديث النبوية والعلم الحديث

تمت مراجعة هذا الفصل

بالتعاون مع الدكتور معروف الدواليبى

ليس القرآن هو المصدر الوحيد للعقيدة والشريعة فى الإسلام . بل إن السنة النبوية من أفعال النبى ﷺ وأقواله هى المصدر الثانى الذى عنى العلماء بطلبه تكملة للمصدر الأول ، حتى فى أثناء حياة النبى - فضلاً عنه بعد وفاته . وكانت معلومات هذا المصدر الثانى تعتمد فقط على النقل الشفهى . لذلك فإن الذين بادروا إلى جمع هذه الأقوال والأفعال فى نصوص قد قاموا بتحقيقات تتسم دائمًا بالصعوبة - كما هو الشأن فى حكاية جميع الأحداث بعد انقضائها . ولهذا كان همهم الأول فى عملهم العسير فى مدوناتهم منصبًا أولاً على دقة الضبط لهذه المعلومات الخاصة بكل حادثة فى حياة محمد ﷺ ، وبكل قول من أقواله . وللتدليل على ذلك الاهتمام بالدقة والضبط لمجموعات الأحاديث المعتمدة ، فإنهم قد نصوا على أسماء الذين نقلوا أقوال النبى ﷺ وأفعاله ، وذلك بالصعود فى الإسناد إلى الأول من أسرة النبى ﷺ ومن صحابته ممن قد تلقوا هذه المعلومات مباشرة من محمد ﷺ نفسه ، وذلك بغية الكشف عن حال الراوى فى جميع سلسلة الرواية ، والابتعاد عن الرواة غير المشهود لهم بحسن السيرة وصدق الرواية ونحو ذلك من دلائل ضعف الراوى الموجبة لعدم الاعتماد على الحديث الذى روى عن طريقه . وهذا ما قد انفرد به علماء الإسلام فى كل ما روى عن نبيهم ﷺ .

وهكذا ظهرت للوجود مجموعات أقوال النبى ﷺ وأفعاله ، وأصبحت تعرف الآن فى العلوم الإسلامية بـ « علم الحديث » . وإذا كانت كلمة « حديث » قد تشير فقط إلى القول ، فإنها تجمع تحتها أيضًا روايات أفعال النبى ﷺ .

وقد نشرت أول مجموعة للأحاديث فى العشرات من السنين التى تلت مباشرة وفاة محمد ﷺ . وقد كانت الأحاديث التى جمعت فى القرن الأول بعد وفاته محدودة بالنسبة إلى كثرة الأمور المنقولة عنه ، وإن أضخم مجموعات الحديث لم تظهر إلا بعد مضى أكثر من قرنين على وفاته ، وهى التى جمعت أوسع المعلومات وأوثقها ، ويعتبر صحيح البخارى بصورة عامة أكثر الكتب صحة بعد القرآن . ولقد قام « هوداس Hou-das » و « مارسى Marcais » فيما بين ١٩٠٣ و ١٩١٤ بترجمته إلى الفرنسية تحت عنوان « الأحاديث الإسلامية » . وقد نشرت فى الأعوام الأخيرة طبعة عربية مع ترجمة إنجليزية للدكتور محمد حسن خان من الجامعة الإسلامية فى المدينة النورة ، وبناء على ذلك أصبح فى استطاعة من لا يعرف العربية الاطلاع على الأحاديث بلغة أخرى . غير أن الحيطة لازمة إزاء قيمة بعض الترجمات التى أنجزها الغربيون ، بما فى ذلك الترجمة الفرنسية ، إذ يستطيع القارئ أن يكتشف فيها أحيانًا ما هو غير صحيح ومناقض للحقائق ، مما يعتبر تأويلاً لا ترجمة حقيقية . بل هناك أحيانًا تحريفات كبيرة للمعنى الحقيقى للحديث لدرجة أنها تجعله يقول ما لا يعنى .

ونرى فى هذا المقام أنه من الممكن المقارنة فيما بين مجموعات الأحاديث وبين الأناجيل من حيث أصول النصوص فيها : إذ هناك سمة مشتركة فيما بينها جميعها من حيث إن هذه المجموعات والأناجيل قد كتبت كلها بأقلام كتاب لم يكونوا من شهود العيان لما قد نقلوه من الوقائع ، كما أنها لم تظهر للوجود إلا بعد انقضاء مدة على الأحداث التى تتكلم عنها . وكذلك فإن مجموعات الحديث هى مثل الأناجيل من حيث إنها لم تعتبر كلها صحيحة ثابتة ، ولهذا فإن المتخصصين فى علم الحديث لم يقبلوا من هذه الأحاديث بصورة شبه إجمالية إلا عددًا قليلاً منها ، وأصبح من الممكن أن يوجد فى نفس المجموعة الواحدة أحاديث مظنون فيها ، أو مرفوضة قطعًا ، إلى جانب الأحاديث التى اعتبرت صحيحة .

غير أنه على عكس الأناجيل القانونية التى لم يتناولها الاعتراض عليها والنقد لها، برغم أنها كتبت بأقلام كتاب لم يكونوا أيضًا من شهود العيان لما قد نقلوه ، فإن مجموعات الأحاديث ، حتى تلك التى تعتبر بوجه خاص أنها صحيحة ، قد خضعت كلها

لفحوص نقدية عميقة قام بها أساتذة الفكر الإسلامى لتحديد درجتى القبول والعمل بها . ولكن الكتاب الأساسى ، أى القرآن ، قد ظل المرجع الذى لا يمكن أن يكون محلاً للجدل فى صحة نصوصه ، وذلك لأنه قد نقل عن النبى ﷺ بصورة إجماعية متواترة ، وسجل عنه فى أيام حياته بأقلام كتاب كانوا كلهم من شهود العيان لما قد سجلوا .

ولد قمت بالمقارنة بين الملاحظات التى خرجت بها من دراسة الأحاديث وبين الملاحظات التى عرضتها من قبل فيما يختص بالقرآن والعلم الحديث . وكانت نتيجة هذه المقارنة هامة جدًا : لأن الفرق قد ظهر واضحًا ومدهشًا بين دقة المعلومات القرآنية وصحتها فى حالة مقارنتها بمعطيات العلم الحديث كلما كانت تلك المعلومات راجعة إلى العلوم الكونية ، وبين قابلية النقد الواضحة لبعض معلومات الحديث المتعلقة بموضوعات تدخل فى صميم الميدان العلمى ، مع العلم بأن هذه الأحاديث هى وحدها التى نعالجها هنا .

وأن هذه المقارنة قد حملتنى على إبداء الملاحظة التالية ، وهى : كيف أمكن لمحمد عليه السلام أن يتناول قبل أربعة عشر قرنًا حقائق علمية فى القرآن لم يكتشفها إلا التقدم العلمى فى القرون الحديثة، لو لم يكن القرآن وحيًا منزلاً لا شك فيه، ولا ارتياب فى نصوصه ؟ .. وهذا على خلاف الأحاديث التى أشارت إلى بعض المواضع العلمية وكانت قابلة للنقد والشك فيها .. وإننى حينما أشير إلى بعض هذه الأحاديث لا أريد منها إلا الأحاديث التى اعتبرت صحيحة بصورة عامة مثل أحاديث صحيح البخارى . غير أننى لا يفوتنى هنا أن العلماء المختصين فى علم الحديث قد صنفوا الأحاديث القابلة للنقد فى جملة الأحاديث الظنية الثبوت ، وميزوا بين هذه وبين الأحاديث المتواترة المصنفة فى جملة الأحاديث القطعية ، آخذين فى الاعتبار - فيما يتعلق بالأحاديث الظنية الثبوت - أنها كتبت بأقلام أناس اعتمدوا فيها على النقل الشفهى للأحاديث النبوية ، وأنها بالتالى قد تقل دقتها نتيجة لأخطاء الرواة الذين قد نقلوا هذه الأحاديث بطريقة أخبار الآحاد ، والذين لم يتوافر لديهم كمال القدرة على ضبط ما سمعوه ، ولا الانتباه لظروف الكلام الذى نقلوه .

وهكذا يتقرر لدينا من جديد أن حقائق القرآن العلمية كما شرحناها فى محلها سابقًا . تدل جميعها على أن نصوص القرآن نصوص لا دخل ليد البشر فيها ، وأنها وحى لا شك فيه ، وذلك خلافًا لنصوص الأحاديث الظنية من أخبار الآحاد التى لا يمكن أن ترتفع فى الثبوت إلى درجة الوحى المنزل المتواتر المكتوب ، وذلك لما قد يدخل عليها من أخطاء الرواة كما سبق . وفضلاً عن ذلك كله فقد يكون الحديث صحيحًا لا شك فيه ، ولكنه ما دام فى أمر من أمور الدنيا مما لا علاقة للدين به . فلا فرق عندئذ فى ذلك بين النبى ﷺ : وبين غيره من البشر لما ورد فى صحيح مسلم عن النبى ﷺ : « **إذا أمرتكم بشىء من دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشىء من رأيى فإنما أنا بشر** » ، وكذلك نقل السرخسى فى أصوله قول النبى ﷺ : **إذا أتيتكم بشىء من أمر دينكم فاعملوا به ، وإذا أتيتكم بشىء من أمر دنياكم فأنتم أعلم بأمر دنياكم** » ، ويكون النبى ﷺ قد دعم بنفسه ملاحظتنا بشكل عام، وأقر الفوارق فيما بين مواضيع القرآن العلمية التى لا شك فيها ، وقد أيدها العلم الحديث ، وفيما بين بعض مواضيع الحديث التى لا وحى فيها عندما يكون الحديث متعلقًا بشأن من شئون الدنيا مما قد لا يتفق أحيانًا مع حقائق العلم الحديث ، ولا يضر هذا بمكانة الرسول النبوية أو البشرية ، ولكنه مفيد على كل حال . لأنه قد يعطينا فى هذه المواضيع صورة عن مفاهيم ذلك العصر ، وآرائهم فيما يتعلق ببعض المواضيع ذات الصفة العلمية .

ومن أبرز هذه الأحاديث الظنية الدنيوية غير الدينية عدد من الأحاديث المتعلقة بالطب ، مع العلم بأن القرآن لا يعطينا أية إرشادات فنية عن مهنة التطبيب بصورة خاصة ، غير ما قد أشار إليه مرة واحدة فقط فى الآية ٦٩ من سورة النحل (١٦) التى تقول بإمكانية وجود عامل علاجى فى العسل ، ولكن بدون أى إيضاح علاجى فى ذلك ، أما الأحاديث فإنها تحتفظ بمكان واسع لمثل هذه المواضيع . وهكذا فهناك جزء بتمامه من صحيح البخارى (الباب ٧٦) قد أفرد للطب . ويحتل هذا الكتاب فى ترجمة «هوداس» و « مارسى » الصفحات من ٦٢ إلى ٩١ من الجزء الرابع ، أما فى الترجمة الإنجليزية للدكتور محمد حسن خان فيحتل ذات الصفحات من ٣٩٥ إلى ٤٥٢ من

الجزء السابع . ويضاف إلى ذلك أحاديث أخرى ذات طابع علاجى أيضًا ، وقد أدمجت فى أجزاء أخرى من صحيح البخارى . وليس هناك أدنى شك فى أن هذه الصفحات تحتوى على الكثير من الأحاديث الظنية ، فضلاً عن أنها كلها تتعلق بأمور دنيوية غير دينية ، وقد قال النبى ﷺ فى مثل هذات المقام كما سبق : « **فأنتم أعلم بأمر دنياكم** » . غير أن المجموع العام من هذه الأحاديث المتعلقة بموضوعات طبية هو فى نظرنا هام جدًا ، لأنه يعطينا فكرة العصر فى مثل هذه المواضيع الطبية المختلفة .

وهكذا نكشف فى هذه الأحاديث أفكارًا عن الأذى ، والعين ، والسحر ، وإمكانية التخلص من آثار السحر ، مع العلم بأن هناك منعًا عن التكسب باستخدام القرآن لهذا الغرض ، كما أن هناك حديثًا يشير إلى أن بعض التمر يقى من نتائج السحر ، وأنه يمكن أيضًا استخدامه ضد اللدغات السامة .

هذا ولا ينبغى أيضًا أن ندهش ، ونحن نتكلم عن عصر كانت الإمكانيات الفنية والصيدلة فيه محدودة ، إذا وجدنا هناك توصيات باللجوء إلى إجراءات بسيطة ، أو إلى علاجات طبيعية مثل الفصد ، والحجامة ، والكى ، والحلاقة ضد القمل ، واستخدام لبن الناقة ، وبعض الحبوب مثل الحبة السوداء Nigelle ، وبعض النباتات مثل القسط الهندى ، ورماد الحصير لفوائده فى قطع النزيف ، إذ إنه لابد فى الظروف الصعبة من استخدام كل الوسائل الممكنة ، والتى قد تكون مفيدة حقًا . غير أنه لا يبدو لنا مع ذلك أن استخدام كل الوسائل بشرب أبوال الأبعرة هى فكرة مستطابة للعلاج فى بعض الحالات .

وكذلك يبدو عسيرًا فى عصرنا قبول بعض الإيضاحات المتعلقة بعلم الأمراض ، وذلك مثل الإيضاحات التالية :

(أ) فهناك حول « أصل الحُمَّى » أربعة نصوص تنص على أن « الحمى هى من فيح جهنم » – كتاب الطب ، الفصل ٢٨ ، الصفحة ٤١٦ .

(ب) وهناك القول بـ « وجود علاج لكل مرض » حيث ذكر في الحديث أنه : « لم ينزل الله مرضًا إلا وأنزل له علاجًا » - كتاب الطب ، الفصل ١ ، الصفحة ٣٩٥ - ، وفى حديث الذبابة توضيح لهذا المفهوم حيث نقل فى الحديث : « **إذا وقع الذباب فى إناء أحدكم فليغمسه كله ، ثم ليطرحه ، فإن فى أحد جناحيه داء ، وفى الآخر شفاء** » - كتاب الطب ، الفصل ٥٨ ، الصفحة ٤٥٢ ، وكتاب بدء الخلق ، الباب ٥٤ ، الفصلان : ١٥، ١٦ ، الصفحة ٣٣٥ .

(جـ) وهناك القول بـ « الإجهاض عند رؤية ثعبان معين » وأنه « يسبب العمى » ، وقد نص على ذلك فى كتاب بدء الخلق ، الفصلين ١٣، ١٤ ، الصفحات ٣٣٠ - ٣٣٥ .

(د) وكذلك حول النزيف خارج العادة الشهرية ، فقد جاء فى كتاب الحيض ، وفى الباب السادس من البخارى حديثان عن النزيف خارج العادة الشهرية (الفصلان ٢١، ٢٨) . وهذا الحديثان يخصان امرأتين ، ويؤكد الحديث فيما يتعلق بإحدى الحالتين أن النزيف ناشىء عن عِرْق ، ولكن الحديث لم يعطنا أى إيضاح عن الأعراض ، وأما فى الحالة الأخرى فالموضوع امرأة تنزف منذ سبع سنوات خارج العادة الشهرية ، وفى هذه الحالة أيضًا يؤكد الحديث بأن النزيف ناشىء كذلك عن عِرْق . وقد يكون من الممكن القول بعدة افتراضات حول السبب الحقيقى لهذه الاضطرابات ، ولكنه من العسير معرفة الحجة التى استند إليها حينذاك لتأكيد مثل هذا التشخيص الذى قد يكون مع ذلك صحيحًا .

(هـ) وهناك أيضًا القول بـ « عدم عدوى بعض الأمراض » ، وقد نقل ذلك فى عدة أمكنة من مجموعة البخارى - كتاب الطب ، الباب ٧٦ ، الفصول : ١٩، ٢٥، ٣٠، ٣١، ٥٣، ٥٤- وذلك تارة فى أثناء الكلام عن بعض الحالات الخاصة مثل الجذام، والطاعون، وجرب الجمال ، وتارة بصورة عامة . غير أن هذه الأقوال فى تلك الحالات الخاصة قد رافقتها أقوال أخرى مناقضة . وهكذا فهناك فى الواقع أحاديث أخرى توصى بعدم الذهاب إلى حيث يوجد الطاعون ، كما توصى بشدة بالفرار من المجذوم .

ونستنتج من كل ذلك أنه من الممكن القول بوجود بعض الأحاديث غير المقبولة علميًا فى مواضيع الطب والمعالجة ، وإن الشك يخيم على صحتها ، فضلاً عن أنها من أمور الدنيا ، وليست من أمور الدين . وإن الفائدة من الإشارة إليها هو فقط لمقارنتها مع نصوص القرآن العلمية التى أثبتت دراستها كما سبق : أنها لا تحتوى قط على شىء من ذلك غير صحيح ، ولذلك كان لهذه المقارنة أهمية كبرى ، لأنها كما رأينا تشهد للقرآن بأنه وحى لا شك فيه ، وأنه لا يد فيه للبشر .

وبالإضافة إلى هذه الأمثلة من الأحاديث التى قد ذكرناها أعلاه مما لم يعتبر مقبولاً علميًا فى مواضيع الطب والمعالجة ، هناك أيضًا بعض الأحاديث الأخرى من أخبار الآحاد ومما لا علاقة بها بأمور الدين ، غير أنها قد تتخذ تفسيرًا لبعض الآيات القرآنية الكونية فى مدار الشمس ، وفى مراحل تكوين الجنين ، مما لا يمكن أن تقبل فى عصرنا كتفسير لآيات لا اعتراض على مفهومها ضمن نصها القرآنى .

وهكذا فقد مر معنا كما تعلمون فى الآيات العلمية حول الشمس أنها ﴿ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ - (يس ٣٦ الآية ٣٨) - وتبين لنا هناك أنها من عجائب معلومات القرآن الكونية التى لم تكتشف إلا فى العلم الحديث . غير أنه قد ورد حديث قد يعتبر تفسيرًا للآية القرآنية ، وهو يرى أنه « عندما تغرب الشمس فإنها تسجد تحت عرش الله ، وتطلب إليه الإذن بأن تعيد طريقها وتسجد من جديد . وفى نهاية الأمر تعود من حيث أتت لتشرق من جديد » . وقد جاء النص الأصلى لهذا الحديث فى « كتاب بدء الخلق » من صحيح البخارى ، الجزء الرابع ، الباب ٥٤ ، الصفحة ٢٨٣ . وعلى الرغم من أن هذا الحديث مبهم وعسير الترجمة ، فإنه يحتوى على صورة مجازية تتضمن معلومات خاصة « بمدار الشمس حول الأرض » مما لا يتفق فى ظاهرة مع العلم الحديث الذى أثبت العكس . وعلى كل فإن هذا الحديث فى ظاهر معناه هو أكثر من ظنى ، وهو من أخبار الآحاد - كما هو معروف فى علم الحديث ، وما كان كذلك فهو لا يفيد العلم القطعى .

وكذلك هو الأمر فيما يتعلق بمراحل تكوين الجنين ، فقد وردت فقرة من حيث يحدد بصورة غريبة الأزمنة اللازمة لتطور الجنين فى مراحله الأولية كما جاء ذلك فى نفس « كتاب بدء الخلق » من صحيح البخارى - الباب ٥٤ ، والفصل السادس ، الرقم ٤٣٠ ، والصفحة ٢٩٠ - فهناك مرحلة محددة بأربعين يومًا تجتمع فيها العناصر المكونة للكائن البشرى ، ثم مرحلة أخرى مساوية للأولى حيث يصبح فيها الجنين كاللحم الممضوغ « مضغة » . ثم بعد ذلك يأتى تدخل الملائكة لتحديد ما سيكون فيها مستقبل هذا الكائن ، ثم تنفخ فيه الروح . وإن وصف تطور الجنين فى هذا الحديث الظنى لا يتفق مع المعلومات العلمية الحديثة . أما نص القرآن القطعى حول ذلك فقد سكت عن هذا التحديد الزمنى الذى لا اعتراض عليه .

وفى الحقيقة يجب على القارئ أن يتذكر أن تعاليم النبى ﷺ قد انقسمت عند موته إلى مجموعتين :

- فمن ناحية كان هناك عدد كبير من المؤمنين الذين كانوا يحفظون القرآن عن ظهر قلب ، وكانوا يتلونه مثل النبى ﷺ دائمًا . ويضاف إلى ذلك أنه كانت هناك أيضًا تسجيلات كاملة لنص القرآن ، وقد تمت هذه التسجيلات فى حياة النبى ﷺ وبأمر منه، ومنذ ما قبل الهجرة[1] .

- ومن ناحية أخرى فإن المقربين من صحابة النبى ﷺ والمؤمنين ممن كانوا من شهود العيان لأفعاله وأقواله ، قد حفظوها فى ذاكرتهم ، واعتمدوا عليها ، بالإضافة إلى القرآن للتعريف بالعقيدة والشريعة الجديدتين .

غير أن هذه التعاليم القرآنية والنبوية لم تلبث أن دونت فيما بعد وفاة النبى ﷺ وذلك فى مجموعتين منفصلتين . وكانت أولى المجموعتين هى مجموعة نصوص القرآن التى دونت بصورة رسمية فى عهد الخليفتين أبى بكر وعثمان ، وخاصة فى خلافة هذا الأخير . الذى قد عمم على جميع الأمصار الإسلامية النص القطعى للقرآن . وكان

(١) تقع الهجرة فى عام ٦٢٢م . أى قبل عشر سنوات من وفاة محمد ﷺ .

ذلك كله فيما بين العام الثانى عشر والعام الرابع والعشرين من بعد وفاة محمد ﷺ وبمعرفة جميع شهود العيان لما قد سمعوا وحفظوا أو سجلوا .

وأما فيما يتعلق بالحديث فإن أول مجموعة فيه إنما ظهرت بعد حوالى أربعين عامًا من الهجرة .

ونرى من الواجب فى هذا المقام التأكيد على عدم التشابه فيما بين هاتين المجموعتين : القرآنية والنبوية ، سواء من وجهة النظر الأدبية ، أو من جهة النظر أحيانًا للمحتوى والمضمون فيما يتعلق ببعض الأمور ذات الطابع العلمى . وهكذا فإنه يستحيل إقامة أية مقارنة بين أسلوب القرآن وبين أسلوب الحديث . وكذلك فإننا إذا قارنا بين محتويات نصوص القرآن وبين محتويات نصوص الحديث فيما له صلة بالعلوم لا بالعقيدة والتشريع ، وقابلناهما مع معطيات العلم الحديث ، فسوف تذهلنا حقًا الفروق التى آمل أن أكون قد نجحت فى إظهار وجودها :

أولاً : من ناحية معتقدات علمية قرآنية - لم تكن أحيانًا مقبولة فى ظاهرها ، ولكنها عندما درست اليوم على ضوء المعارف الحديثة الثابتة ظهر أنها تنطوى على معطيات علمية استطاع العلم فى العصر الحديث فقط أن يثبت حقيقتها .

ثانيًا : من ناحية أخرى فيما يتعلق ببعض نصوص الأحاديث ذات الصلة بقضايا علمية لا صلة لها بقضايا الدين ، فقد احتوت على آراء اعتبرت اليوم غير مقبولة علميًا، ولكنها - وهى كلها من أمور الدنيا - يبدو لنا أنها تعبر عن مفاهيم ذلك العصر فى تلك القضايا ، حتى ولو كانت صحيحة فى نسبتها إلى محمد ﷺ نفسه . وقد أقحمت هذه الآراء الدنيوية فى مجموعة من النصوص المتعلقة بالعقيدة والشريعة الإسلاميتين ، مما هو متفق على الاعتراف بصحتها ، وعلى عدم المجادلة فيها .

وأخيرًا فإن هذا الذى قد توصلنا إلى الكشف عنه من الفروق فى الأمور العلمية الدنيوية فيما بين القرآن والحديث . يدعمه محمد ﷺ نفسه حين قال كما سبق : « **إذا أمرتكم بشىء من دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشىء من رأيى فإنما أنا بشر** » ، وفى رواية : « **وإذا أتيتكم بشىء من أمر دنياكم فأنتم أعلم بأمر دنياكم** » .

وهكذا نختم هذه المقارنة بين الحديث فى الأمور العلمية الدنيوية بالتأكيد على أن هذه الفروق ، تثبت بصورة مذهلة أن القرآن هو الوحى المكتوب الذى لا شك فيه ، ولذلك كان معصومًا من كل خطأ علمى من هذا النوع . وأما كلام محمد ﷺ فى تلك الأمور الدنيوية التى لا وحى فيها ، حتى وإن صحت نسبة الكلام فيها إليه ، فإنه كلام بشر قد يخطئ وقد يصيب عملاً بقول محمد نفسه كما سبق أعلاه . ولذلك كان التمييز على هذا الأساس ما بين القرآن وبين أقوال محمد البشرية الدنيوية هو تمييز ضرورى . وفيه قوة للقرآن ، وتأكيد على أنه وحى لا شك فيه ، كما أنه قوة لمحمد ﷺ نفسه : وذلك بالتدليل على صدقه فيما نقله عن الله بطريق الوحى ، مما يتميز تمام التمييز عن كلام البشر ، مصداقًا لقول محمد ﷺ : « **فإذا أتيتكم بشىء من رأيى فإنما أنا بشر** » .

خاتمـة عامـة

فى نهاية هذه الدراسة ، يبدو واضحًا أن الرأى السائد ، المتمسك به فى بلادنا عن نصوص الكتب المقدسة التى فى حوزتنا اليوم ، لا يستقيم مع الواقع . ولقد رأينا فى أى ظروف ، وفى أى عصور ، وبأى طريقة جمعت ونقلت كتابة العناصر التى شكلت العهد القديم والأناجيل والقرآن ، ولما كانت الظروف التى سادت ميلاد كتابات كل من التنزيلات الثلاثة قد اختلفت اختلافًا شاسعًا ، فقد نجمت عن ذلك نتائج بالغة الأهمية فيما يتعلق بصحة النصوص ، وببعض جوانب مضامينها .

إن العهد القديم يتكون من مجموعة من المؤلفات الأدبية . أنتجت على مدى تسعة قرون تقريبًا ، وهو يشكل مجموعة متنافرة جدًا من النصوص عدل البشر من عناصرها عبر السنين ، وقد أضيفت أجزاء لأجزاء أخرى كانت موجودة من قبل ، بحيث إن التعرف على مصادر هذه النصوص اليوم عسير جدًا فى بعض الأحيان .

لقد كان هدف الأناجيل هو تعريف البشر ، عبر سرد أفعال وأقوال المسيح ، بالتعاليم التى أراد أن يتركها لهم عند اكتمال رسالته على الأرض . والسبب هو أن الأناجيل لم تكتب بأقلام شهود معاينين للأمور التى أخبروا بها . إنها ببساطة تعبير المتحدثين باسم الطوائف اليهودية المسيحية المختلفة عما احتفظت به هذه الطوائف من معلومات عن حياة المسيح العامة ، وذلك فى شكل أقوال متوارثة شفهية أو مكتوبة اختفت اليوم ، بعد أن احتلت دورًا وسطًا بين التراث الشفهى والنصوص النهائية .

على ضوء هذا يجب أن ننظر اليوم إلى الكتابات اليهودية - المسيحية ، وإذا أردنا أن نكون موضوعيين فعلينا أن نتخلى عن المفاهيم التفسيرية الكلاسيكية .

لقد كانت النتيجة الحتمية لتعدد المصادر هى التناقضات والمتعارضات التى أعطينا عليها أمثلة عديدة . ولما كان لكتاب الأناجيل ، إزاء المسيح ، نفس الميول إلى تفخيم بعض الأمور ، مثل كتاب الأدب الملحمى فى القرون الوسطى إزاء الملاحم الغنائية البطولية ، فإن ناتج هذا هو أن الأحداث مقدمة بشكل خاص عند كل راوٍ ، ولذلك تبدو

صحة الأمور المخبر بها فى عديد من الحالات مشكوكًا فيها بشكل شديد ، وفى هذه الظروف فإن بعض المقولات من الكتابات اليهودية المسيحية التى قد يكون لها علاقة ما بالمعارف الحديثة يجب أن تدرس بالتحفظ الذى يفرضه المظهر الجدلى لصحتها .

إن التناقضات والأمور غير المعقولة والتعارضات مع معطيات العلم الحديث تتضح تمامًا وظيفيًا مع كل ما سبق . ولكن دهشة المسيحيين تعظم حقًا عندما يدركون كل هذا، فقد كان الجهد عميقًا ومستمرًا ، ذلك الذى قام به كثير من المعلقين الرسميين حتى ذلك الوقت لإخفاء ما يتضح للعين المجردة بفضل الدراسات الحديثة . ذلك الذى أخفاه هؤلاء المعلقون تحت بهلوانيات جدلية حاذقة غارقة فى الرومانسية المديحية . ولقد أعطينا أمثلة شتى بهذه الحالة العقلية . خاصة فيما يتعلق بالثغرة التى كانت مجهولة بتأسيس تناول القربان المقدس .

إن لتنزيل القرآن تاريخًا يختلف تمامًا عن تاريخ العهد القديم والأناجيل ، فتنزيله يمتد على مدى عشرين عامًا تقريبًا ، وبمجرد نزول جبريل به على النبى ﷺ كان المؤمنون يحفظونه عن ظهر قلب ، بل قد سجل كتابه حتى فى حياة محمد ﷺ . إن التجميعات الأخيرة للقرآن التى تمت فى خلافة عثمان ، فيما بين اثنى عشر عامًا وأربعة وعشرين عامًا من بعد وفاة النبى ﷺ قد أفيدت من الرقابة التى مارسها هؤلاء الذين كانوا يعرفون أن النص منذ ذلك العصر قد ظل محفوظًا بشكل دقيق . إن القرآن لا يطرح مشاكل تتعلق بالصحة .

إن القرآن ، وقد استأنف التنزيلين اللذين سبقاه ، لا يخلو فقط من متناقضات الرواية ، وهى السمة البارزة فى مختلف صياغات الأناجيل ، بل هو يظهر أيضًا - لكل من يشرع فى دراسته بموضوعية وعلى ضوء العلوم - طابعه الخاص ، وهو التوافق التام مع المعطيات العلمية الحديثة . بل أكثر من ذلك - وكما أثبتنا - يكتشف القارئ فيه مقولات ذات طابع علمى من المستحيل تصور أن إنسانًا فى عصر محمد ﷺ قد

استطاع أن يؤلفها ، وعلى هذا فالمعارف العلمية الحديثة تسمح بفهم بعض الآيات القرآنية التى كانت بلا تفسير صحيح حتى الآن .

إن مقارنة عديد من روايات التوراة مع روايات نفس الموضوعات فى القرآن تبرز الفروق الأساسية بين دعاوى التوراة غير المقبولة علميًا وبين مقولات القرآن التى تتوافق تمامًا مع المعطيات الحديثة ، ولقد رأينا دليلاً على هذا من خلال روايتى الخلق والطوفان . وعلى حين نجد فى نص القرآن ، بالنسبة لتاريخ خروج موسى ، معلومة ثمينة تضاف إلى رواية التوراة ، وتجعل مجموع الروايتين يتفق تمامًا مع معطيات علم الآثار ، بما يسمح بتحديد عصر موسى نجد فيما يتعلق بموضوعات أخرى فروقًا شديدة الأهمية تدحض كل ما قيل ادعاء - ودون أدنى دليل - عن نقل محمد ﷺ للتوراة حتى يعد نص القرآن .

وفى نهاية الأمر فإن الدراسة المقارنة من ناحية بين الدعاوى الخاصة بالعلم ، تلك التى يجدها القارئ فى مجموعات الأحاديث التى نسبت إلى محمد ﷺ والتى يشك فى صحتها غالبًا - وإن عكست مع ذلك معتقدات العصر - ، وبين المعطيات القرآنية ذات نفس الطابع من ناحية أخرى ، توضح بجلاء اختلافات تسمح باستبعاد فكرة شيوع الأصل بين القرآن والأحاديث .

ولا يستطيع الإنسان تصور أن كثيرًا من المقولات ذات السمة العلمية كانت من تأليف بشر ، وهذا بسبب حالة المعارف فى عصر محمد ﷺ . لذا فمن المشروع تمامًا أن ينظر إلى القرآن على أنه تعبير الوحى من الله ، وأن تعطى له مكانة خاصة جدًا . حيث إن صحته أمر لا يمكن الشك فيه ، وحيث إن احتواءه على المعطيات العلمية المدروسة فى عصرنا تبدو كأنها تتحدى أى تفسير وضعى . عقيمة حقًا المحاولات التى تسعى لإيجاد تفسير للقرآنم بالاعتماد على الاعتبارات المادية .

تم بحمد الله